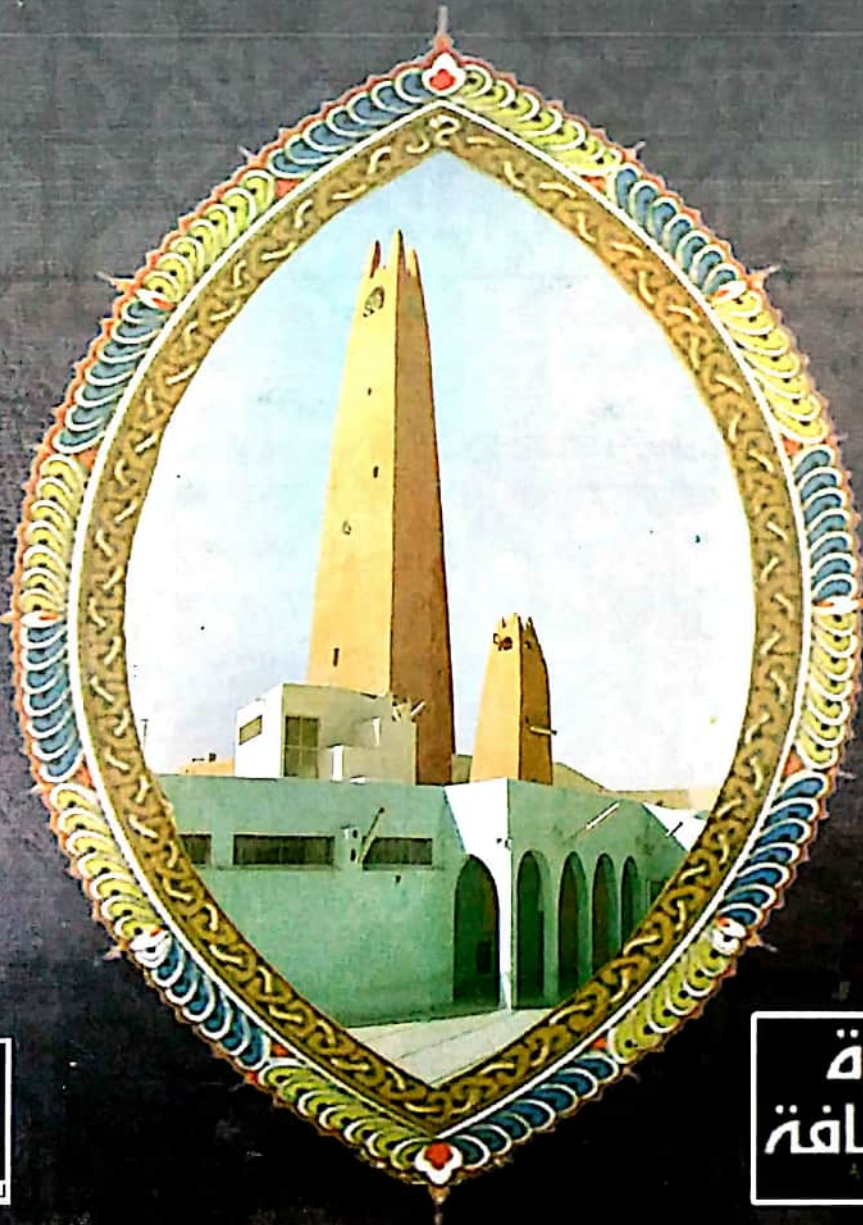


بلحاج معروف

العمارة الإسلامية في بني ميزاب





بالحاج معروف

العمارة الإسلامية

في بني مزاب



جميع الحقوق محفوظة

الإيداع القانوني : 5361 - 2013
ردمك : 978-9947-35-012-6

صدر هذا الكتاب بدعم من
وزارة الثقافة في إطار الصندوق
الوطني لترقية الفنون والآداب.



دار قرطبة للنشر والتوزيع

حي الدوزي، 01 رقم 102 باب الزوار - الجزائر -
0550 136 500

Email: darkortoba@hotmail.com

قال الله تعالى

“وقُلْ مَرَبِّ نَزِدْنِي عِلْمًا”

إهداء

إلى التي حملتني وهنا على وهن... أمي العزيزة
إلى الذي سهر على تكويني ... أبي العزيز
إلى شريكتي في درب الحياة ... زوجتي الحبيبة
إلى أبنائي الأعزاء... أنور وسارة وشيماء
إلى كلّ عشاق ومحبي الآثار والمهتمين بالتراث
الثقافي عامّة.

إلى كلّ الأصدقاء والزملاء...

المقدمة

لا شك أن لتنوع واختلاف البيئات وثقافات الشعوب التي دخلت تحت راية الإسلام دورا فعالا في تشكيل الفن الإسلامي عامة والعمارة بخاصة. ويجمع كل تلك المنجزات المعمارية في جميع أقطار العالم الإسلامي وحدة الطابع الذي جسّدته روحانية الدين الإسلامي الحنيف. فبفضل تضافر عدّة عوامل دينية وبيئية أنتج إباضية منطقة وادي مزاب عمارة ما زالت محافظة إلى حدّ الآن على تقاليدھا المعمارية، وتعدّ بحق أنموذجا رائعا للعمارة الصحراوية الجزائرية، ومن هنا جاء تصنيفها كضرورة ملحة ضمن التراث العالمي، فتّم ذلك من قبل منظمة اليونسكو سنة 1982م.

فكان للبيئة أثرها الواضح في تبلور نمط المعماري محليّ متميّز، ولكن هذه العمارة حتّى وإن كانت ذات خصائص منفردة، فإنّها لا تبتعد في جوهرها عن أصولها التي تعود بطبيعة الحال إلى روح العمارة الإسلامية. ولقد جلبت هذه العمارة أنظار العديد من الباحثين في ميدان الآثار والمهندسين المعماريين ومؤرخي الفن والرحالة سواء منهم الجزائريين أو المستشرقين فأنبهروا بها، وقاموا بدراساتها بعين ثاقبة محاولين في ذلك استنباط مميّزاتها، ولكن جلّ هذه الدراسات اقتصرّت على مجال واحد ألا وهو العمارة المدنية التي خُصّت بقدر كبير من العناية والاهتمام دون غيرها.

وعلى الرغم من الدور الفعّال الذي تؤدّيه المنشآت الدينية داخل المجتمع المزابي باعتباره مجتمعا متديّنا، فإنّ الباحثين أغفلوا هذا الجانب، وحتّى إن أنجزت بعض البحوث في هذا المجال فتبقى سطحية وملينة بالأخطاء. ولعلّ السبب في ذلك، يعود في الأصل إلى عدم تمكّن هؤلاء الباحثين، ولا سيّما المستشرقين منهم من الولوج إلى داخل هذه المنشآت المعمارية. ولسدّ الثغرة والنقص في هذا المجال قرّرنا إقحام أنفسنا في البحث في موضوع العمارة الإباضية المزابية في شقّها الديني (المساجد والمدارس والمصليات الجناشزية)، وذلك في محاولة للتنقيب عن حيثياته قصد الوصول إلى نتائج تزيد في تنوير الباحثين والمهتمين بالتراث عن مجال مازال غامضا لديهم.

لقد حفّزنا انتماؤنا إلى المجتمع المزابي في الولوج بكلّ ثقة نفس في أعماق الموضوع، وشجّعنا في ذلك اشتغالنا لفترة من الزمن في منصب محافظ الآثار داخل ورشة الدراسات وترقية

سهل وادي مزاب، حيث تعرّفنا عن قرب على تلك المنشآت الدينية، كما سمحت لنا ظروف العمل من إنجاز بعض مخططات هذه العمارات بالتعاون طبعاً مع مهندسي الورشة.

إنّ الخوض في أعماق هذا الموضوع لا يخلو من العقبات والصعوبات فقلّة المراجع المتخصصة إن لم نقل انعدامها كانت أول العقبات، واستدعى بنا الأمر الاعتماد كلياً على البحث الميداني، وقد واجهتنا بين الحين والآخر صعوبات جمة أثناء إنجاز البحث الميداني، ولا سيّما ما تعلّق منه في الحصول على إذن من الجهات العرفية الوصية على هذه المعالم الأثرية سواء لإجراء الرفوعات المعمارية أو لأخذ الصور، كما باءت محاولتنا بالفشل في سبيل الحصول على معلومات أو وثائق ذات صلة بهذه المنشآت، والتي تزيّل بلا شك الكثير من الغموض في حال وصولها إلى أيدي الباحثين. وعلى الرغم من كلّ هذه الصعوبات، وعلى الرغم الانعدام الكلي للوثائق التاريخية، وعدم وجود أي نصّ تاريخي في كلّ المساجد والمصليات الجنازية بمزاب، فإنّ عزيمة كانت أقوى في سبيل إتمام هذا البحث.

لقد شيدت في كلّ مدينة من مدن مزاب السبع منشآت دينية متنوعة؛ ومنها المسجد الذي اختير له موقعاً استراتيجياً في أعلى قمة الهضبة، بحيث يشرف بمنزنته الهرمية الشكل على كلّ المباني الأخرى المتدرّجة من حوله فوق الهضبة. فإلى أيّ الطرز المعروفة في عمارة المساجد تعود تصاميم مساجد مزاب؟ وما هي الخصائص التي تميّزها عن غيرها؟

إنّ الشكل الهرمي الناقص الذي أعطاه المعماري المزابي للمآذن مزاب شكّل هاجساً لدى مؤرّخي الفن، ولطالما بحثوا عن جذوره ومنشئه، لكن إجابته لم تكن مقنعة من الناحية العلمية، ليبقى التساؤل مطروحاً في الساحة العلمية إلى حدّ الساعة.

ومن العمارات الدينية الأخرى المهمة في حياة المزابيين نجد المصليات الجنازية أو ما يُعرف أيضاً بمصليات المقابر التي تقف شامخة وسط المقابر الإباضية بوادي مزاب. فعمّا لا شك فيه أنّ هذه المنشأة كانت وما زالت تؤدّي دوراً هاماً وسط المجتمع المزابي، فما وظيفتها؟ وفي ظلّ اختلاف عمارتها، فهل يمكن إبراز أنماطها المعمارية؟

إنّ ظاهرة خلو المباني المزابية من كلّ أشكال الزخرفة فتحت أبواب النقاش والجدل على مصراعيه، ولا سيّما أنّ المزابيين يعثون في نظر المؤرّخين ورثة السدرانيين الذين بلغوا في فنّهم درجة عالية من الإتقان. فما هي العوامل التي جعلت الفن المزابي يميّز، وذلك على

الرغم من بماطته وإبعاده عن ذلك الفن الراقي الذي عرفه الإباضيون في سدراتة؟ وفي محاولة الإلمام بالموضوع من كلّ جوانبه وحيثياته رأينا من المناسب جدّاً تقسيم البحث تقسيماً يعتمد على الفصول.

في البداية أردنا أن نقوم بتفكيك عناصر العنوان، فاجتهدنا في إعطاء مفهوم مناسب لمصطلح العمارة ثمّ عزّجنا إلى العمارة الإسلامية، ولا سيّما في شقّها الديني باعتبارها أساس الموضوع، وأخيراً حاولنا تقديم فكرة وجيزة للقارئ الكريم عن النسيج العمراني الذي تتّسم به المدن في منطقة وادي مزاب.

إنّنا لا نكتم حقيقة حاضرة أنّ طبيعة المنطقة فرضت نفسها علينا بشكل كبير، فكان من الصعوبة بمكان المرور على تاريخها وحضارتها مروراً عابراً دون تلمّس لنكهتها، لذلك أولينا اهتماماً منفرداً لهذا الجانب إلى درجة أنّنا خصّصنا لها فصلاً كاملاً. حيث أردنا من خلاله إجراء مسح لمنطقة وادي مزاب من الناحية التاريخية، واستوقفنا شهية البحث عند بعض القضايا والمحطّات التاريخية الهامة التي أثارت فضولنا، سيّما ما تعلّق منها بتأسيس مدن مزاب السبع. ونظراً للدور الفعّال الذي تؤدّيه التنظيمات الاجتماعية العرفية داخل المجتمع المزابي، وعلاقتها المباشرة بالمنشآت الدينية، رأينا من اللائق جدّاً تقديم فكرة وجيزة للقارئ الكريم عن هذه التنظيمات الاجتماعية مركّزين بالخصوص على نظام حلقة العزّابة ومهامها داخل المجتمع وعلاقتها بالمنشآت الدينية في المدينة المزابية.

وفي محاولة الخروج من هذه الدراسة بنتائج علمية وموضوعية رأينا من اللائق اتّباع أسلوب التحليل والمقارنة بين عمارات وادي مزاب نفسها وبينها وبين المنشآت الدينية الإسلامية الأخرى خارج المنطقة، وذلك أثناء تناولنا للعناصر الدينية؛ المساجد والمصليات الجنازية التي قمنا بدراستها من ناحية التصميم وتوقّفنا عند منشأ وتطوّر كلّ نوع.

ولإبراز الخصائص المعمارية لمنطقة مزاب أفردنا دراسة خاصة للعناصر المعمارية المستعملة في المنشآت الدينية المزابية، وتعرّضنا عند تناولنا لكلّ عنصر معماري إلى أهميته ودوره داخل المبنى. ثمّ تطرّقنا إلى مجال الزخرفة في العمارات الدينية الإباضية، وأخيراً تعرّضنا إلى مواد البناء المستعملة في هذه المنشآت.

وذيّلنا دراستنا على غرار كل البحوث بخاتمة جمعنا فيها حصيلة كلّ نتائج الدراسة، فحاولنا من خلالها إبراز مميّزات وخصائص العمارة المزابية في شقّها الديني .

وقد دَعَمنا دراستنا بمجموعة من المخطّطات والصور قصد تسهيل عملية استيعاب المعلومات من قبل القارئ الكريم، وتقريب فهم الأفكار التي نعرضها في سياق تناولنا لموضوع البحث.

ونتمنى في الأخير أن تكون هذه الدراسة لبنة أخرى تضاف إلى رصيد المكتبة العربية الإسلامية، فإن وفقنا فمن عند الله، وإن أخطأنا فحسبنا أنّ لنا أجرا على ذلك، وما توفيقنا إلّا بالله عليه توكلّنا وإليه ننيب.

تلمسان يوم 08 أكتوبر 2013

الفصل الأول

مفاهيم عامة

مفاهيم عامة

I - مفهوم العمارة

إنّ موضوع هذه الدراسة يحتمّ علينا استعراض بعض الآراء حول ماهيّة العمارة ليتسبّى لنا تقديم تعريف مناسب يتماشى وخصوصيات العمارة التي نحن بصدد البحث في حيثياتها. والتي خضعت عبر العصور لوجهات نظر مختلفة.

لم تنشأ العمارة بكلّ ما تحمل من مبادئ وأساليب متنوعة من لا شيء، ولكنها أخذت تتكوّن وتتبلور شيئاً فشيئاً عبر العصور والمراحل التاريخية التي قطعها الإنسان الذي كان يحاول دوماً تصميم مسكن يتوافق واحتياجاته الاجتماعية والاقتصادية والنفسية. فعندما شعر الإنسان البدائي بحاجة الملحة إلى مأوى يحميه من الظروف القاسية للوسط الطبيعي الذي يعيش فيه، لجأ إلى المغارات فنظّم ورتّب فراغاتها وفق احتياجاته ونشاطاته المختلفة، وعلى هذا الشكل تعرّف الإنسان على المبادئ الأولى للعمارة⁽¹⁾.

إنّ انتقال الإنسان من مرحلة جمع الطعام والصيد إلى مرحلة تربيّة المواشي والزراعة جعلته يحتاج للعيش في حياة مليئة بالاستقرار والأمن، وقد استدعى به الأمر إلى البحث عن مسكن بالقرب من مصدر مائي يتلاءم والاستغلال بالرعي وممارسة النشاط الزراعي، فلجأ إلى ما تمنح له الطبيعة من مواد بناء، فاستغلّها أحسن استغلال في بناء مسكنه، وقام بتنظيم وتوزيع فضاءاته الداخلية حسب احتياجاته اليومية ورتّبه وفق أذواقه، ونشاطاته داخل المسكن. ويبدو أنّ الإنسان في تلك المرحلة قد أعطى أهميّة للطبيعية الشمس والقمر والمطر والعواصف، فراقبها وأنجز مبانيه انطلاقاً من تلك الملاحظات، وهكذا برزت فيما يبدو بعض مبادئ العِمارة الرمزية. ومنذ تلك المرحلة أخذ أسلوب البناء والتشييد يتطوّر وينمو، فمن الطين وجذوع الأشجار المختلفة انتقل الإنسان إلى استخدام الحجر غير المنحوت ثمّ الحجر المنحوت إلى أن ابتكر وسائل إنشائية جديدة أكثر تعقيداً مثل الأعمدة والعقود والأقبية والقباب وغيرها من العناصر المعمارية المختلفة⁽²⁾.

وبمرور الزمن تطوّرت الأساليب الإنشائية في العمارة فبرزت بموازاة مع ذلك محاولات عديدة في مجال البحث عن سرّ العمارة وجماليّتها، فوضعت لذلك نظريات واختلفت الآراء

(1) - رثيف مهنا ويسن بحر: نظريات العمارة، الكتاب الأول، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1992، ص: 19 - 20.

(2) - مرجع نفسه، الكتاب الأول، ص: 14.

ووجهات نظر المعماريين حول إعطاء مفهوم دقيق للعمارة.

وهكذا فقد جعلها بعض الفلاسفة اليونانيين بمثابة أم الفنون⁽¹⁾. ويبدو أن العمارة الدينية داخل المجتمعات اللاهوتية كانت المجال المناسب للفنان لإظهار قدراته الإبداعية وابتكاراته الفنية في ميادين أخرى خارج العمارة مثل النحت والرسم، وهذا ما جعل ريمون بابر يعدّ العمارة المنبع الأصلي للفنون الأخرى والتي تجلّت نشأتها حسب رأيه على جدران المعابد⁽²⁾. وذلك وفق الأتينية التاريخية.

ويُعدّ فيثروفيوس أول من قنن تعريفًا علميًا للعمارة في كتابه دي أرشيتكتورة De Architectura مفاده أنها علم يشتمل على مجموعة متنوعة من الدراسات والمعارف، حيث تقوم باختيار نتائج الفنون الأخرى. وتعدّ العمارة في نظره ثمرة تأتي جزاءً بدل مجهودين أساسيين؛ أحدهما نظري، والآخر تطبيقي:

فالنظري يقوم بإثبات صحة ودقة النسب المتوخاة في الأشياء المعالجة. ولما التطبيقي فهو علاج الفكرة بالممارسة، أي تحقيق الفعل الذي يعطي للمادة المستعملة الشكل المرسوم⁽³⁾.

وقد عُرفت العمارة أيضًا على أنها تكوين فضائي يستجيب لمتطلبات المنفعة والمتانة والجمال والاقتصاد، وتظهر براعة المهندس المعماري في تحقيق نوع من الانسجام والتوازن بين هذه العناصر الأربعة.

ولقد ركّز عرفان سامي عند محاولته إعطاء مفهوم للعمارة على تلك العناصر الأربعة، فيرى أن العمارة هي الفن العلمي لإقامة عمائر تتوفر فيها الشروط الأتية: المنفعة والمتانة والجمال والاقتصاد والتي يمكنها تلبية حاجيات الإنسان المادية والنفسية والروحية، وذلك بالاعتماد على أحسن الوسائل الإنسانية المتوفرة في ذلك العصر، ولكن شريطة أن يقوم بإنجاز ذلك المبنى معماريون لهم دراية كافية بالظروف البيئية المحيطة بالمعلم⁽⁴⁾.

ولما المعماري الفرنسي لوكوربزييه Le Corbisier الذي كان بلا شك متأثرًا كثيرًا بالعمارة القديمة ولاسيما الإسلامية، فلقد حاول بقدر الإمكان الاستفادة من تجارب السابقين،

(1) - توفيق حمد عبد الجواد: تاريخ العمارة والفنون الإسلامية، ج: 3، القاهرة 1970، ص: 2.

(2) - عبد المصطفى محمد: الإبداع الفني وتنوع الفنون الجميلة، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1985، ص: 96.

(3) - سويدي محمد القوي بسنوسي: الأصول السبعة لمعايير التناسق في العمارة الدينية الإسلامية بالمغرب العربي، رسالة دكتوراه دولة، قسم الثقافة الشعبية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان 2000، ص: 85.

(4) - رفيف مهنا ويسن بحر المرجع السابق، الكتاب الأول، ص: 108 - 109.

فراى على ضوء مسار تاريخ العمارة أنها لعب متنقن بالكتل منظورة تحت الضوء⁽¹⁾.

وتعدّ العمارة عند بعض الباحثين بمثابة الروح الخلقة التي تتطور عبر الزمن تماشيًا مع الطبيعة والظروف المحيطة بالإنسان، سواء كانت بيئية أو اجتماعية.

وأما صاحب كتاب نظريات العمارة فقد أعطى تعريفًا شموليًا لمفهوم للعمارة، معتقدا أنها انعكاس للنشاط الاجتماعي للإنسان من كل جوانبه الاقتصادية والاجتماعية والبيئية⁽²⁾.

والشيء الذي نستنتج من هذه التعريفات المختلفة السالفة الذكر، أن العمارة ما هي إلا شكل من الأشكال لتلبية حاجيات الإنسان المختلفة، واستجابة لممارساته الاجتماعية.

II - العمارة الإسلامية :

نُطلق هذه التسمية على العمارة التي أنجزت في المناطق التي فتحها المسلمون وانتشر فيها الدين الإسلامي، والتي اعتنق كل أهلها أو قسم منهم هذا الدين، وهكذا انتشرت هذه العمارة في كامل المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي غربا إلى الصين شرقا، وقد وصل تأثيرها إلى غاية أوروبا حتى وصلت مشارف فرنسا غربا ومدينة فيينا شرقا.

لقد استفاد المسلمون في بداية عهدهم بتجارب وخبرات الأمم التي دخلت في الديانة الإسلامية، لاسيما أنها كانت ذات حضارة عريقة، ومن الطبيعي جدًا أن يتأثروا بفنون تلك الأمم، خصوصا أن العرب لم يصلوا بعد إلى استخدام تلك الأساليب المتطورة في مجال العمارة والبناء وما يتبعها من الزخارف المتقنة. وهكذا تأثر المسلمون بالفن الساماني والبيزنطي والهندي والقبطي والقوطي⁽³⁾، وهذا حال الحضارات التي تؤثر وتتأثر فيما بينها، إذ لا يمكن لأي فن أن ينشأ من عدم، فلا بد أن يستفيد الفن المستحدث من فنون السابقة، ويعتمد عليها في البداية لكي ينطلق ويكون شخصيته. فالفن اليوناني مثلا اعتمد في بداية ظهوره على فنون الشرق الأدنى وبصفة خاصة الفن الفرعوني.

قام المعماري المسلم باستغلال تلك التجارب المعمارية السابقة وصاغها وطورها على حسب احتياجات ديانته التي أضفى عليها طابعا خاصا، وبمرور الزمن أثبتت العمارة الإسلامية

(1) - رفيف مهنا ويسن بحر المرجع السابق، الكتاب الأول، ص: 109.

(2) - مرجع نفسه، الكتاب الأول، ص: 110.

(3) - Georges Marçais; L'Art Musulman, 1er Ed, Presse Universitaire de France, Paris, pp: 1-2.

بخصوصياتها المتميزة مكانتها ضمن فنون العمارة الأخرى، وأصبح من الصعوبة بمكان محاولة تمييز تأثيرات الفنون الأخرى عليها.

ولابد من الإشارة إلى أن هناك عاملين أساسيين ساهما بقوة في تشكيل وبلورة هذه العمارة

وهما:

- العامل البيئي: انتشر الإسلام في أقاليم تختلف عن بعضها في بيئتها الطبيعية من تضاريس ومناخ، وكان لهذا الاختلاف أثره على تشكيل الفن المعماري الإسلامي، وهكذا كان للعمارات المحلية نصيبا هائلا في تبلور هذه العمارة⁽¹⁾، فحيث كانت الصحراء - باعتبار أن معظم الأقاليم الإسلامية تقع في بيئة صحراوية - نجد المياني قد تأثرت بتلك البيئة الصحراوية، فبنت بصمات هذه البيئة واضحة عليها، وانطلاقا من التنوع البيئي برز تنوع في الطرز المعمارية والمدارس الفنية.

- العامل الديني: كانت لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف أثر كبير في صياغة وتكوين الفن المعماري الإسلامي. وبما أن الإسلام قد فرض إقامة الصلاة مثلا في اتجاه الكعبة فقد جاءت كل المباني الدينية⁽²⁾ (المساجد والمصليات الجنائزية والمدارس والأضرحة... الخ) مرتبطة لشدة الارتباط بهذا الاتجاه.

بعد استقرار العرب المسلمين في المدن واختلاطهم بالأجناس والأمم الأخرى، وتأقلمهم مع الحياة الحضرية أنتجوا عمارة دينية إسلامية في حلة جديدة، ولكنها ظلت وفية لتقاليد معمارية مستوحاة في الدرجة الأولى من الدين نفسه، ومن البيئة الصحراوية التي احتضنتها.

وقد بدأت العمارة الإسلامية بسيطة في بنائها، فالجامع أخذ شكله انطلاقا من الوظيفة التي يؤتيها. وبما أن صلاة الجماعة تقتضي الاصطفاف وراء الإمام في صفوف منتظمة، وتعاليم الدين الحنيف تحث المصلّي من الاقتراب من الإمام قدر الإمكان لنيل ثواب أكثر، فقد جاءت المساجد مستطيلة الشكل عموما واستطالتها كانت عرضيا أي أن العرض أكبر من العمق⁽³⁾. أضف إلى ذلك فإن إيجاب المصلّي على التوجه في اتجاه الكعبة أثناء أداء الصلاة قد أرغم المعماري المسلم على توجيه كل العناصر الدينية في اتجاه الكعبة، وقد رمز إلى هذا الاتجاه

بوضع تجويف في جدار القبلة أطلق عليه اسم "المحراب".

كانت العمارة الإسلامية ترتكز في أول ظهورها على مجموعة من العناصر المعمارية والزخرفية التي تنفّح وروح الديانة الإسلامية، مما أضفى على منجزاتها طابعا متميزا يكاد يكون متشابها في كل الأقطار الإسلامية.

وعلى الرغم من الاختلاف أحيانا بين هذه العمارات في بعض التفاصيل أو في العناصر المعمارية الإنشائية كمنحنيات القباب والعقود والتكوينات المعمارية للمآذن أو في بعض الوحدات الزخرفية، فإن ذلك لم يثبها من الاشتراك في وحدة الروح الإسلامية الكامنة وراء التكوينات المعمارية والتشكيلات الزخرفية التي أصبحت تقليدا معماريا يحفظه المعماريون المسلمون عن ظهر قلب، وهذا ما أدى فيما يبدو بجورج مارسيس Georges Marçais إلى الجزم بأن الوحدة اللغوية تعدّ عنصرا مهما في تكوين طابع معماري موحد⁽¹⁾.

ومما ساعد أيضا على وحدة الطابع المعماري الإسلامي ما كان من تشابه في الظروف البيئية في أغلب مناطق العالم الإسلامي، فالحرارة شديدة عموما، والسماء صافية والأمطار قليلة، وهذه ميزة البيئة الصحراوية التي تغطّي مساحات هامة من هذا العالم.

ولقد أخذ المعماري المسلم تلك الظروف القاسية بعين الاعتبار، فشيد عمارة دينية ومدنية وحتى عسكرية تتلاءم مع هذه الظروف. فخصّص فضاء مكشوفاً (الصحن) محاطا في أغلب الأحيان بأروقة، ليصبح هذا الفضاء أكثر الفضاءات أهمية في العمارة الإسلامية نظرا للأدوار المهمة التي يقوم بها⁽²⁾.

وتمتاز العمارة الإسلامية بخصائص معمارية، بحيث يستطيع من خلالها الإنسان البسيط تمييزها بسهولة عن العمارات التي تنتمي إلى حضارات أخرى. كما يمكن ملاحظة اختلافات داخل العمارة الإسلامية نفسها أملت ظروف الاحتكاك بتجارب الأمم التي خضعت للإمبراطورية الإسلامية. فالفن كالألغة فهي حيّة والتغيير من أهم سماتها.

وهكذا نلاحظ أن العناصر الإسلامية ذات طابع موحد، ولكنها متميزة، ويختلف بعضها عن بعض وفق الأقاليم والبيئات والعصور المختلفة. فالعناصر قد تختلف في مواد البناء، وفي أنواع

(1) - Georges Marçais: Op.cit, p: 5.

(2) - Ibid, p: 3.

(1) - رنف مينا ويسن بحر: المرجع السابق، المجلد الأول، ص: 69.
(2) - ثروت عكاشة: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار المعارف، القاهرة 1981، ص: 14.
(3) - مرجع نفسه، ص: 19.

الأعمدة وتيجانها، وفي العقود أو الأقواس، وفي المآذن والقباب والمقرنصات أو الدلايات وفي أنواع الزخارف النباتية والهندسية والخطية وفي المواد المستعملة لتكسية الجدران كالجص واللوحات الخزفية والقشاني وغيرها من المواد والعناصر الأخرى... الخ⁽¹⁾.

وخلال قرون من الزمن تطورت العمارة الإسلامية، وظهرت عليها عناصر الاختلاف والتميز، وقد سار هذا التطور في مراحل تاريخية تبعاً للتاريخ الإسلامي السياسي. فقد كان الفن الإسلامي في معظمه تحت خدمة السلطان أو الأمير وحاشيتهما، فالمعماري كان يشيد المساجد والقصور وغيرها من المعائر بأمر من الخليفة أو السلطان أو الأمير ومن هنا برزت المدارس الفنية المختلفة.

وتنسب الطراز إلى شتى الدول التي بسطت نفوذها على أنحاء العالم الإسلامي أو على جزء منه، وتنسب أيضاً إلى الأقاليم نفسها. لكنه لا يمكن التعرف بالتحديد على تاريخ نشأة أي طراز فني، أو تاريخ اختلافه، لأن هذه الطرز تتطور فينشأ بعضها من بعض، والفصل بينها وضعي واصطلاحي إلى حد كبير، كما أنها تأثر بعضها في بعض، بحيث أن بعض الأمراء يقومون باستقدام أو بنقل الفنانين والصناع من إقليم إلى إقليم آخر، وهذا ما يفسر ذلك التداخل والتماثل أحياناً بين الطرز المختلفة.

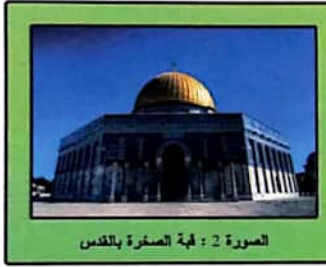
ومن الطبيعي جداً أن تبرز بعض الاختلافات فيما بين المعائر الإسلامية - على الرغم من وحدة الطابع التي جمعتها الدين الإسلامي الحنيف - في أنحاء العالم الإسلامي، إذ لا يمكن تصور استمرار وحدة معمارية خلال فترة زمنية طويلة تزيد عن عشرة قرون، كما لا يمكن إيجاد هذه الوحدة في كامل الأقاليم الإسلامية التي تتسم باختلاف عاداتها وتقاليدها وبيئاتها. وانطلاقاً من هذا اتفق معظم مؤرخي الفن على تقسيم الفنون الإسلامية بما في ذلك فن البناء إلى طرز ومدارس، وقد اعتمد في هذا التقسيم، إما على أساس الأحداث السياسية أو على أساس إقليمي. ومنورد فيما يأتي أهم المدارس الفنية المعتمدة لدى أغلب مؤرخي الفن الإسلامي. ولأن موضوع البحث هنا يدور حول العمارة الدينية سنقتصر على تقديم نماذج وأمثلة لمنشآت معمارية تنتمي إلى هذا النوع فقط.

(1) - زكي محمد حسن: في الفنون الإسلامية، دار الرائد العربي، بيروت 1981، ص: 10.

1 - الطراز الأموي



الصورة 1 : جامع الأموي بدمشق



الصورة 2 : قبة الصخرة بالقدس

يدل هذا الطراز على ظهور أول مدرسة فنية إسلامية. وقد كانت نشأته ابتداء من استيلاء الأمويين على عرش الخلافة الإسلامية وانتقال العاصمة الإسلامية من المدينة المنورة إلى دمشق. وكانت السيادة في بداية الأمر للفنانين البيزنطيين، ولا سيما المعماريين السوريين الذين كان لهم الفضل الكبير في تشكيل هذا الطراز، وقد نقل الولاة وقائد الجيش أساليب هذه المدرسة إلى سائر الأقاليم الإسلامية بفضل البنائين والصناع الذين كانوا يرافقون الجيوش الفاتحة أو تم استقدامهم من بلاد الشام. ولكن إضافة إلى التأثيرات البيزنطية فلم يخلو هذا الطراز من التأثيرات الساسانية.

ومن مظاهر العمارة الدينية في هذه المدرسة مسجد قبة الصخرة بالقدس (72هـ/691م) اسلذي شيده الخليفة عبد الملك بن مروان، والجامع الأموي بدمشق (88هـ/706م) الذي أمر ببنائه الخليفة الوليد بن عبد الملك⁽¹⁾.

2- الطراز العباسي

بمجرد سيطرة العباسيين على الخلافة الإسلامية سنة 132هـ/749م انتقل مركز الحكم من دمشق إلى بغداد، وكان قيام هذه الدولة بمساعدة الخراسانيين، وكان لهذه الأحداث السياسية أثرها على الجانب الفني ككل وعلى الجانب المعماري بالخصوص، إذ تغيرت الأساليب المعمارية والزخرفية، فكان التأثير الفارسي واضحاً، حيث اتجه البنّاءون نحو استعمال الحجر بدلا من الحجارة، والدعامات بدلا من الأعمدة. ولقد بلغ هذا الطراز أوجّه

(1) - Georges Marçais: Op. cit, pp: 15 - 21.

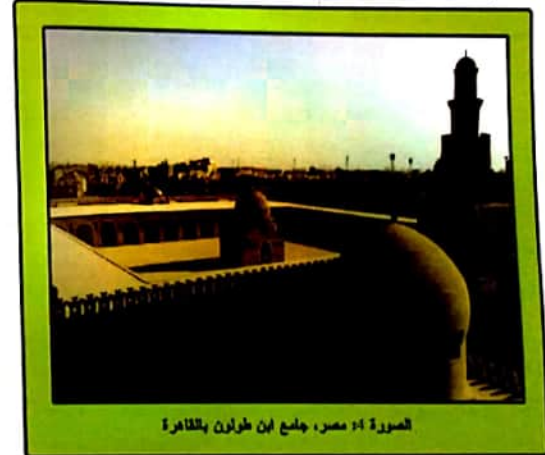
ومن أهم المنشآت الدينية المرتبطة بهذه المدرسة نذكر جامع الكبير بمسامراء (234-238هـ/848-852م) الذي شيّده الخليفة المتوكل، وجامع ابن طولون بالقاهرة (263-266هـ/876-879م) الذي أمر ببنائه أحمد بن طولون، والضريح المعروف بالقبة الصليبية (213هـ/828م) التي يجزم هرتزفيلد أنها تحمل جثمان الخليفة العباسي المأمون⁽¹⁾.

وبعد أن توسّعت أرجاء الإمبراطورية الإسلامية ظهرت عدّة إمارات مستقلة كلياً أو جزئياً عن السلطة المركزية، وبدأت معها ملامح الاستقلال الفني تتجلى في الأفق، فبرزت منذ

القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي طرز وأساليب فنية جديدة في شتى أنحاء العالم الإسلامي سنكتفي هنا بذكر أهمّها.



الصورة 3: العراق، جامع الكبير بمسامراء



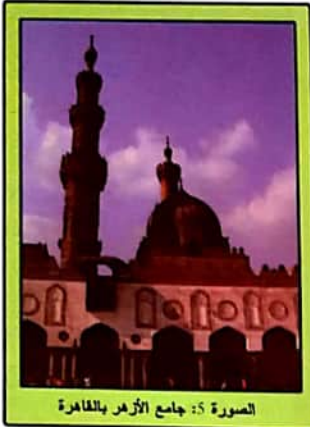
الصورة 4: مصر، جامع ابن طولون بالقاهرة

3 - الطراز المصري السوري:

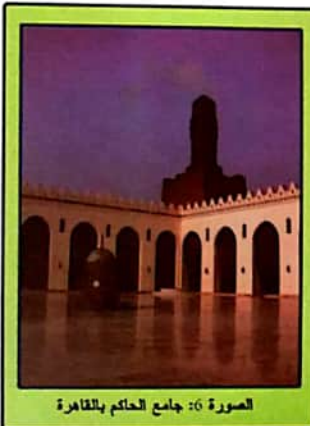
بعد استيلاء الفاطميين على مصر وجزء كبير من بلاد الشام، ابتداء من سنة 359هـ/969م ظهر طراز جديد يختلف نوعاً ما عن المدرسة العباسية، ومع مرور الزمن تطوّرت أساليب هذا الطراز في العهد المملوكي على الخصوص. وظهر عنصر التجديد جلياً في جامع الجيوشي بالقاهرة، والذي يعود تاريخ بنائه إلى سنة 478-483هـ/1085-1090م، حيث تعلوه مئذنة مركبة من جزئين مربعين؛ جزء سفلي، وجزء علوي مثنى الشكل، ويلتصق بالمبنى ضريح المؤسس بدر الجمالي أمير الجيوش الفاطمية⁽¹⁾.

وقبل هذا التاريخ شيّد الفاطميون عمائر دينية عديدة في القاهرة مثل الجامع الأزهر (360-363هـ/970-973م)، وجامع الحاكم (390-404هـ/990-1013م)، وجامع الأكبر (519هـ/1125م). وإلى جانب المساجد قام الفاطميون أيضاً ببناء الأضرحة، ومثال ذلك ضريح إخوان يوسف (494هـ/1100م)، وهنا يشير جورج مارسيس Georges Marçais إلى أنّ الفاطميين استعملوا النوع البدائي لعنصر المقرنصات⁽²⁾.

لقد خلف المماليك البحرية والشركية في مصر وبلاد الشام بخاصة أنواعاً عديدة من المباني



الصورة 5: جامع الأزهر بالقاهرة



الصورة 6: جامع الحاكم بالقاهرة

(1) - تروث عكاشة: المرجع السابق، ص: 177-178.

(2) - Georges Marçais: Op.cit , p: 64.

(1) - زكي محمد حسن: المرجع السابق، ص: 13-15.

الدينية، لشهرها المدارس التي ظهر التأثير الساساني جلياً عليها، ولا سيما ما يعرف بالمخطط المتعامد الذي يعتمد أساساً على عنصر الإيوانات، وتبرز روح التجديد في العمارة الدينية، ببناء الأضرحة الأميرية أو السلطانية الملاصقة للمدارس⁽¹⁾.

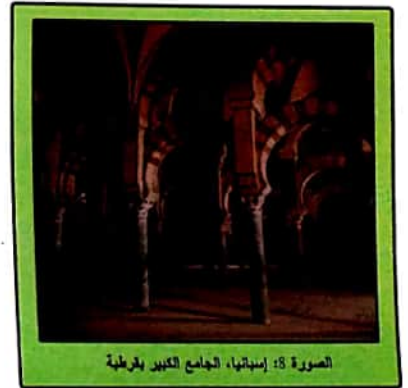
4- الطراز المغربي الأندلسي

بدأت ملامح هذه المدرسة تتجسّد في الواقع بمجرد قيام الخلافة الأموية في الأندلس، حيث عرفت العمارة المغربية الأندلسية عصرها الذهبي، وإن كانت ملامح هذا الطراز قد بدأت في الظهور فعلياً قبل ذلك، وقد تبلورت عناصر هذه المدرسة في مسجد قرطبة



الصورة 7: تونس، الجامع الكبير بالقرن

(169هـ/785م) الذي أمر ببنائه عبد الرحمن الداخل⁽²⁾. وعندما استولى المرابطون على الحكم في الأندلس ساد طراز معماري متأثر بالأفكار الصوفية⁽³⁾. وأما في عهد الموحدين (633هـ/1235م) فكان للأندلس ومراكش الحظ الأوفر من البناء والتشييد، إذ جلبت اهتمام السلاطين الموحدين وعنايتهم.



الصورة 8: إسبانيا، الجامع الكبير بقرطبة

(1) - Georges Marçais: Op.cit, pp:113 -114.

(2) - Natascha Kubisch: "Espagne et Maroc (86 - 156) Architecture" Art et Civilisation de l'Islam, Konemann, Cologne, p:218

(3) - فرانت كرايفل: الفن الإسلامي، تر: أحمد موسى، دار صادر بيروت 1966، ص: 121.

وقد امتاز الطراز المعماري المغربي الأندلسي بعقوده المتنوعة وبشكل خاص عنصر المئذنة ذات الشكل المربع التي أعطت له طابعاً متميّزاً، وأصبحت من خصوصيات هذه المدرسة، ونضيف إلى ذلك الأعمدة الرشيقة والتيجان ذات المقرنصات والفسيفساء الخزفية المعروفة بالزليج الذي استعمل في تغطية الجدران والأرضيات. وقد ظهرت هذه المميزات بصورة جليّة في المساجد والمدارس وفي الأضرحة بصفة خاصة⁽¹⁾.

5- الطراز الإيراني

بظهور السلاجقة في مسرح الأحداث السياسية في إيران نشأ طراز معماري جديد في عمارة المساجد، أطلق عليه اسم المساجد ذات إيوانات، ويُعد قصر ستيفون الذي يعود تاريخ بنائه إلى القرن السادس الميلادي والذي شيّده السلطان الساساني خسرو الأول بالمعدان، مصدر إلهام لهذا الطراز. ومن أقدم النماذج المعروفة التي تتدرج تحت هذا الطراز نذكر جامع الجمعة بأصفهان (473هـ/1080م) الذي شيّده السلطان ملكشاه السلجوقي. ولقد أصبح هذا المخطط النموذج المثالي لنمط معماري ساد في مساجد إيران حتى نهاية العهد الصفوي. ولدينا نماذج



الصورة 9: إيران، المسجد الجامع بأصفهان

أخرى عديدة أشهرها على الإطلاق جامع الشاه عباس بأصفهان (1021هـ/1612م)، والذي قام ببنائه المهندس علي الأصفهاني⁽²⁾، كما كان هذا التصميم إرهاباً للمخطط

المفضل في بناء المدارس التي كان للسلاطين السلاجقة الفضل والسبق في إنشاء أول نماذج منها.

(1) - زكي محمد حسن: المرجع السابق، ص: 16.

(2) - Henri Stierlin: Architecture de l'Islam, Office du Livre, Fribourg, pp: 80 - 130.

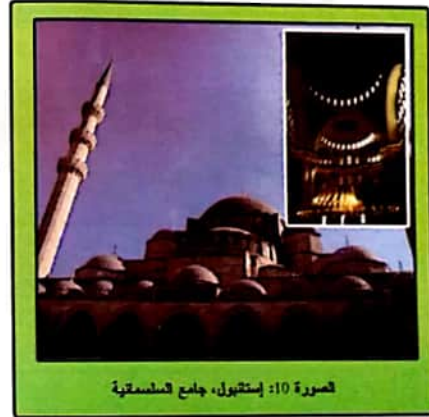
وقد حرص الفنان الإيراني على إظهار ذلك الاتسجام في عناصر المبنى، وبرع في إنشاء القباب التي تختلف عن غيرها بمحلياتها وتعدد تكويناتها في مناطق انتقالها من المربع إلى "نرة في تشكيلات مذهلة ومتعددة تعتمد على العناصر المعقودة"⁽¹⁾.

وتتجلى لنا مدينة سمرقند أيضا نماذج جذّابة من الأضرحة الإيرانية وأشهرها غورامير الذي أنجز من طرف المهندس محمد بن محمود سنة 807هـ/1404م بأمر من السلطان تيمورلنك⁽²⁾.

6- الطراز التركي

لما أسس العثمانيون إمارتهم في بلاد الأناضول سنة 725هـ/1324م، بدعوا في وضع الركائز الأولى لفنهم ولنمط عمارتهم التي أعطت الاهتمام والعناية الكبيرة لعنصر القبة، وقد استفادوا من تجارب البيزنطيين في مجال تشييد العماائر ذات القبة المركزية وكان ذلك ابتداء من سنة 736هـ/1335م، وقد كان لدخول العثمانيين مدينة استانبول 857هـ/1453م أثر كبير

في تطوير هذا الطراز، ولا سيما على يد المهندس المعماري الفذّ سنان باشا الذي أخذ كنيسة أياصوفيا مصدر إلهام لأعماله المعمارية الضخمة، وفعلا فقد بلغت القبة أوج عظمتها على يده في جامع السلعية بأدرنة (976-982هـ/1569-1575م)، كما ينكر ذلك بنفسه في كتابه "تذكرة البنين"⁽³⁾.



صورة 10: إستنبول، جامع السلعية

(1) - تروث عكاشة: المرجع السابق، ص: 105.

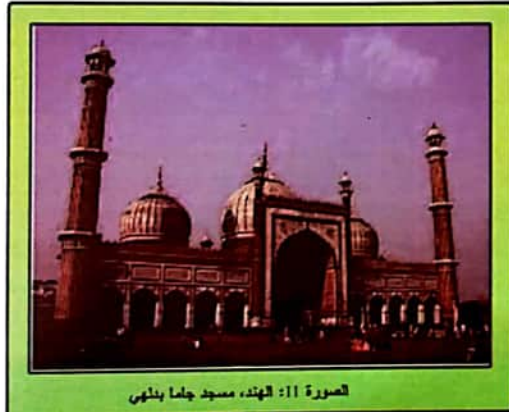
(2) - Henri Stierlin, Op. cit, p: 107.

(3) - Baelhadj Marouf: Cezayir'de Merkezi Kubbeli Camiler - Osmanlı Dönemi -Thèse de Magister, Université d'Istanbul, Faculté des Lettres, Département d'Histoire de l'Art, Istanbul, pp: 14 - 16.

وقد بالغ الفنانون الأتراك في زخرفة المحراب واجهات الأبواب، حتى يخال أن له علاقة وطيدة بفن الباروك. ويبدو أن ذلك الإسراف في الزخرفة كان ناتجا حسب تروث عكاشة عن فكر صوفي⁽¹⁾.

7- الطراز الهندي

كان للطراز الفارسي أثر كبير على هذه المدرسة إلى درجة أن بعض مؤرخي الفن ضمّوها إلى الطراز الفارسي. ولكن العمارة التي أقيمت في الهند فيما بين القرن السادس عشر والثامن عشر الميلاديين احتفظت بخصائص معمارية متميزة. وبعد عصر أكبر (973-1014هـ/1556-1605م)، وجهانجير (1014-1038هـ/1605-1628م)، وشاه جهان (1038-1070هـ/1628-1659م) من أزهى العصور في مجال البناء، ومن أروع ما أنجزه المعماري المغولي من العماائر الدينية مسجد جاما بدلهي وأيضا ضريح تاج محل (1042-1065هـ/1632-1654م)⁽²⁾.



الصورة 11: الهند، مسجد جاما بدلهي

ولقد ورثت هذه المدرسة عن الطراز الفارسي العقود والمآذن الأسطوانية والقباب البصلية الشكل، وتتميز المدرسة الهندية عن غيرها بالقباب الصغيرة في واجهات المباني.

(1) - تروث عكاشة: المرجع السابق، ص: 109.

(2) - Henri Stierlin: Op.cit, pp: 235 - 270.

8- أنواع المنشآت الدينية:

ونظرا لخصوصية الموضوع الذي يدور حول محور العمارة الدينية، فيجدر بنا أن نتحدث ولو بإيجاز عن أنواع العمارات التي تدخل في هذا الإطار.

8-1- المساجد: فبالنسبة للمساجد فقد طُبِّق عليها نظام معماري موحد في توزيع الفضاءات الداخلية عبر كل المراحل التاريخية وفي كل بقاع العالم الإسلامي، فكان لمعظمها جزء أوسط يسمى "الصحن" قد يكون مكشوفاً أو مغطى، وتحيط به أربعة أقسام يطلق عليها تسمية الأروقة، ويُعد رواق القبلة الذي يشتمل في وسط جداره القبلي على محراب من أوسع الأروقة. ولقد حدث نوع من التطور في تصميم هذه المساجد، عندما ظهرت إلى الوجود المباني ذات التصميم المتعامد.

8-2- المدارس: عندما زاد عدد الوافدين لطلب العلم احتاج المدرسون إلى تخصيص بناء مستقل عن المسجد لأداء مهمة التدريس، فبرزت مباني أطلق عليها اسم "المدارس النظامية"، حيث شيدت المدارس بتصميم مغاير عن المساجد، فأصبحت تشتمل في أغلب الأحيان على صحن مكشوف أو مغطى تحيط به أربعة إيوانات في شكل متعامد. وتشتمل الأركان الواقعة بين ضلعي الشكل الصليبي على مدخل ومنها من يصل إلى الطابق العلوي الذي يحتوي على غرف وملحقات خاصة بالأساتذة والطلبة.

8-3- الأضرحة: ومن العمارات الدينية أيضاً نجد الضريح الذي كان يقام على رفات ولي أو عالم أو سلطان أو أمير، ويُطلق عليه أحيانا اسم القبة أو التربة، وأغلب هذه الأضرحة اتخذت شكل المربع في تصميمها وتعلوها قبة، ولكن هذا التصميم اختلف حسب اختلاف التقاليد المعمارية للأقاليم الإسلامية، وقد أعطى هذا تنوعاً وطرزا معمارية، ومن تلك الأضرحة ذات تصميم على شكل برج أسطواني تعلوها سقف مخروطي، وكثيرا ما ألحقت الأضرحة بالمساجد⁽¹⁾.

8-4- الخوانق: ومن العمارات الدينية التي عرفها المسلمون كذلك نذكر الخوانق وهي عبارة عن دور بُنيت في بعض المناطق الإسلامية بهدف إيواء الصوفية الذين يخلطون بأنفسهم لعبادة الله. وقد خُصص في العهد العثماني نوع مميز من العمارات لإيواء الدراويش كانت تحمل اسم التكايا⁽²⁾.

(1) - أبو صالح الأتقي: الفن الإسلامي، أصوله، فلسفته، مدارس، ط: 2، دار المعارف بمصر، القاهرة 1967، ص: 123.
(2) - مرجع نفسه، ص: 123.

8-5- الأسبلة: كما يمكن ضمّ الأسبلة إلى صنف العمارات الدينية، نظرا لارتباطها الوثيق بالمساجد والمدارس وتعليق أوقاف عليها، وغالبا ما تكون هذه الأسبلة ملتصقة بالعمائر الدينية، وقد تكون مستقلة عنها. كما أنّ الظروف الطبيعية القاسية للبيئة الطبيعية للأقاليم الإسلامية جعلت المعماري المسلم يعطي اهتماما بالغا وعناية كبرى لهذا النوع من المباني⁽¹⁾.

8-6- الأربطة: وتعدّ الأربطة أيضا من المعالم الدينية التي أقيمت في البداية لتؤدي دورا عسكريا، فجاء تصميمها مناسبا لتلك الوظيفة. وقد انتشرت هذه المباني في بعض الجهات وبالأخص في بلاد المغرب، وغالبا ما تكون ذات تخطيط مستطيل الشكل محاطة بسور مزود بأبراج، وتشتمل في الداخل على غرف ومسجد، وقد تغيّرت وظيفة الأربطة لتتحول إلى أماكن تستقطب الصوفية من العباد والزهاد⁽²⁾.

III - النسيج العمراني لمدن مزاب:

شيدت مدن مزاب على نمط معماري موحد، وهذا ما يبرهن على أنّ بناءها لم يكن عشوائيا، بل كان مدروسا ومخططا له، ويظهر هذا التخطيط المنظم بشكل واضح في عملية اختيار قمم الهضاب كأماكن استراتيجية لتأسيس كلّ المدن سواء المتناثرة على ضفاف وادي مزاب أو التي تبعد عنه بعشرات الكيلومترات، ولقد راع المزابيون في ذلك عدّة عوامل منها:

- العامل الدفاعي: إنّ من عادات البربر منذ القديم تشييد مدنهم في أماكن حصينة ومنيعّة، وعلى هذا الأساس تمّ اختيار قمم الهضاب، فالموقع يسهل من جهة عملية الدفاع عن النفس في حالة تعرّضهم لهجمات الأعداء، ومن جهة أخرى يجعل المدينة بعيدة ومحمية من خطر الفيضانات المحتملة للأودية⁽³⁾.

- العامل الاقتصادي: إنّ من الصعوبة بمكان العثور على أراضي خصبة صالحة للزراعة في تلك البقاع من الصحراء الجرداء القاحلة. وحفاظا على تلك الأراضي القليلة الواقعة على ضفاف الوادي، منعت القوانين العرفية المزابية إقامة مباني فوق هذه الأراضي، وانطلاقا من

(1) - تروث عكاشة: المرجع السابق، ص: 52.

(2) - حسن باشا: مدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة 1979، ص: 169.

(3) - محمد التريكي وخالد البوزيدي: المعمار والممارسة الاجتماعية، مزاب بين الماضي والحاضر، رسالة دكتوراه الدرجة الثالثة المعهد التكنولوجي للفنون والهندسة المعمارية، تونس 1989، ص 41.

هذا اختاروا لمواقع منهم تلالا صخرية فاحلة⁽¹⁾.

1- هيكل المدينة المزابية :

تتشكل المدن المزابية من مجموعة من المنشآت والمباني المتنوعة التي تتدرج على منحدر الهضبة، وعلى الرغم من تميز وظائفها إلا أنها تشكل فيما بينها كتلة واحدة. وقد اعتمد المزابيون في عملية البناء على نظام معماري يقوم على التدرج في تقسيم المجالات حسب أصنافها، وعلى حسب الهيكل الاجتماعية المنشئة بطبيعة الحال بالفكر الإباضي الذي يعتمد أساسا على مبادئ وقيم الدين الإسلامي الحنيف بداية من الخلية الواحدة داخل المجتمع (الأسرة) وصولا إلى القبيلة، كما أنهم اعتمدوا أيضا في نظام بناء المدينة على مبادئ أخرى يمكن أن نلخصها فيما يلي:

- مبدأ داخلي وخارجي: إن مفهوم الداخل والخارج عند المجتمع المزابي هو مفهوم ثقافي عقائدي لا شخصي أو ذاتي، فأما الفضاء الداخلي فهو المجتمع بأسره، وأما الفضاء الخارجي فيتمثل فيما هو خارج عنه⁽²⁾.

- مبدأ السام والخاص: تحتوي المدينة المزابية على مجالات خاصة وعامة بالنسبة لأفراد وجماعات هذا المجتمع، فالطرق مثلا تنقسم إلى خاصة وعامة⁽³⁾.

- مبدأ ديني ودنيوي: انطلاقا من أن كل ما هو ديني له سمة العلو والرفعة، فالمسجد صار يحتل قمة الهضبة، وتلك المنذنة ذات الشكل الهرمي الناقص التي ترتفع بشموخ بجانبه تميزه عن غيره من المباني الأخرى. وكل ما هو دنيوي يأخذ مكانه في أسفل المدينة، فالسوق التي تجرى فيه المعاملات التجارية يُبعد عن الأمكنة الدينية بقدر الإمكان، وهذا لا يعني أبدا القطيعة بينهما⁽⁴⁾.

وتخضع الهيكل العامة للمدينة المزابية للقواعد العامة المنبثقة في تخطيط المدينة الإسلامية، ولكن نظرا لظروف اجتماعية واقتصادية وبيئية فرضها العرف وطبيعة البيئة ومناخها، فإنها تميزت عن غيرها من المدن الإسلامية الأخرى، وأصبحت تحمل نمطا معماريا متميزا.

(1) - محمد التريكي وخالد البرزوي: المرجع السابق، ص: 41.

(2) - مرجع نفسه، ص: 46.

(3) - مرجع نفسه، ص: 48.

(4) - مرجع نفسه، ص: 48 - 49.

2- التركيب العمراني للمدينة المزابية:

يبدأ الفريق المؤسس للمدينة (حلقة المزابية) ببناء المسجد بعد اختيار موقع مناسب فوق أعلى قمة الهضبة، ثم يقومون بعد ذلك برسم حدود المدينة بأسوار وأبراج، وأخيرا يقوم السكان بتشديد مساكنهم انطلاقا من حوالي محيط المسجد إلى غاية الأسوار، وبالطبع فإن بناء المساكن يتم على قواعد عرقية عمرانية بحيث تستند على أسس أربعة يأتي في مقدمتها تعاليم الدين الإسلامي ثم النشاطات الاجتماعية، وعنصر الاقتصاد ومعطيات المحيط البيئي.

وتشتمل كل المدن على أسوار (إنما سور بأنتم معنى الكلمة أو مجموعة من المساكن التي تشكل السور أحيانا بجدرانها الخارجية)، وأبراج تحميها من الخطر الخارجي، وقد فتحت في هذه الأسوار أبواب رئيسية وثانوية تؤدي كلها إلى الطرق الرئيسية.

وتتمثل الطرق شرايين الحياة بالنسبة للمدينة، وقنوات الاتصال فيها. وتنقسم إلى طرق رئيسية وطرق فرعية، كما أنها تنقسم إلى طرق عامة وطرق خاصة، وطرق نافذة وغير نافذة تختلف باختلاف وظائفها والمنافع المرتبطة بها. وتكون هذه الطرق في أغلب الأحيان متعرجة وذات انحدار شديد تماشيا مع عوامل جغرافية ومناخية.

ويحتل السوق عموما مكانا قريبا من السور، ويكون تصميمه على أشكال مختلفة طبقا للمساحة المتاحة. وبالإضافة إلى الدور التجاري، فالسوق تؤدي دورا مهما في المجال الاجتماعي باعتباره أوسع مكان عمومي، وفضاء ملائم لملاقاء السكان من الرجال لكونه يعد مجال رجالي.

أما المقابر فإنها تحتل مساحات شاسعة في المحيط الخارجي للمدينة المزابية، وكل مقبرة تخص عرش أو عشيرة معينة دون سواها، وتعد هذه المقابر نظرا لتوسعتها الكبير بمثابة مدينة للأموات⁽¹⁾.

وقد شُيّد على العموم في كل مدن مزاب (باستثناء مدينة العطف) مسجد واحد يحتل قمة الهضبة، ويشرف على كل المباني الأخرى بفضل منذنته الهرمية الشكل، ويعد أيضا مقر السلطة الدينية (حلقة المزابية). ويجاور المسجد في أغلب الأحيان المدرسة التي تعد من أهم ملحقاته، وذلك بفضل ما تؤديه هذه المنشأة من دور تربوي وتعليمي داخل المجتمع المزابي.

(1) - C et P Donnadieu / H et J.M Didillon: Habiter le désert, Les Maisons Mozabites, 36 Ed, Ed Pierre Mardaga, Bruxelles, pp: 46 - 48.

الفصل الثاني

تاريخ وحضارة بني مزاب

الفصل الثاني

تاريخ وحضارة بني مزاب

I - تاريخ منطقة وادي مزاب:

قبل أن نبدأ في سرد أحداث تاريخ منطقة وادي مزاب ونزوج الإباضيين نحوها واستقرارهم بها، لا بدّ من أن نتعرّف أولاً على الموقع الجغرافي وطبيعة مناخ المنطقة، لكي يتسنى لنا إدراك تلك الصعوبات التي لم تثبّط من عزيمة سكّان بني مزاب في سبيل النهوض بالمنطقة وإنشاء حضارة عربية في أرض جرداء قاحلة..

1 - الإطار الجغرافي:

ينتمي وادي مزاب إلى الحوض الشرقي للصحراء الجزائرية الذي يحده شمالاً جبال الأطلس الصحراوي، ومن الغرب والجنوب الغربي قورارة وتوات، ومن الجنوب الأهمّار والطاسيلي، ومن الشرق الحمادة الحمراء ومنطقة غدامس⁽¹⁾.

1-1 - الموقع:

تقع التجويفة البيضاء لواء وادي مزاب في الشمال الغربي لهذا الحوض بين خطي عرض 32° و $20' 33''$ شمالاً، وبين خطي طول $4^{\circ} 0'$ و $2^{\circ} 50'$ شرقاً⁽²⁾. وتبلغ مساحة الوادي 8000 كلم²، ويتراوح علوها عن سطح البحر ما بين 300م و 800م⁽³⁾. ويبعد مركز منطقة وادي مزاب - غرداية - عن الجزائر العاصمة بحوالي 600 كلم.

وعلى بعد 110 كلم جنوب الأغواط وبالضبط ابتداء من تلغمت تظهر القواعد الأولى لسلسلة من الهضاب الصخرية المتقطعة في أماكن عديدة، وهذا ما سمح ببروز واحات غير منتظمة خلالها.

(1) - Marth et Edmond Gouvion: Kharidjisme; Monographie du M'zab, Imprimerie Vigie Marocaine, Casablanca, Paris, 1926, p: 175.

(2) - Ibid, p: 177.

(3) - A. Coyne: Le M'zab, Ed: Adolphe Jourdan, Alger 1879, p: 3

1-2- التركيب الجيولوجية:



الشكل 1: الخريطة الجيولوجية لوادي مزاب. عن/ ديوان وادي مزاب

ويبدو مركز شبكة وادي مزاب على شكل فوهة بركانية عظيمة ذات هياكل داخلية مائلة تشكل في بعض الأماكن انحدر شديداً. وتكون بداخلها تجويفات تنطلق من الجهة الشمالية الغربية وتتجه نحو الجهة الجنوبية الشرقية، ويسيل خلالها وادي مزاب ومسح مهران من الصخور⁽¹⁾. ويبلغ طول هذا

الوادي حوالي 18 كلم وعرضه 2 كلم، وتنتدج المدن المزابية الخمس فوق هضاب صخرية صغيرة.

تستقبل أربع واحات مياه هذه الهضبة وهي: واحة وادي متليلي، واحة وادي مزاب، واحة وادي النعنا، واحة وادي زغوير⁽²⁾.



الصورة 12: صورة جوية لوادي مزاب مأخوذة من Google Aert

(1) - Marth et Edmond Gouvion: Op. cit, p: 178.

(2) - A. Coyne: Op.cit, p: 4-

تتتمي الترسبات الجيولوجية بالوادي إلى العصر الرابع من الزمن الكريستالي الأوسط، وتتشكل الهضبة الصخرية من مجموعة كبيرة من الأخاديد والأودية الجافة التي تتقاطع فيما بينها مكونة ما يشبه الشبكة، ومن هنا أعطت للمنطقة اسم "شبكة وادي مزاب"⁽¹⁾. وتتكون هذه الهضبة من طبقات كلسية أفقية ذات اللون الرمادي المائل إلى اللون الأسود، بينما تميل الطبقات الكلسية العلوية منها إلى اللون الأسمر الضارب إلى البني أو اللون الأسمر الضارب إلى الصفرة، وتختلط هذه الطبقات الكلسية في الأخاديد بالجبس، وتستغل هذه الصخور الجبسية الكلسية كمادة في البناء⁽²⁾.

يتقاطع وادي مزاب مع عدد من الأودية المحلية، فبمجرد دخوله المنطقة من الجهة الشمالية الغربية يلتقي بوادي توزوز في بداية واحة غرداية، ثم يواصل طريقه ليلتقي بوادي أنثيما، حيث تمتد واحة بني يزقن، ثم يتقاطع مع وادي أزويل في بنورة ليستمر على شكل واد ضيق ثم يتسع بعد ذلك عند التقائه بوادي نمبرات ووادي نيمل، ليصل إلى زلفانة إلى أن ينتهي في سبخة على بعد 16 كلم من نقوسة شمالي ورقلة⁽³⁾.

1-3- المناخ:

تتمتاز منطقة وادي مزاب عموماً كباقي المناطق الصحراوية الأخرى بمناخ جاف. لذا فإن الأمطار تكون شحيحة جداً وفي فترات غير منتظمة، وتصل كمية التساقط السنوية إلى حوالي 30,7 مم. كما يمتاز مناخ المنطقة بتباعد الحدين الحراريين في اليوم الواحد، وبين الصيف والشتاء. إذ تبلغ درجة الحرارة صيفاً 48° وتنزل إلى درجة 0° شتاءً.

تهب على المنطقة رياح شمالية وشمالية غربية تكون باردة في فصل الشتاء وتسمح بتساقط كمية من الأمطار، وقد تكون غربية. وأما في فصل الصيف فتهب في غالب الأحيان رياح جنوبية تكون جافة وحارة وهي المسؤولة عن الحرارة الشديدة التي تجتاح المنطقة في هذا الفصل⁽⁴⁾.

(1) - Charles Kleincknecht: Monographie de L'Arrondissement de Ghardaia, Ministère du Sahara Département des Oasis, Paris 1962, p: 2

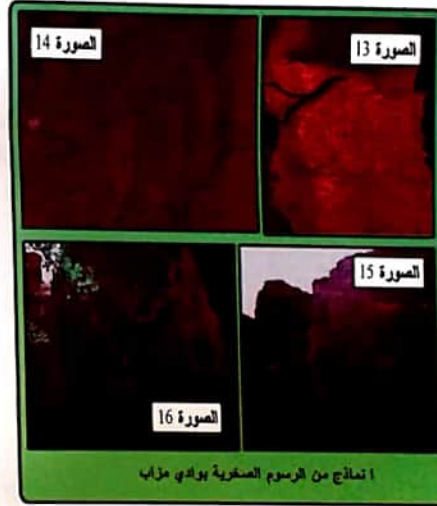
(2) - Ville: Exploration Géologique du Beni - M'zab du Sahara et de la région des steppes de la province d'Alger, Paris, 1872, p: 58.

(3) - Marth et Edmond Gouvion: Op.cit, p: 179.

(4) - Marcel Mercier: La Civilisation Urbaine au M'zab, Ghardaia la Mystérieuse, Ed: P.A D, Alger 1932, p: 38.

2- مزاب قبل النزوح الإيباضي:

لقد استبعد الباحثان مارسيل مرسى (1) Marcel Mercier ومارت غوفيون (2) Marth Gouvion فكرة وجود استيطان إنساني في منطقة وادي مزاب في عصور ما قبل التاريخ، وقد علّل ذلك لعدم عثورهما على دليل مادي يؤكد وجود نشاط إنساني في المنطقة، ولكن فيما بعد توصل الباحثان بيار روفو (3) Pierre Roffo وجويل أبونو (4) Joël Abonneau عند قيامهما بدراسات وأبحاث تخصّ فترة ما قبل التاريخ في منطقة وادي مزاب إلى نتائج جدّ هامة تدلّ دلالة قطعية



على أنّ استيطان الإنسان في المنطقة يعود إلى عصور ما قبل التاريخ، وذلك من خلال عثورهما على عدد كبير من الأدوات الحجرية، ورسمات صخرية في محطّات عديدة تعود إلى ما قبل التاريخ (الصور 13، 14، 15، 16). وتحمل هذه الصخور المتناثرة حول ضفاف الأودية والوهاد أنواعا عديدة من الرسومات الحيوانية والهندسية إلى جانب رسوم لبعض أعضاء الجسم البشري مثل اليد والرجل.

(1) - Marcel Mercier: La Civilisation Op.cit, p: 40

(2) - Marth et Edmond Gouvion: Op. cit, p: 217

(3) - بنظر: Pierre Roffo: Contribution à l'Etude de la préhistoire du Sahara septentrional, Ancienne Imprimerie, Alger 1934.

(4) - بنظر: Joël Abonneau: Préhistoire du M'zab, thèse de 3ème cycle en Archéologie, Paris I, Sorbonne, 1983.

وما يؤكد استقرار الإنسان في هذه المنطقة خلال عصور ما قبل التاريخ ما يرويه إبراهيم ميثاز في مخطوطه حول تاريخ وادي مزاب نقلا عن بعض شيوخ المنطقة أنّ أجدادهم عثروا على ستّ مغارات واسعة في سفوح الجبال فنفنوها خوفا من لجوء العدو إليها والاحتماء بها (1)، ويبدو أنّ هذه المغارات كانت مأوى لمجموعة من السكان كانوا يقطنون بالمنطقة.

وأما في العهد الروماني فإنّ مزاب لم تكن سوى منطقة عبور لقوافل القبائل الزناتية، لأنّ الرومان لم يصلوا بتاتا إلى هذه الربوع، فلم يتجاوزوا خطّ وادي جدي في الصحراء الجزائرية (2).

إنّ البقايا من آثار وأطلال القصور القديمة المتناثرة في منطقة وادي مزاب تدلّ دلالة قاطعة على أنّ المنطقة كانت عامرة بالسكان قبل مجيء الإيباضيين إليها. فمن هم هؤلاء السكان الذين استقروا في المنطقة قبل القرن الخامس الهجري؟

يتحدّث عبد الرحمن بن خلدون عن هؤلاء السكان في قوله "من بني واسين هؤلاء بقصور مصاب على خمس مراحل من جبل تيطر في القبلة لما دون الرمال على ثلاثة مراحل من قصور بين ريفّة، وهذا الاسم للقوم الذين اختطّوها ونزلوها من شعوب بادين، وضعوها في أرض حرّة على إحكام وخراب ممتعة في مسارحها بين الأرض المحجرة المعروفة بالحماة في سمت العرق، متوسّطة فيه، قبالة تلك البلاد على فراسخ في ناحية القبلة، وسكانها لهذا العهد شعوب زناتة، وإن كانت شهرتها مصاب" (3).

إنّ فاعتمادا على ابن خلدون الذي تحدّث بشكل دقيق وواضح عن موقع قصور بني مزاب، فإنّ المنطقة كانت منذ القديم مستقرا لجماعات بربرية يلقّبون ببني مصاب، فما علاقة مصاب بمزاب التي اشتهرت بها المنطقة؟ وما أصل هذه التسمية؟

لقد اختلف المؤرّخون في آرائهم حول أصل تسمية مزاب، فابن خلدون يذكر أنّ مصابا فرع من قبيلة زناتة البربرية، وهم مصاب بن بادين بن تاجا، وبني بادين من ولد زرجيك الذي ينسب إليه بنو عبد الواد وبني توجين وبني زردال، وكلّهم ينتمون إلى بادين ويعدّ بنو راشد من إخوانهم، لأنّ راشدا أخو بادين (4). والمقصود من لفظ بني مصاب هنا هو بني مزاب. ونسأله كيف تمّ تحريف التسمية؟ فبناء على قواعد اللهجة المزابية التي يتمّ فيها استبدال حرف الصاد

(1) - إبراهيم ميثاز: تاريخ وادي مزاب، مخ: ص: 4.

(2) - Marth et Edmond Gouvion: Op.cit, p:217.

(3) - عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مخ: 7، دار العلم للجمع، بيروت، ص: 59.

(4) - مصدر نفسه، ص: 58.

زايًا مفخمة في الكلمات وخاصة العربية منها، مثل الصوم الذي يصبح (أزومي)، والصلاة التي تصبح (تزاليت)، ومن هنا تصبح كلمة مصاب مزاباً..

ولما أحمد أطفيش فيرى أن كلمة مزاب مشتقة من مضاب بضاد معجمة وعلل سبب تحريفها إلى أن حرف الضاد يقرب مخرجه وصوته من مخرج حرف الزاي⁽¹⁾.

وهناك من المؤرخين الإباضيين من اختار استعمال تسمية بني مصعب التي تعد في نظر هؤلاء أصل تسمية بني مزاب، باعتبارها أقدم تسمية وردت في المصادر التاريخية الإباضية، إذ يتحدث أبو زكرياء في كتابه سير الأئمة وأخبارهم عن بادية بني مصعب عندما يشير إلى منطقة وادي مزاب⁽²⁾، وقد علل هؤلاء المؤرخين تحريفها بأن البربر لا يستطيعون النطق بالعين التي يستبدونها بهمزة أو يستبدونها بالفاء، ويدعم أنصار هذه النظرية رأيهم بما ورد من أسماء في بعض المخطوطات الإباضية القديمة مثل: أمي سعيد وأمي عيسى عوضاً عن عتي سعيد وعتي عيسى⁽³⁾. وإذا افترضنا صحة هذا الرأي، فلماذا لم يستبدل حرف العين في كلمة سعيد وعيسى؟ ويبدو لنا أن هذه التسمية وعلى الرغم من اعتبارها أقدم تسمية وردت في المصادر التاريخية، إلا أنها لا تبدو أن تكون سوى تحريفاً لكلمة أمازيغية تم تعريبها كباقي أسماء المدن المزابية..

كما أن هناك من الكتاب من يستعمل لفظ بني مزاب، ويقصد به أصحاب الميزاب، وترجع أصل هذه التسمية حسب الرواية التي ساقها أحمد أطفيش إلى قصة كان بطلها أحد المشايخ الإباضيين الأوائل، ويتعلق الأمر بابي بلال مرداس⁽⁴⁾، فتروي القصة أن أبا بلال مرداس عندما دخل ذات ليلة الحرم في مكة، وجلس تحت ميزاب الكعبة يدعو الله أن يظهر له صحة دينه، فإذا بقطرات من الماء تنزل عليه من الميزاب. فعذ ذلك استجابة لدعائه، ومن ثم أصبح الإباضيون يفتنون أثناء الطواف على الكعبة اتجاه ميزابها للدعاء⁽⁵⁾ ومن ثم لقبوا بأصحاب الميزاب.

نعتقد أن هذا التفسير الأخير بعيد عن الحقيقة، لكونه يجعلنا نطرح سؤالاً جوهرياً. إذا كان

أصحاب الميزاب يقصد بهم الإباضية انطلاقاً من القصة لأن أبا مرداس إباضي المذهب. فلماذا لم تطلق هذه التسمية على الإباضية كلهم، سواء في جربة أو في جبل نفوسة أو في عُمان وزنجبار؟ بل اقتصر فقط على بني مزاب دون سواهم؟.

ويبدو من خلال الآراء التي ذكرناها أنفاً حول التسمية الأصلية، أن أرجح تسمية مقبولة ومعقولة لمكان هذه المنطقة هي بنو مزاب التي حُرقت من بني مُصاب. لذا فإننا سنستعمل لفظ مزاب في كامل دراستنا وسنستغني عن باقي التسميات الأخرى.

إن بني مزاب وإخوتهم من بني بادين: بنو عبد الواد وبنو توجين وبنو زردال وهم من الطبقة الثانية من قبيلة زناتة البربرية، لما فشلت ثوراتهم ضد قبيلة كتامة ثم صنهاجة التي طبق ملوكها (السلطين الزيريين والحماديين) توصيات المعز لدين الله الفاطمي في النصف الأخير من القرن الرابع الهجري، نزحوا إلى شمال الصحراء، فانتشروا في ما بين الزاب وملوية حتى الجنوب واستقروا بها وعمروها⁽⁶⁾.

لقد شيد بنو مزاب الذين كانوا على مذهب المعتزلة الواسلية⁽⁷⁾ قصوراً صغيرة قبل نزوح الإباضية إلى المنطقة، اندثرت كلها ولم يبق منها سوى بعض الأطلال والخرائب، وقد عدها الدكتور جون هيغي⁽⁸⁾ بنحو خمسة وعشرين قصراً، وذلك اعتماداً على مصادر إباضية لم تتمكن من الاتصال بها. ومن أهم هذه القصور نذكر:

2-1- قصر بوقيان:

يقع في قمة جبل يشرف على الواحة، على بعد 100م تقريباً من مد بني يزقن. وقد شيده بنو مغراوة في حوالي القرن الرابع الهجري، وكانوا على مذهب المعتزلة. ثم هاجره سكانه، وانضموا إلى مدينة بني يزقن، فاندثر القصر ولم يبق منه سوى بعض الأكوام من الحجارة⁽⁹⁾.

(1) - إبراهيم متياز: المصدر السابق، ص 7.

(2) - الواسلية: هم أصحاب أبي حنيفة وأصل بن عطاء الغزال الألف كان تلميذ للصن البصري. وبالمغرب منهم شرقية في بلد إدريس بن عبد الصلي الذي خرج في أيام أبي جعفر المنصور ويُقال لهم الواسلية، واعتزلهم بنو حواري قواع: القول بنفي صفات الداعي تعالى من العلم والقدرة والقول بالقدرة، والمنزلة بين المنزلتين قوله في التزيين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين. ينظر: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر الشهرستاني: المل والنحل، تج: أمير علي مهنا، علي حسن فاعود، ط 6، ج 1، دار المعرفة، بيروت 1997، ص 59-63.

(3) - J. Huguet: "Le Pays du M'zab" in Bull de la Société de Géographie d'Algérie, Imprimerie Typographique et Lithographique Sélion, Alger 1898, p: 153.

(4) - إبراهيم متياز: المصدر السابق، ص 16.

(1) - أحمد أطفيش: الرسالة الشافية، مخ مكتبة الحاج صالح لطفي بتي يزقن، ص: 20.

(2) - أبو زكرياء يحي بن أبي بكر: المصدر السابق، ص 255.

(3) - يوسف الحاج سعيد: تاريخ بني مزاب دراسة اجتماعية واقتصادية وسوسلوية، المطبعة العربية، غرداية 1992، ص: 13.

(4) - مرداس بن أدية التميمي المكنى بابي بلال تلمي من أئمة المذهب الإباضي الأوائل، لازم جابر ابن زيد وأخذ عنه العلم، كان من ضمن أهل النهروان، شجن من قبل عبيد الله بن زيد ثم أطلق سراحه، ولما كثرت عليه المطالم أعلن خروجه ضد الأمويين الذين تمكنوا من القضاء عليه سنة 61هـ / 680م. ينظر جملة التراث: معجم أعلام الإباضية... ج: 4، المطبعة العربية، غرداية 1999، ص: 860-861.

(5) - أحمد أطفيش: المصدر السابق، ص: 84-85.

2-2 قصر أَقْوَنَاتِي:

مُتَبَدِّدٌ عَلَى ضَفَةِ وَادِي أَنْتِيمَا عَلَى مَقَرِّبَةٍ مِنْ مَدَنِي يَزْقَنَ الْحَالِي، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مِنْ أَشْرَ وَلَعَلَّ أَثَارَهُ قَدْ غَرِبَتْهَا أَوْحَالُ الْوَادِي دَاخِلَ السَّنَةِ⁽¹⁾.

2-3 قصر ثَلَاث:

يُعَدُّ مِنَ الْقُصُورِ الْقَدِيمَةِ فِي وَادِي مَزَاب، وَيَقَعُ فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ وَاحَةِ بَنِي يَزْقَنَ، وَلَا تَرَالُ بَعْضُ أَثَارِهِ بَاقِيَةً إِلَى حَدِّ الْيَوْمِ. وَيُشِيرُ إِبْرَاهِيمُ مَتِيَّازُ إِلَى أَنَّ هَذَا الْقَصْرَ أَسَّسَهُ الْإِخْوَانُ عَدُونُ وَبَكْلِي⁽²⁾.

2-4 قصر تَرْشِين:

كَانَ يَسْكُنُهُ الْمَعْتَزِلَةُ ثُمَّ لَجَأَ إِلَيْهِ الْإِبَاضِيَّةُ مِنْ نَفُوسَةٍ وَمِنَ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَاسْتَقَرُّوا فِيهِ لِفَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، ثُمَّ انْضَمُّوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَدِينَةِ بَنِي يَزْقَنَ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ الْهَجْرِيِّ، فَانْقَرَضَتْ الْمَدِينَةُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى أَثَارٍ لِمَصْلَى⁽³⁾.

2-5 قصر مُورَكِّي:

يَقَعُ فِي الْجِهَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ مَدِينَةِ بَنْوَرَةٍ عِنْدَ تَقَاطُعِ وَادِي أَنْتِيمَا بِوَادِي مَزَاب. وَقَدْ شُيِّدَ فَوْقَ هَضْبَةٍ تَشْرِفُ عَلَى وَادِي مَزَاب، وَتَنْثَرُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا أَكُومًا مِنَ الْحِجَارَةِ⁽⁴⁾.

2-6 قصر تَافَلَات:

أَسَّسَ فَوْقَ قِمَّةٍ الْهَضْبَةِ الَّتِي شَبَّكَتْ عَلَيْهَا مَدِينَةُ بَنِي يَزْقَنَ فِيمَا بَعْدَ، وَكَانَ يَقْطُنُهُ سَكَّانٌ مِنْ سَجْلَامَاةٍ، وَالَّذِينَ نَزَحُوا إِلَى مَزَابٍ -حَسَبَ إِبْرَاهِيمَ مَتِيَّازُ- فِي أَوَّلِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ الْهَجْرِيِّ، وَقَدْ انْضَمَّ إِلَى هَذَا الْقَصْرِ سَكَّانُ ثَلَاثَ وَبَكْيَاوُ وَأَقْنُونَايَ وَتَرْشِينُ وَبَعْضُ سَكَّانِ مُورَكِّي⁽⁵⁾، فَانْشَبَعَ عَصْرَانِهِ لِيَصْبِحَ نَوَاةً وَحِيًّا مِنْ أَحْيَاءِ مَدِينَةِ بَنِي يَزْقَنَ، وَمَا زَالَتْ أَثَارُ هَذَا الْقَصْرِ كَالْمَسْجِدِ وَالسُّوقِ شَامِخَةً إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

2-7 قصر الْأَخْنَش:

يَقَعُ عَلَى مَقَرِّبَةٍ مِنْ مَدِينَةِ بَنْوَرَةٍ فِي الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ. وَيُعَدُّ مِنْ بَيْنِ أَقْنَمِ قُصُورِ

الْمَنْطِقَةِ، وَكَانَ يَقْطُنُهُ جَمَاعَةٌ مِنْ زَنْاتِيَّةٍ وَمَغْرَاوَةٍ⁽¹⁾، وَقَدْ انْطَمَسَتْ كُلُّ مَعَالِمِهِ وَعَلَى حَسَبِ الْأَسْطُورَةِ الَّتِي نَقَلَهَا هِيغِي مِنْ مَصَادِرٍ قَدِيمَةٍ فَإِنَّ الْقَصْرَ كَانَ يَحْتَوِي عَلَى إِحْدَى وَعَشْرِينَ مَسْكِنًا وَمَسْجِدًا، وَقَدْ قُتِلَ كُلُّ سَكَّانِهِ إِثْرَ هُجُومِ مَجْمُوعَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْأَقَاغِي عَلَيْهِمْ⁽²⁾.

2-8 قصر تَعْيَزَرْت:

كَانَ يَقَعُ بَيْنَ مَلِكِيَّةٍ وَبَنْوَرَةٍ فِي وَاحَةِ تَيْغَزَرْتِ عِنْدَ مَلْتَقَى وَادِي مَزَابِ وَوَادِي أَرْوِيلَ، وَيَرْجِعُ إِلَى نَفْسِ فِتْرَةِ قَصْرِ تَالْزَيْدِيَّةِ، وَيُقَالُ أَنَّ الْعَلَّامَةَ بِاسْمِ عَبْدِ الْبَكْرِ هُوَ مُؤَسَّسُهُ⁽³⁾.

2-9 قصر أَغْرَمَ فَوْدَايَ (القصر المقلبي):

يَقَعُ أَسْفَلَ مَدِينَةِ مَلِكِيَّةٍ فِي الضَّفَةِ الْيُسْرَى لَوَادِي مَزَاب. وَقَدْ شُيِّدَ سَنَةَ 334هـ/ 945م مِنْ طَرَفِ أَجْدَادِ مَشْيَدِي مَلِكِيَّةٍ، وَانْتَشَرَ حَسَبَ هِيغِي بِسَبَبِ النِّزَاعَاتِ بَيْنَ الْمَعْتَزِلَةِ وَالْإِبَاضِيَّةِ⁽⁴⁾.

2-10 قصر تَالْزَيْدِيَّة:

وَمَعْنَاهُ قَصْرُ الصُّوفِ، وَيَبْدُو أَنَّ أَهْلَهُ كَانُوا يَشْتَهَرُونَ بِالصَّنَاعَاتِ الصُّوفِيَّةِ. وَيَقَعُ هَذَا الْقَصْرُ عَلَى بَعْدِ سِتَّةِ كِيلُومِتْرَاتٍ بَعْدَ السَّنَةِ الْحَالِيَةِ لِمَدِينَةِ الْعُطْفِ، وَيُعَدُّ مِنَ الْقُصُورِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي كَانَ يَقْطُنُهَا مَعْتَزِلَةُ بَنِي مَزَابِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ سِوَى بَقَايَا جُدُرَانِ لثَلَاثَةِ أَوْ أَرْبَعَةِ مَسَاكِنَ (الصُّورَةُ 17).



الصُّورَةُ 17: الْعُطْفُ بِقِيَا أَثَرِيَّةِ الْقَصْرِ لِقَصْرِ تَالْزَيْدِيَّةِ

(1) - إِبْرَاهِيمُ مَتِيَّازُ: الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ص: 13.

(2) - J. Huguet: Op.cit, p: 178.

(3) - يُوْسُفُ الْحَاجِّ سَعِيدٍ: الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص: 18.

(4) - J. Huguet: "Les Villes Mortes du M'zab" in Bull et Mémoires de la Société d'Ethnographie, 1909, p: 585.

(1) - إِبْرَاهِيمُ مَتِيَّازُ: الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ص: 17.

(2) - مَصْدَرُ نَفْسِهِ، ص: 17-18.

(3) - مَصْدَرُ نَفْسِهِ، ص: 18.

(4) - مَصْدَرُ نَفْسِهِ، ص: 14-15.

(5) - مَصْدَرُ نَفْسِهِ، ص: 5.

ويقدم هيفي⁽¹⁾ نقلا عن مصادر قديمة روايتين مختلفتين عن خراب هذا القصر، فيروي في الأولى أنه كلما عزم شخص على الزواج في القصر فلا يحق له الدخول على عروسه، إلا بعد أن يدخل عليها شيخ القصر. وفي أحد الأيام مرّ على القصر شخص سعيدي يقود جملا يحمل موبجا، بداخله عروس، فأمره الشيخ أن يقمّ له عروسه ليندخل عليها قبله، فأبى السعيدي ولم يتوان الشيخ في قتله. وكانت هذه الحادثة سببا في قيام حرب بين أهل تالزديت والسعديين وكانت النتيجة خراب القصر. وأما الرواية الثانية فتذكر أن أولاد ناصر هم الذين خربوا القصر⁽²⁾.

ويبدو لنا أن خراب معظم هذه القصور المزابية القديمة كان بسبب الانقسامات والانشقاقات الداخلية التي أنتت في معظم الأحيان إلى الصراع والتطاحن والاقتتال بين أهالي هذه القصور من جهة، وبينهم وبين النازحين الإباضيين من جهة أخرى.

3- التزواج الإباضي وتأسيس مدن مزاب:

يبدو أن معتزلة بني مزاب كانوا آخر بقايا المعتزلة في بلاد المغرب الأوسط في القرن الخامس الهجري، وقد تمكّنوا من الاحتفاظ بمذهبهم نظرا لقساوة الطبيعة وصعوبة العيش في المنطقة، بحيث أصبحوا في منأى عن أطماع الغزاة⁽³⁾.

تنقّ كل المصادر الإباضية⁽⁴⁾ على أن اعتناق المزابيين للمذهب الإباضي، وتخليهم عن المذهب للمعتزلي كان بفضل مجهودات للعلامة الإباضي أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطاني⁽⁵⁾.

(1) - ينظر: J. Huguet: Les Villes..., p:586.

(2) - Ibid, p:586.

(3) - يحضر إبراهيم: "المزابيون المعتزلة - قراءة جديدة لنصوص قديمة -" مجلة الحياة، العدد 1، الطبعة العربية، نشر جمعية التراث التراث، غرداية جلفي 1998، ص: 131.

(4) - أبو زكرياء: المصدر السابق، ص: 255.

(5) - أبو عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرسطاني التوماني بعد أحد أقطاب الإباضيين، والمصلحين الدينيين والاجتماعيين في بلاد المغرب، ولد بفوسطاء في جبل نفوسة سنة 345هـ/956م، وأخذ مبادئ التعليم في مسقط رأسه ثم ارتحل إلى الحقة وجربة طلبا للاستزادة في العلم على أكابر المشايخ الإباضية وغيرهم، منهم أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور وأبو نوح بن زغل، وانتقل بعد ذلك إلى مدينة القيروان للتعرف في علوم اللغة العربية، ولما اضطلع في العلم توجه إلى بلدته وشيّد فيها مسجدا لازال يحمل اسمه. كان أبو عبد الله كثير التجوال، إذ كان يتنقل من منطقة إلى أخرى، حتى أنه كان يتردد على منطقة وادي مزاب، ومن أهم ما قام به هذا العالم الإباضي تأسيس نظم اجتماعي يسمى نظم العزابة. وقد توفي سنة 440هـ/1048م.

ينظر أبو زكرياء: المصدر السابق، ص: 173-182.

وينظر أيضا أبو العباس أحمد الدرجيني: كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، فتح إبراهيم ملاي، ج: 2، مطبعة البحث، قسنطينة، ص: 377-391.

لقد كان من الضروري على الإباضيين البحث عن كيان جغرافي يوحدهم بعد شتاتهم في أرجاء المغرب الكبير، ويحميهم ويحمي مذهبهم وعقيدتهم من الضياع والفناء. فلما انعقد مؤتمر أريغ⁽¹⁾ حوالي سنة 420هـ/1029م للنظر في مسائل تخصّ الإباضيين اللاجئين الجدد، والبحث عن حلول لمواجهة مشكل اكتظاظ منطقة أريغ بالسكان، فاتفق الإباضية على انتداب أبي عبد الله محمد بن بكر للبحث عن منطقة جديدة تكون بعيدة عن أطماع الغزاة وتؤدي إليها جموع الإباضية من المهاجرين ومكان أريغ الذين كانوا يعانون من ملاحقة سلاطين الدول المتعاقبة على المغرب الأوسط لهم (الفاطميون والزيريون والحماديون... الخ) واضطهادهم إياهم⁽²⁾.

أخذ أبو عبد الله يتجول مع ابنه وغلّامه في جنوب الصحراء بحثا عن منطقة تكون بعيدة عن أطماع الملوك، فوقع اختياره على منطقة وادي مزاب على الرغم من قساوة طبيعتها وصعوبة العيش فيها، وينكر أبو زكرياء أن أبا عبد الله كان يقضي شتاءه في أريغ ويتوجه في فصل الربيع إلى بادية مزاب⁽³⁾. ومن هنا يبدو أنه كان يتنقل باستمرار إلى المنطقة قصد إقناع سكان المنطقة باعتناق المذهب الإباضي..

ويقهم من خلال ما ذكره أحمد أطفيش أن الاستجابة لم تكن بالأمر الهين بالنسبة للداعية أبي عبد الله، إذ إن معتزلة وادي مزاب قتلوا أحد أبنائه وهو إبراهيم عند تنقله إلى المنطقة. كما أن الاستجابة لم تكن جماعية، فقد ظلّ عدد كبير من بني مزاب على مذهب المعتزلة لفترة كبيرة من الزمن، حتى أنه حدثت مناوشات ونزاعات عديدة بين الطرفين، أنتت في بعض الأحيان إلى اندثار قصر بكامله، كاندثار قصر أعزّمة نوّاداني (القصر المغلي)⁽⁴⁾.

وبعد أن اعتنق بنو مزاب كلّهم أو بعض منهم المذهب الإباضي، بدأت تتوالى على المنطقة هجرات جماعية أو فردية من بقاع مختلفة من شمال إفريقيا ويمكن أن نرجع سبب هذه الهجرات المتتالية إلى سببين رئيسيين:

(1) - يقع وادي ريغ في منخفض مستطيل الشكل، يبتدئ من رأس الوادي بأعالي مدينة المغير وبالضبط بقرية عين الصفراء بادية أم الطيور ولاية الوادي الجزائرية عند شط ملغوغ شمالا، ويمتد في شكل مستطيل على نحو 160 كلم جنوبا إلى غاية قرية فوق التلعة لبداية بلدة عور التي يوجد بها ضريح الولي الصالح سيدي بوحنية. وتبعاً للوحدة التاريخية والعرقية لهذا الإقليم فإنه حظي بكتابات بعض المؤرخين العرب والعجم أمثال ياقوت الحموي الذي سماه (الزباب الصغير) في معجم البلدان وابن خلدون (بلاد ريغ أو أرض ريغ) وهو الذي حدد جنس سكّانه بقوله (ريغة وسجلّاس من بطون مغراوة وقد اختلطوا قري كثيرة في عورة واد ينحدر من الغرب إلى الشرق).

(2) - إبراهيم متياز: المصدر السابق، ص: 62.

(3) - أبو زكرياء يحي: المصدر السابق، ص: 255.

(4) - J. Huguet: Les Villes Mortes..., p: 588.

ولما اكتنفت المنطقة بالسكان لجأ المزابيون إلى إحداث مدينتين جديتين خلال القرن السابع عشر الميلادي، و تبعدان عن مركز وادي مزاب (غرداية) بمسافة تتراوح ما بين 45 و 120 كلم ويتعلق الأمر بمدينتي القوارة وبريان.

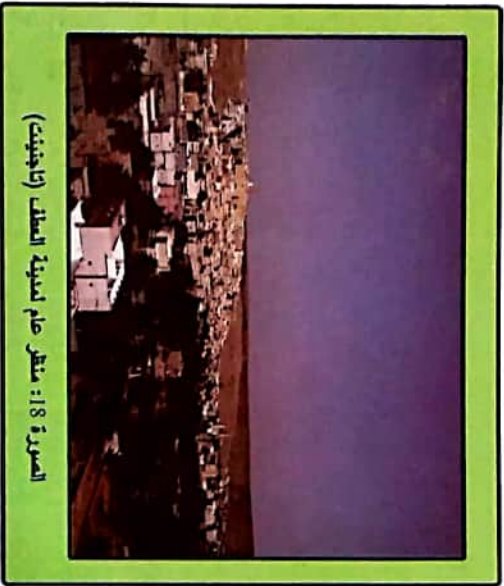
4-1- المظف (تاجينيت): (الصورة 18)

تقع مدينة المظف على بعد 9 كلم من مركز مزاب غرداية، على خط عرض $28^{\circ} 28' 32''$ شمالا، وخط طول $36^{\circ} 36' 1^{\circ}$ شرقا، في الضفة اليمنى من وادي مزاب في المظف الذي يكرّته الوادي، ومن هنا أخذت المدينة اسمها⁽¹⁾. ولكن في نظر أحمد لطيفين فإن المدينة كانت تسمى المظفاء ثم حُرّفت، لكون النسبة التي تتناول في المخطوطات هي عطاواري وهذه النسبة تكون من عطاء وليس من عطف⁽²⁾.

ويطلق على المدينة أيضا اسم "تاجينيت" باللهجة المحلية، وهذه التسمية تنطلق على نوع

من آنية الشراب، ويبدو أن أهلها كانوا يستقون بها غروسم، لقرب الماء عن وجه الأرض⁽³⁾. وتبعد المظف أول مدينة يؤتسها بنو مزاب مع الفلاحين الإياضيين إلى المنطقة، وقد شيدتها حسب الرواية الشيخ خليفة بن أبغور⁽⁴⁾ سنة 404هـ / 1014م⁽⁵⁾

فوق هضبة صخرية.



الصورة 18: منظر عام لمدينة المظف (تاجينيت)

(1) - Marth et Edmond Gouvion: Op.cit, p: 226 - 227.

(2) - أحمد لطيفين: المصدر السابق، ص: 25.

(3) - إبراهيم مقبل: المصدر السابق، ص: 10 - 11.

(4) - لا يُعرف عن الشيخ خليفة بن أبغور سوى أنه اشتهر في الرواية الشعبية كونه مؤسس مدينة المظف، فمتا لا شك فيه إذا أنه عاش خلال القرن الخامس الهجري.

(5) - هناك من المؤرخين من أشار إلى سنة 1011م كتاريخ تأسيس مدينة المظف.
 José Gers Op.cit, p: 110.
 ينظر

- نظرا لاستمرار الجفاف في بداية القرن الخامس الهجري في منطقة ورقالة وما جاورها، ونظرا لاستمرار الأجواء إلى مكان آخر، وخاصة أصحاب الماشية، فاستقر رأبهم على ومها قوز بعض السكان الأجواء إلى مكان آخر، وخاصة أصحاب الماشية، فاستقر رأبهم على

بالية مزاب⁽¹⁾.

- إن لقراءت دوة بني مدرا في سجلات سنة 366هـ / 976م، ووصول الهجرات الهلالية إلى شمال إفريقيا سنة 443هـ / 1050م، والتخريب الذي تعرضت له مدينة سدراتة سنة 467هـ / 1075م على يد المنصور ابن الناصر الحفصدي، ثم التخريب الثاني سنة 606هـ / 1229م على يد يحيى بن إسماعيل البورقي المرابطي المشهور بابن غانية، والتخريب الأخير لسدراتة سنة 672هـ / 1274م، كانت سببا أساسيا مباشرا⁽²⁾ لانتقال جموع الإياضية إلى وادي مزاب هربا بذهبهم وعقبتهم.

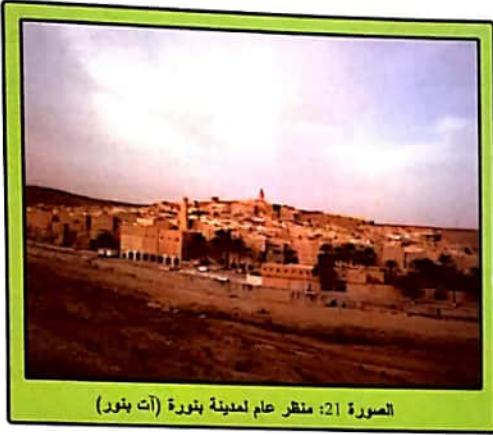
نقد كانت الهجرات إذا نحو مزاب جاعية أو فردية على مرّ القرون من أنحاء شتى، من سدراتة ووهران ولدي رنغ ونفوسة وجربة وجبل عتور وقصر البخاري والمحيرة وسجلاتة وقيق والساقية الحمراء ومن غيرها من المناطق المختلفة، وقد كان هؤلاء المهاجرين إما إياضية أو أنهم اعتنقوا المذهب الإباضي عند استقرارهم بالمنطقة، فأصبحت تسمية "بنو مزاب" تشمل حتى هؤلاء المهاجرين الجدد الذين ساهموا بقوة رفقة سكان المنطقة في تشييد مدن وادي مزاب السبع، وبفضل جهودهم ونضجاتهم وصبرهم على شظف العيش، وكثرت المستعمرات تكثرتا من إحياء لأرض موت في أرض قاحلة جرداء. فحفروا الآبار وبثوا السور وشقوا الترعات لينشروا واحات من التخيل في أرض جرداء قاحلة بجانب كل مدينة. كما سقوا تنظيمات اجتماعية حافظت على تماسك المجتمع المزابي وجعلت منه مجتمعا راقيا متحضرا، كونه لنفسه نمطا حضاريا متفيرا.

4- نشأة مدن وادي مزاب السبع:

لم تُشيد المدن المزابية الخمس الموجودة على ضفاف الوادي كما يُزعم بعض المؤرخين في ظرف زمني قصير فُتّر عند بعضهم بنحو نصف قرن فقط. إن من غير المقبول أن يتم بناء خمس مدن بهذا القدر من السرعة، نظرا لطبيعة مناخ المنطقة القاسي وأرضيتها الصلبة، ولكن من المرجح جدًا أن تشييدها تمّ في ظرف زمني لا يتجاوز ثلاثة قرون ونصف من الزمن.

(1) - طي بعض الإياضية في الجزائر، ج 2، المدينة المروية، غرداية 1987، ص: 436.
 (2) - يوسف الحاج سعيد: المروج السابق، ص: 26 - 27.

فيها، فرحب بها أهلها، ولكن ذلك لم يدم طويلا، وبضغط من أهل مليكة طُرد بنو مطهر اللاجئين إليها من قبل أولاد عبد الله بالقوة، وقتلوا منهم نفرا كثيرا، وفرّ الباقيون إلى مدينة العطف. لم تمر هذه الجريمة بسلام فقد اتفقت المدن المزابية باستثناء مليكة على معاقبة بني مطهر أشد العقاب، فقاموا بتخريب بنورة القديمة التي لم يبق منها حاليا إلا المسجد وبعض بقايا آثار جدران المساكن والصور (الصور 19 و 20).



الصورة 21: منظر عام لمدينة بنورة (آت بنور)

وتم تجديد المدينة فوق منحدر الهضبة (الصورة 21) من طرف أولاد عبد الله العائدين إليها⁽¹⁾ رفقة قبيلة أبي إسماعيل النازحين الجدد. ويذكر كلينكنخت Kleincknecht أن هذه الحادثة وقعت سنة 1164هـ / 1750م⁽²⁾.

أما أصل تسمية المدينة ببَنُورَة فيرجعها الشيخ أحمد أطفيش إلى امرأة تباع الورد تسمى نورة⁽³⁾. ولكن هذا التفسير مستبعد جدًا، ومن المرجح أنها سميت باسم قبيلة استقرت بها، وهي آت بنور البربرية، علما أن المدينة تسمى باللهجة المزابية آت بُنُور..

4-3- غرداية (تَغْرَدَايْتْ): (الصورة 22)

تقع مدينة غرداية على خط عرض 36° 28' 23" شمالا وخط طول 3° 33' 1" شرقا. تتدرج مباني المدينة فوق هضبة في الضفة اليسرى لوادي مزاب⁽⁴⁾، وتغطي مساحة قدرها 1.50 كلم².

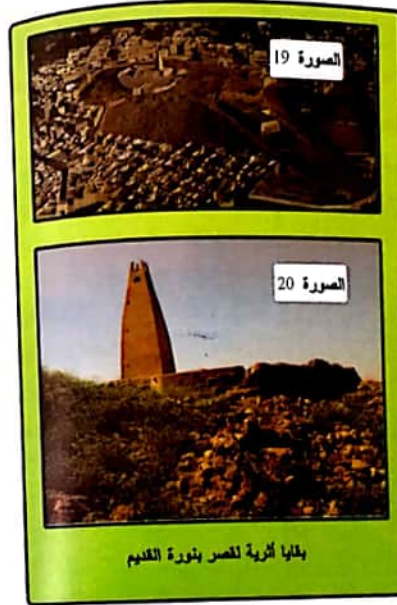
(1) - Lieutenant D'Armagnac: Le M'zab et le Pays Chaamba, Baconnier, Alger 1934, pp: 106 - 107
(2) - Charles Kleincknecht: Op.cit, p: 12.

(3) - أحمد أطفيش: المصدر السابق، ص: 23.

(4) - M. et Ed Gouvion: Op.cit, p: 221.

وتتكون المدينة من ثلاثة عروش رئيسية وهم أولاد خلفي وأولاد جنان وأولاد أحريز⁽¹⁾، وقد قسمت في فترة من الزمن إلى صغين متنازعين ومتصارعين، مما أدى إلى تقسيم المدينة إلى قسمين بواسطة جدار مازالت آثاره قائمة، وبناء مسجد ثان في المدينة⁽²⁾، لتصبح المدينة الوحيدة بين المدن المزابية الأخرى التي تضم مسجدين منذ القديم.

4 - 2- بنورة (آت بُنُور): (الصورة 19)
تأسست في الفترة الممتدة بين سنة 438 - 458هـ / 1046 - 1065م⁽³⁾ فوق رأس هضبة،



أبرية لأبرية بنورة القديم

وتقع المدينة على بعد 1800م شمال بني يزقن، وعلى خط عرض 32° 28' 32" شمالا، وخط طول 1° 35' 28" شرقا، عند تقاطع وادي أزويل بوادي مزاب الذي يواصل سيره إلى جانب منحدر يبلغ ارتفاعه ستة أمتار⁽⁴⁾، وعلى هذا المنحدر يرتفع سور المدينة، مما أعطى لها شكل قلعة من قلاع العصور الوسطى الحصينة.

شُيّدت بنورة من طرف قبيلة بني مطهر القادمة مع النازحين الإباضيين من وارجلان، وبعد فترة من الزمن طلبت قبيلة أولاد عبد الله التي تم طردها من مدينة مليكة للجوء إلى بنورة قصد الاستقرار

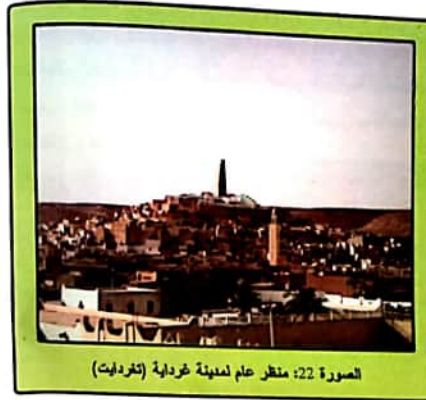
(1) - Marth et Edmond Gouvion: Op. cit, p: 226.

(2) - J. Melia: Op.cit, p: 57.

(3) - يوجد اختلاف بين المؤرخين في تحديد تاريخ تأسيس المدينة، فمنهم من يرجعها إلى سنة 1048م، ولكن البعض الآخر يرى أن تاريخ التأسيس يعود إلى سنة 1065م، وبما أن هذين التاريخين متقاربين فقلنا رجحنا أن تكون سنة التأسيس محصورة في الفترة الممتدة بين 1048 - 1065م.

(4) - Dr Charles Amat: Le M'zab et les Mozabites, Ed Challamel et Cie Paris 1888, p: 48

يُتَّفَقُ معظم المؤرخين في أنَّ محمد بن يحيى وأخاه سليمان هما اللذان قاما بتأسيس المدينة سنة 439هـ / 1048م، وحسب الأسطورة المتداولة فإنَّ محمد بن يحيى القادم من مدينة فتيق المغربية إلى وادي مزاب ضرب خيامه على ربوة، فكان يلاحظ في كل ليلة ضوءاً ينبعث من مغارة في أعلى قمة الجبل، فأرسل رفيقه باعيسى بن علوان⁽¹⁾ إلى عين



الصورة 22: منظر عام لمدينة غرداية (تغردايت)

المكان ليستطلع له الأمر. فوجد باعيسى بن علوان امرأة تسكن الغار تسمى "داية" تخلت عنها القافلة التي قدمت معها، وكانت تسترزق بما تجود عليها القوافل المارة على المكان. ونقل الشيخ الرقيق أخبار المرأة إلى صديقه محمد بن يحيى الذي تقرب منها وتزوجها، وبعد ذلك قرر إنشاء مدينة من حوالي الغار وسميت بغارداية أي أنها تتركب من كلمتين⁽²⁾.

وفي المقابل إبراهيم متياز يرى أنَّ غرداية أسسها المعتزلة سنة 222هـ، وتم تجديد عمرانها وتوسيعها سنة 447هـ / 1057م، ويروي إبراهيم متياز قصة تأسيس المدينة بشكل مختلف نوعاً ما عن القصة المعروفة التي أوردناها سابقاً، فيذكر أنَّ جماعة من الهلاليين نزلوا إلى مزاب من منطقة الزاب في منتصف القرن الخامس الهجري فتصادموا مع بني مزاب وفروا هاربين إلى الأغواط، وقد كان من بين الأسرى امرأة عجوزاً تسمى "داية"، فألوت إلى غار بالجبل ثم التقت بالشيخين محمد بن يحيى وبعيس بن علوان. وعندما وقع الصلح بين بني هلال وبني مزاب الذين قاموا مع النازحين الجدد بتجديد عمران المدينة فأتسع من حوالي الغار، ولم تسمى المدينة إلا بعد وفاة المعجوز داية فليل غارداية⁽³⁾.

(1) - إنَّ لفظة "أور" تعني في اللهجة المحلية ابن، ومن هنا أصبح الاسم المذكور أعلاه باعيسى ابن علوان.

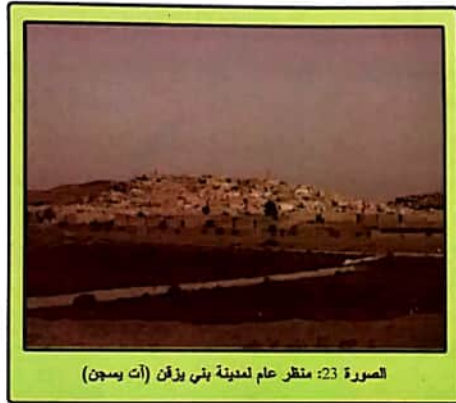
(2) - Lieutenant D'Armignac: Op.cit, pp: 67- 68.

(3) - إبراهيم متياز: المصدر السابق، ص: 64.

وأما التفسير البربري لكلمة تغردايت فيعني الأرض الصالحة للزراعة على ضفاف الوادي، وقيل إنها تصغير لكلمة "أغردي" ومعناه الجبل⁽¹⁾. وتعد هذه التسمية الأمازيغية في اعتقادنا الأقرب إلى الصواب.

أخذت مدينة غرداية مكانة مهمة بين مدن وادي مزاب، حتى أصبحت مع مرور الزمن عاصمة الاتحاد الفدرالي المزابي. وتضم ثلاث تجمعات سكانية مختلفة بحيث شكّل كل واحدة منها مدينة لوحدها ففي الشرق يوجد حي اليهود الذي فصل عن الحي المزابيين بواسطة جدار، وأما وسط المدينة فيقطنه بنو مزاب، وفي الجنوب الغربي يوجد حي المدابيح الذي فصل كذلك بواسطة سور⁽²⁾.

4-4- بني يزقن أو بني يمجن (أَنْتَ يَمَجْنُ): (الصورة 23)



الصورة 23: منظر عام لمدينة بني يزقن (أَنْتَ يَمَجْنُ)

أطلق عليها المستشرقون اسم المدينة المقدسة، وتمتاز بتناسق وانسجام عمرانها وبنظافة شوارعها. لذا فقد شبهها غوفيون Gouvion بين المدن المزابية الأخرى بالقيروان بالنسبة لإفريقية، وفاس بالنسبة للمغرب الأقصى⁽³⁾. وتقع مدينة بني يزقن على خط عرض 12° 28' 32" شمالاً، وخط طول شمالاً 1° 34' 48"

شرقاً⁽⁴⁾، وقد شيدت المدينة على هضبة عند نقطة تقاطع وادي انتيسا بوادي مزاب في الضفة اليمنى لهذا الأخير، وبسبب تدرج العمار على منحدر الهضبة تبدو المدينة جميلة وأنيقة.

(1) - يوسف الحاج سعيد: المرجع السابق، ص: 22.

(2) - J. Melia: Op.cit, p88 - 91

(3) - Marth et Edmond Gouvion: Op.cit, p: 224.

(4) - Charles Amat: Op.cit, p: 47

لمتدّت بني يزقن في الفترة الممتدة ما بين الأعوام 1321-1347م⁽¹⁾. ويشكّل النواة الأولى للمدينة حي تافلاّت (كان قصرا قبل هذا التاريخ) الذي يقع في أعلى نقطة في المدينة، حيث انضمّ إلى هذا القصر (تافلاّت) سكان قصور بوكياو وأقنوناوي وترشين وموركي فأنشع عمرانه وأعطيت له اسم مدينة بني يزقن⁽²⁾. وتتحدّث الرواية الشعبية عن جهود الشيخ بالمحمد بن عبد العزيز اليسجني وفضله الكبير في توحيد القصور الخمسة وتأسيس مدينة بني يزقن.

وفيما يتعلّق بالتسمية فإنّ الشيخ أحمد أطفيش يقدم تفسيرين: فيذكر في الأول أنّ في أعمال قسنطينة قوم يسمّون بأولاد يزقن بالزاي أو بالمّين، فانتقلت طائفة منهم إلى هذه المدينة واستقرّت بها ثمّ نسبت إليها المدينة⁽³⁾. ويشير في التفسير الثاني إلى أنّ بني يزقن تحريف لكلمة بربرية هي "يسجن" ومعناها النصف، وقد سمّيت بهذا الاسم نظرا لانتقال عرش أولاد سليمان بن يحيى من غرداية نحو بني يزقن، وبعدّ هؤلاء نصف سكّان غرداية، مع العلم أنّ النصف الآخر يتكوّن من عرش أولاد عتي عيسى بن عيسى⁽⁴⁾. وقد تمّ هذا الانتقال بعد اصطدام العرشين فيما بينهم، وقد أدّى ذلك الاصطدام إلى طرد عرش سليمان بن يحيى من غرداية بعد انهزامهم بطبيعة الحال.

ولمّا التسمية التي نراها جد معقولة فهي كلمة "آت يسجن" ذات الأصول الأمازيغية، وتعني آل يسجن، التي يبدو أنّها تعبر عن اسم قبيلة بربرية.

وتتكوّن مدينة بني يزقن من ثلاثة عروش رئيسية وهي أولاد عنان وأولاد موسى وأولاد بدر، وعلى عكس ما كان سائدا في المدن المزابية الأخرى من نزاعات وانشقاقات داخلية إنّ في أغلب الأحيان إلى التصادم، فقد عرفت هذه العروش بفضل حنكة أعيانها كيف تتعايش فيما بينها وتقضي على معظم الصراعات الداخلية⁽⁵⁾.

(1) - اختلفت المصادر التاريخية حول تأسيس مدينة بني يزقن، فمنها أرجعت سنة النشأة إلى سنة 1321م والبعض الآخر ينسب المدينة تم في الفترة الممتدة بين التاريخين المذكورين بقرّة سنة وعشرين علما قتل فيمكن القول (2) - أحمد أطفيش: المصدر السابق، ص: 20.

(3) - مصدر نفسه، ص: 21.

(4) - مصدر نفسه، ص: 20.

(5) - Marth et Edmond Gouvion: Op.cit, p: 223 , 224.

4-5- مليكة (آت مليشت): (الصورة 24)

مدينة صغيرة تقع على خطّ عرض $30^{\circ} 28' 32''$ شمالا، وخطّ طول $1^{\circ} 34' 52''$ شرقا⁽¹⁾. وقد بُنيت على قمت جبل صغير، في الضفة اليسرى من وادي مزاب، على بعد نصف كيلومتر من مركز مزاب (غرداية)، وشيّدت مليكة سنة 756هـ/ 1385م⁽²⁾ من قبل رجال ينتمون إلى قبيلة مليكش البربرية حسب الشيخ



الصورة 24: منظر عام لمدينة مليكة (آت مليشت)

أطفيش الذي يشير إلى أنّ هذه القبيلة تنتشر في الشرق الجزائري⁽³⁾. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ مليكة تعدّ آخر مدينة من المدن الإباضية الخمسة التي تحتضنها حفرة وادي مزاب.

لقد نزل هذه المدينة أولاد ويرو من بني بادين وأولاد أسبع وأولاد مطهري من بني عبد الواد، وانضمّ إليهم الشيخ سيدي عيسى من أولاد نايل القادم من الهضاب العليا الجزائرية، الذي اعتنق المذهب الإباضي بعد استقراره في وادي مزاب، وبفضل جهود هذا الشيخ الذي أراد نشر ثقافة التسامح بين السكّان الإباضيين والمالكيين، استقدم إلى مليكة عددا من الأسر من شعانية برزقة المالكية من مدينة متليلي وذلك إثر اتفاق بين المدينتين، وهؤلاء الشعانية كانوا فيما سبق يحاربون كمرتقة إلى جانب مليكة⁽⁴⁾.

4-6- القراة: (الصورة 25)

تقع مدينة القراة على خطّ عرض $34^{\circ} 9' 43''$ شمالا، وخطّ طول $2^{\circ} 10' 52''$ شرقا، على بعد مائة كلم تقريبا شمال شرق مركز وادي مزاب "غرداية" شيّدت المدينة فوق ربوة⁽⁵⁾.

(1) - Charles Amat: Op.cit, pp: 46 , 47.

(2) - Marth et Edmond Gouvion ; Op. cit, p: 225.

(3) - أحمد أطفيش: المصدر السابق، ص: 22.

(4) - يوسف الحاج سعيد: المرجع السابق، ص: 60 - 61.

(5) - Marth et Edmond Gouvion: Op.cit, p: 229.

حيث وقع اختيارهم على مكان يسمى 'كدية العقارب' فحطوا رحالهم فيه، وبدعوا ببناء سور يحميهم من ضربات الأعداء، وشيدوا مساكن لإيواء عائلاتهم. وهكذا وضعت الأسس الأولى لبناء مدينة القنارة وقد طلبوا في نفس الوقت من سلطان بني جلاب محاصرة قصر المبرتخ مقابل مبلغ من المال⁽¹⁾.

وبعد رحيل بني جلاب من المنطقة، تصارع الطرفان حتى تدخل أولاد سيدي عبد الله من الأشراف، فعقدت هدنة بين المتصارعين لمدة ثلاث سنوات، وقد استغل أولاد باخه هذه الهدنة في بناء مدينتهم وتطويرها، وأطلقوا عليها اسم "القنارة"، وكان ذلك سنة 1041هـ / 1631م، ورغب أولاد باخه بأولاد سيدي عبد الله في مدينتهم، فوقعوا معهم اتفاقية تنص على ما يلي:

- السماح لأولاد عبد الله بتطبيق شعائهم الدينية وفق مذهبهم بكل حرية.
- تقم لهم وفق الاتفاقية 1/46 من الأراضي.
- الامتناع من المحاربة إلى جوار أعداء أولاد باخه.
- ضرورة الامتناع والخضوع للأنظمة العرفية للمدينة⁽²⁾.

وبعد انتهاء الهدنة اشتعلت نار الحرب من جديد بين سكان القنارة وسكان قصر المبرتخ. وبعد أشهر من الاقتتال تمكن أولاد باخه في هذه المرة من الدخول إلى القصر وهدمه وتخريبه⁽³⁾، فهرب الناجون من أولاد نوح والعفارة إلى منطقة أخرى ليشتدوا بدورهم فيما بعد مدينة جديدة مستنظمة بدورها إلى الاتحاد الفرابي المزابي.

وأما أولاد باخه فبعد انتقامهم من أعدائهم أولاد نوح والعفارة اهتموا بالبناء والتشييد، فأضحت مدينتهم مزدهرة وراقية مما جعل بعض الأسر من وادي مزاب تهاجر إليها بهدف الاستقرار فيها.

وبعد قرن من الأمن والاستقرار عنت الفوضى المدينة من جديد بسبب انقسامها إلى صفيين: فالصف الشرقي من جهة، ومن جهة أخرى الصف الغربي، وذلك على غرار سائر المدن المزابية الأخرى. وقد أدى هذا الصراع إلى ملاقات الطرفين في معارك طاحنة أودت بحياة العديد من الأهالي، وفي كل مرة يتم طرد المنهزم بعيدا عن المدينة.

(1) - Marth et Edmond Gouvion Op.cit, pp:230 , 231.

(2) - De Motylinski: Op.cit, p: 386.

(3) - Marth et Edmond Gouvion: Op.cit, p: 231.



الصورة 25: منظر عام لمدينة القنارة

في أواخر القرن السادس عشر الميلادي طردت عشيرتنا أولاد نوح وأولاد باخه من مدينة غرداية إثر اصطدام بين الصفيين الشرقي والغربي، فتوجهت العشيرتان إلى مدينة الأغواط، ولكن لم يتم مقامهما طويلا فيها، فبعد سنتين من سنوات فقط وبسبب نشوب خلاف بينهما وبين السكان المحليين الذين حاولوا القضاء عليهم، فقررت العشيرتان

الإباضيتان نحر منطقة بونركفين، ولكن أهالي الأغواط التحقوا بهما فأجهزوا عليهم، وقضوا على معظم أفراد القبيلتين، وهرب الناجون من المجزرة مشتتين اتجاه وادي مزاب، ثم التقوا جميعا في منطقة تسمى ملاقات ابن سيدوم عند تقاطع وادي الكيش ووادي النعنا. ولما أحسوا بأنفسهم ضعفا وعدم قدرتهم على مجابهة العدو، توجهوا إلى وادي زغريز هروبا من بطش قطاع الطرق، فشيّدوا قصر المبرتخ الذي أخذ يزدهر وينمو بسرعة فائقة⁽¹⁾.

لم ينعم أهالي قصر المبرتخ بالأمن والاستقرار طويلا حتى عصفت عليه رياح الفتنة والحرب، فتصارعت العشيرتان أولاد نوح من جهة، وأولاد باخه من جهة أخرى، فكان النصر لحليف أولاد نوح. فطرد المنهزمون الذين لجؤوا إلى غرداية، وطلبوا من أهلها السماح لهم بالإقامة، فلنوا لهم⁽²⁾.

وقصد الانتقال من أولاد نوح قرر أربعون رجلا من أولاد باخه التوجه إلى الجزائر العاصمة للعمل في التجارة وجمع الأموال اللازمة لذلك. وبعد سنوات طويلة تمكنوا من جمع الأموال والأسلحة اللازمة، وتحت قيادة حمو بن طوبال اتجهوا إلى منطقة وادي زغريز،

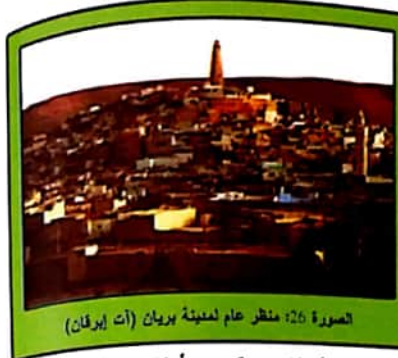
(1) - Marth et Edmond Gouvion: Op.cit, p: 229.

(2) - De Motylinski: "Notes Historiques sur le M'zab ; Guerara depuis sa fondation", in R. Africaine, O.P.U, Alger 1884, pp: 378 -381.

4 - 7 - بزّيان: (الصورة 26)

تقع مدينة بريان على خط عرض $32^{\circ} 51' 20''$ شمالا، وخط طول $1^{\circ} 27' 32''$ شرقا، على بعد 43 كلم شمال غرداية⁽¹⁾.

تشير الرواية التي تتعلق بتأسيس المدينة إلى أنه لما هُزم قصر المبرّخ الذي كان يقطنه أولاد نوح والغفارة - كما أشرنا إلى ذلك



الصورة 26: منظر عام لمدينة بريان (أت إبرقان)

أنفا - بسبب نزاعهم مع أولاد باخه (أهالي القرارة)، فرّ من بقي من أولاد نوح المغفارة بحثا عن مكان يستقرون وينعمون فيه ببناء الأمن والسلم، فوقع اختيارهم على منطقة تقع عند تقاطع وادي السودان بوادي بلّوح، ولكن هذه المنطقة كانت ملكا لقبيلة أولاد يعقوب الذين يأتون إليها في فصل الشتاء والربيع طلبا للكلأ والمرعى، ويتدخل من رئيس القبيلة تمّ السماح لمهاجري قصر المبرّخ بالاستقرار في المنطقة شريطة دفع تعويضات عن الأراضي التي يتمّ تشييد المدينة فوقها، قبلوا ذلك وبدعوا فعلا في تأسيس المدينة سنة 1090هـ / 1679م⁽²⁾. ونظرا للمعاملة الحسنة التي تلقّاها الإباضيون من قبل رئيس قبيلة أولاد يعقوب الذي يسمّى ابن ريان، وعرفانا له بالجميل سمّيت المدينة باسمه وقيل "بريان"⁽³⁾.

يقدم الشيخ أطفيس تفسيراً آخر في أصل تسمية بريان لا يبتعد كثيرا عن الرواية الأولى فيقول "وسمى البلد بريان أي بئر كثير الماء ويقال أصله بئر ريان لأن فيه بئرا معروفة إلى الآن على أنها بئر لرجل حفرها اسمه ريان"⁽⁴⁾.

وهناك رأي آخر فيما يخص التسمية ولا يمكن أن نفرض الطرف عنه، إذ من الممكن جداً أن تكون التسمية ذات أصل بربري فالكلمة مشتقة من "أتّ إيْرَقَان" بمعنى أصحاب الخيم الصوفية، لأن كلمة "إبرقان" تعني في اللغة الأمازيغية، الخيمة المصنوعة من الوبر

أو من شعر الماعز⁽¹⁾.

5- الوضع السياسي بمزاب:

تكوّن مدن مزاب السبع فيما بينها اتحادا فيدراليا، ولكنها كانت تعيش في فترات تاريخية منقطعة في حالة فوضى وعدم استقرار بسبب كثرة الفتن الداخلية والخارجية. فقد يكون النزاع داخل المدينة الواحدة أو بين مدينة وأخرى، وقد تتجرّ كل المدن وتشارك في النزاع مقسمة بذلك نفسها إلى صفيين أو حزبين: غربي وشرقي.

ويبدو أنّ هذا الانقسام يعود في أساسه إلى عامل تاريخي، إذ أنّ وادي مزاب استقبل عددا كبيرا من النازحين من أنحاء مختلفة من شمال إفريقيا. فبعضهم قدم من الشرق من ستراتة وورقلة وجبل نفوسة ووادي ريغ وجربة... الخ فكوّنوا ما يسمّى بالصف الشرقي، والبعض الآخر قدم من الغرب من جبل عمّور وبلاد بني مطهر ومن فتيق ومجلماسة... الخ وكوّنوا ما يسمّى بالصف الغربي⁽²⁾. ولعلّ هذا الانقسام لا يدعو أن يكون صراعا بين الأصليين والنازحين، كما جرى ذلك في مناطق عديدة من الصحراء الجزائرية.

إنّ منشأ هذا الصراع كان في مدينة غرداية التي كانت تركيبة سكانها تتشكّل في الأساس من قبيلتين رئيسيتين وهما: أولاد عمي عيسى من جهة، وأولاد باسليمان من جهة أخرى ولضوضت تحت راية هاتين القبيلتين باقي التشكيلات الاجتماعية.. فأما القبيلة الأولى فلقيت نفسها بالصف الغربي، وأما القبيلة الثانية فلقيت نفسها بالصف الشرقي، ولكون مدينة غرداية تعدّ المركز بالنسبة للمدن الأخرى، فإنّ كلّ قبيلة جرّت إلى صفّها أو حزبها قبائل من المدن الأخرى⁽³⁾.

ويمكن القول أنّ هذا الانقسام كان طبيعيا وتقليدا لما كان يجري في المناطق المجاورة. سواء في الصحراء أو في الهضاب العليا. حيث ينقسم السكان إلى صفيين متصارعين: صفّ شرقي وصفّ غربي دون أن يكون هناك سبب واضح ولعلّ فكرة الأصلي والنزلي كانت وراء هذا الانقسام والانشقاق⁽⁴⁾.

(1) - بكير بن سعد أوعشت: وادي مزاب في ظل الحضارة الإسلامية، دنيا، تاريخيا، اجتماعيا، المطبعة العربية، غرداية 1991، ص: 70.

(2) - E. Masqueray: Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie (Kabyles du Djerjara, Chaouia de l'Aourès, Beni_Mzab) Thèse lettres, Leroux, Paris 1886, p: 212.

(3) - يوسف الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 71.

(4) - مرجع نفسه، ص 71-72.

(1) - Marth et Edmond Gouvion: Op.cit, p: 288.

(2) - J. Melia: Op.cit, pp: 29, 30.

(3) - M. Zeys: Voyage d'Alger au M'zab, in Tour du Monde, Paris 1887, p:306.

(4) - لسمند الخفشي: المصدر السابق، ص: 30.

شهدت مدن مزاب في أغلب الفترات التاريخية باستثناء بني يزقن التي عرفت - نظرا لقوة سلطة مؤسساتها الاجتماعية - بتحكمها في الوضع، فتنا داخلية وحروب أهلية، حيث يحاول كل صف في كل مرة الاستجداد بحلفائه وبالمرتزقة من قبائل الشعانية والمذابيح والعطاشنة. فيمجرد بروز فتنة صغيرة في مدينة من المدن المزابية السبع، تنقسم هذه المدن إلى صفين أو حزبين، وعندما ينتصر صف في مدينة ما عن الصف الآخر، يقوم بنهب وسلب ممتلكات الصف المنهزم، ثم يتم طردهم من المدينة كخطوة ثانية، وكنتيجة لهذا الصراع قُسمت مدينة العطف كما ورد سابقا إلى قسمين بوسطة سور، وبني مسجد ثان في المدينة، كما هدم قصر بنورة القديم، وطُرد أولاد نوح وأولاد باخه من مدينة غرداية، ويمكن أن نورد فيما يأتي أمثلة عن بعض الفتن الداخلية:

- وقع نزاع بين المدن: بني يزقن وغرداية ومليكة في شهر رمضان من سنة 810هـ / 1408م.

- وقعت في مدينة بنورة حرب أهلية سنة 814هـ / 1412م بين أولاد إسماعيل وأولاد عبد الله، قُتل فيها نفر من السكان⁽¹⁾.

- في سنة 990هـ / 1582م قام الصف الشرقي بمباغطة الصف الغربي وقتلوا منهم ثمانين رجلا، وأُعيد الصف الغربي من غرداية لمدة أربع سنوات، كما استقدم الصف الغربي المذابيح لمنصرتهم والانتقام من الصف الشرقي⁽²⁾.

يمكن أن نرجع هذه القوضى المتمثلة في الصراعات الداخلية إلى أسباب عديدة منها:

- قسوة الطبيعة التي أثرت نفسيا على سلوكيات السكان وجعلتهم يتصارعون فيما بينهم لأتفه الأسباب..

- الانحطاط الثقافي الذي كان يسود المغرب العربي عامة ووادي مزاب بخاصة، حتى أنهم لجؤوا في بعض الأحيان إلى استقدام العلماء من مناطق أخرى كاستقدام عمي سعيد الجري مثلا من مدينة جربة التونسية.

- غياب سلطة تنفيذية رادعة كالشرطة وعدم وجود جيش نظامي يتدخل لاستتباب الأمن⁽³⁾.

- ويمكن إضافة عامل آخر يبدو في نظرنا أساسيا ومهما وهو حب السلطة والتمكك لدى

شعوب البربر عامة.

بالإضافة إلى هذه النزاعات والصراعات الداخلية تعرضت مدن مزاب أحيانا كثيرة إلى الغزو الخارجي من طرف البدو الرحل من القبائل الهلالية التي كانت تعيش على النهب والسطو، أو من بعض حكام الإمارات الصغيرة المجاورة، ونقتصر هنا بذكر مثالين فقط:

- قامت مجموعة من العرب من جبل عتور سنة 1061هـ / 1651م بهجوم على مدن مزاب، وقُتل عدد كبير من الطرفين⁽¹⁾.

- وفي سنة 1166هـ / 1783م هاجمت طائفة من بني الأغواط الشعانية ومجموعة من العرب على مدينة بني يزقن، فاقتتلوا، وقُتل نفر كبير من الطرفين⁽²⁾.

وعلى الرغم من تلك الإجراءات الردعية التي اتخذها مجلس عزابة وادي مزاب الأعلى في عدد من الاتفاقات، فإن تلك الحروب الأهلية بين المدن المزابية ظلت مستمرة حتى الغزو الفرنسي للمنطقة سنة 1882م.

ومن أمثلة الاتفاقات التي اتخذت للقضاء على الصراعات والفتن ما نصّه "تقد اتفق نفس مجلس عمي سعيد سنة 1052هـ / 1643م على معاقبة حاملي السلاح الأبيض وحتى على من يتقوه بكلام مذيء ضد أخيه، بدفع غرامات مالية"⁽³⁾.

قام بنو مزاب بمساعدة الشريف محمد بن عبد الله في حربه ضد الاحتلال الفرنسي بالعدد والعدة الحربية والمؤن الغذائية. وكرّد فعل لذلك قرّر الجنرال روندون عدم شراء الحبوب من بني مزاب في أسواق التّل، لكن هذه الإجراءات لم تمنع بني مزاب من تقديم يد المساعدة والعون لمحمد الشريف، حيث ساعده في الهروب من قبضة فرنسا، بعد أن خاض معركة طاحنة ضد الجيش الفرنسي بقيادة الجنرالين بيليس ويوسف، وكنتيجة لهذا منح روندون مهلة شهرين لبني مزاب لإبرام معاهدة الحماية مع فرنسا⁽⁴⁾.

وبعد احتلال الأغواط سنة 1853م عرض الوالي العام للجزائر الجنرال روندون على جماعة بني مزاب في رسالة مؤرخة في جانفي 1853م استعدادده لتأمين القوافل المزابية، مقابل

(1) - يوسف بن حمو بن عون: بيان بعض التواريخ التي علمت بها في زمانه، مخ بمكتبة الاستقامة ببني يزقن، ص: 2.

(2) - مصدر نفسه، ص: 2.

(3) - L. Millot: Recueil de Délibération des Djmaas du M'zab, Extrait de la R. d'Etudes Islamiques k Librairie Orientale, Paul Gautier, Paris 1930. p: 198

(4) - يوسف الحاج سعيد: المرجع السابق، ص: 98.

(1) - يوسف الحاج سعيد: المرجع السابق، ص: 73.

(2) - مرجع نفسه، ص: 73.

(3) - مرجع نفسه، ص: 71.

خضوعهم ودفعهم ضريبة تقدر بـ 45 ألف فرنك لفرنسا، والتي ارتفعت فيما بعد لتصبح تقريبا 50 ألف فرنك⁽¹⁾.

انقسم بنو مزاب إلى قسمين: قسم مؤيد لإبرام المعاهدة وقبول شروط فرنسا، وقسم رافض للتصباح كان يدعو إلى المقاومة، ويترأسه الشيخ أحمد أطفيش الذي وقف ضد هذه المعاهدة وأعلن براءته من الوفد الذي تفاوض مع أهل الكفر⁽²⁾.

وفي الأخير اتفق بنو مزاب (مجلس وادي مزاب) سنة 1269هـ/ 1853م بإرسال جماعة مكونة من أعيان المدن السبع إلى مدينة الأغواط، قصد إبرام المعاهدة مع فرنسا، فتم ذلك في أبريل سنة 1853م⁽³⁾.

لقد انتظرت فرنسا حتى سنة 1882م لاحتلال مدن مزاب تحت غطاء إرجاع الأمن والاستقرار للمنطقة، والقضاء على الفوضى والنزاع⁽⁴⁾، ولكن قرار إلحاق وادي مزاب إلى الأراضي الفرنسية المحتلة كان في حقيقة الأمر للأسباب الآتية:

- قتل اليهودي بنح الذي عينته فرنسا أغا على مزاب سنة 1860م⁽⁵⁾.
- تقديم المساعدات للثائرين ضد فرنسا من الأسلحة والذخيرة الحربية والأغنية، كما أصبح مزاب ملجأ لهؤلاء الثائرين.
- امتناع المدن بني يزقن والمطف وملكة وبنورة سنة 1860م من إرسال نواب لهم إلى الجزائر لاستقبال الإمبراطور نابليون الثالث⁽⁶⁾.

وبوصول قواتها إلى وادي مزاب وطنت فرنسا أقدامها أراضي وادي مزاب تحت قيادة الجنرال دي لاتور دوفورغ De la tour d'auvergne وأعلن رسميا إلحاق مزاب إلى الأراضي المحتلة في 30 نوفمبر سنة 1882م⁽⁷⁾.

(1) - Robin (Commandant): Le M'zab et son Annexion à la France, Ed Typographie Adolphe Jourdan, Alger 1884, p:43.

(2) - يوسف الحاج سعيد: المرجع السابق، ص: 98.

(3) - J.Melia: Op.cit. p.60.

(4) - Charles: Kheinecknecht ; Op.cit p:9.

(5) - يوسف الحاج سعيد: المرجع السابق، ص: 100.

(6) - Louis Watin: "bLes Tolbas du M'zab, Organisation Actuel des Tolbas du M'zab "in Archives de la Direction du personnel des Territoire du Sud 1913, p:6.

(7) - Charles: Kheinecknecht: Op.cit, p:9.

II - التنظيم الاجتماعي في مدن مزاب:

من المزابيون منذ نشأة المدن الخمس الأولى أنظمة اجتماعية تقوم بتسيير أمور المجتمع وتسهل على حل كل مشاكله الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في سبيل النهوض والرفق بهذا المجتمع.

1- الأنظمة المدنية:

ففي كل مدينة نجد تنظيما يسمى بالعشيرة وتتكون من مجموعة من الأسر والعائلات وهذه العشيرة انبثقت من العرش، وتقوم هذه المؤسسة بشؤون العائلات المنضوية تحتها، فتتكفل باليتامى والأرامل والفقراء والمساكين، وهي ملزمة بالاعتناء بكل فرد ينتمي إليها، كما أنها تشرف على حفلات الأعراس، ومن مهام هذا المجلس كذلك فض النزاعات بين أفرادها وإصلاح ذات البين. وتكون كل العائلات ممثلة من طرف وجهاتها في مجلس العشيرة.

كما نجد في كل مدينة مجلسا للعوام أو ما يسمى بمجلس الأعيان الذي يشرف على الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية في كل مدينة، كما يقوم بفض النزاعات التي يمكن أن تنشأ بين عشيرة وأخرى. وتكون كل عشيرة في المدينة ممثلة بنائب منتخب من طرفها، كما لمجلس العزابة نوابا له في مجلس الأعيان.

2 - الأنظمة الدينية:

نظرا لأهمية هذا التنظيم داخل المجتمع المزابي وعلاقته المباشرة بالعمائر الدينية في المدينة المزابية، إذ تعد الحلقة الحارس الأمين لكل المباني الدينية، وكذا اتخاذ هذا التنظيم المسجد مقرا رسميا لجلساته، وانشغال أعضائه بخدمة هذه العمائر التي سنتناولها بالدراسة، وعليه منخصص له جزءا مهما من البحث لتبيين أصل هذا التنظيم ومهامه داخل المجتمع المزابي.

2-1- نظام العزابة:

يجب علينا قبل كل شيء البحث عن المعنى اللغوي لكلمة العزابة، فلقد ورد في لسان العرب لابن منظور أن أعزب رجل، عزب وعزابة، ومعناه لا أهل له، وعزبت الإبل أي ابتعدت

في المرعى، وأعزبها صاحبها وأعزب ليله أي بيته في المرعى ولم يرحها⁽¹⁾. وانطلاقاً من هنا فإن كلمة العزابة إذا مأخوذة من عزب عن أهله أي انفرد وانقطع عنهم. ولما المعنى الاصطلاحي فيقصد به الاعتزال والغربة والبعد عن الشهوات الدنيوية وكما يليها خدمة الدين الإسلامي الحنيف وخدمة للمجتمع، انطلاقاً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبتعداً عن مفاتن الدنيا⁽²⁾.

بدأ هذا النظام لعمليات تعليمية بحتة هدفه تكوين التلاميذ الذين كانوا يجلسون إلى شيخهم في شكل حلقة دائرية، ومن هنا أخذ هذا النظام اسم الحلقة، ولكن هذه الحلقة تطوّرت حسب الظروف الزمانية والمكانية وحسب العوامل الداخلية والخارجية وتجلّى هذا التطور لا سيما بعد نشأة المدن المزابية، فأصبح نظام العزابة متكاملًا بأنّ معنى الكلمة يهتم بكل نواحي الحياة الفردية والجماعية من الجانب الديني والاجتماعي والاقتصادي.

2-1-1- نشأة حلقة العزابة:

يعود تاريخ ظهور هذا النظام إلى القرن الرابع الهجري، فبعد أن شعر الإباضية في قسطنطينية وأريغ وجربة ونفوسة وورقلة أن لا حول ولا قوة لهم لتكوين إمارة الظهور، فكّر شيوخهم ملياً في إنشاء نظام يتماشى وطور الكتمان الذي ارتضوه لمذهبهم، ويحفظ كياناتهم، ويجمع شملهم، وذلك دون أن يعرضهم لهجمات السلاطين الذين كانوا يخشون ثوراتهم⁽³⁾.

وتذكر المصادر الإباضية أنّ أبا زكرياء⁽⁴⁾ لما تولّى زعامة جزيرة جربة الإباضية، فكّر ملياً في إنشاء نظام يقوم بتسيير المجتمع الإباضي، فأرسل سنة 408هـ/ 1018م ولديه زكرياء ويونس ضمن جماعة من الطلبة إلى تلميذه الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر، وألح عليهم التفكير رفقة أساتذهم في سنّ النظام الذي يتصوره. فلبّى أبو عبد الله رغبة طلبته، وطلب منهم مهلة للتفكير في إرساء دعائم نظام تربوي وديني، وبعد أربعة أشهر من التفكير أسس أبو عبد الله

(1) - ابن منظور: لسان العرب، ج: 1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت 1968، ص: 79-81.

(2) - فرحات الجبري: نظم العزابة عند الإباضية الوهبة في جربة، المعهد القومي للأثار والفنون، المطبعة العصرية، تونس 1975، ص: 68.

(3) - مرجع نفسه، ص: 25.

(4) - فوسل بن أبي مسور بجان بن بوجين البهراسي الملقب بابي زكرياء من أفاضل علماء جزيرة جربة بتونس، تلقى العلم عن أبيه ثم عن الشيخ أبي خزر بن زلفان، وتولى التدريس، وإليه يرجع الفضل في التخطيط لإنشاء نظام العزابة، وانتقى لتجسده فكره أبا عبد الله محمد بن بكر. وتوفي أبو مسور ما بين 420-440هـ/ 1029-1048م.

ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ص: 4، ص: 707-708.

محمد بن بكر نظام حلقة العزابة بمسجد المنية سنة 408هـ/ 1018م ولقبوا هذا النظام بالسيرورة المسمورية البكرية، وانتقل أبو عبد الله إلى بني مغراوة فجّهز غارا بتين اسلي خصّصه للتدريس، وفي هذا المكان أرسى معالم النظام الجديد ووضع قواعده وقوانينه⁽¹⁾.

خصّ أبو عبد الله المنضمين إلى الحلقة بعلامات ليتميّزوا عن سواهم، فمن بين هذه الخصوصيات خلق الشعر، وارتداء ثوب ذي لون أبيض، وتغطية الرأس بلحاف، ويشترط في اللباس أن يكون نقيًا ونظيفًا وطاهراً. كما يشترط في عضو العزابة أن يكون أديباً كِتساً ومستعداً للتضحية في سبيل الله، وأن يسعى في طلب العلم، ولا يكثر دخول الأسواق، وأن يكون حافظاً للقرآن الكريم، ويشترط عليه أيضاً اتّباع سَلَم الارتقاء ضمن الهياكل داخل نظام العزابة⁽²⁾، ويمكن لأي شخص أن يلتحق بالحلقة إذا توفّرت فيه هذه الشروط.

إنّ نظام الإمامة أثناء فترة الظهور عند الإباضية يقوم على أساس الشورى، واعتماداً على هذا المبدأ أصبحت حلقة العزابة في فترة الكتمان بمثابة مجلس الشورى، ولكن السلطة التنفيذية تختلف من وقت إلى آخر، كون فترة الكتمان تقتضي الحرس وتجنّب كلّ ما من شأنه أن يجلب الهلاك للجماعة الإباضية وللمذهب بالخصوص في حالة عدم وجود ضرر في تطبيق حدود الشريعة الإسلامية فإنّهم يقيمونها، وأمّا في حال العكس فإنّهم يكتفون بمبدأ الولاية والبراءة وهذه طبعاً سنة أسلافهم في البصرة إبان المرحلة السرية التي اتّبعها الإباضيون في عهد بني أمية.

2-1-2- هيئة العزابة:

تُعَدّ المساجد مقرّات رسمية لهذه الهيئة، ويُعتدّ أنّ أول من اتخذ المسجد مقراً كان أبو زيد عبد الرحمان بن المعلي⁽³⁾. وتعدّ هذه الهيئة أعلى سلطة تنفيذية وتشريعية وقضائية في المدينة المزابية، ولها سلطة روحية على العامة، وتتألف الهيئة من اثني عشر عضواً كحدّ أدنى اقتداء بمؤسّس الحلقة ويمكن إضافة أعضاء آخرين إذا ما اقتضت الظروف مراعاة المصلحة العامة ليصل في بعض الأحيان إلى أربع وعشرين عضواً. ولكلّ عضو ينتمي إلى الحلقة مهامه وواجباته.

كيف يتمّ إجماع عضو جديد في حلقة العزابة ؟ فبعد أن يقع الاختيار على عضو جديد

(1) - الدرجيني: المصدر السابق، ج: 1، ص: 167-169.

(2) - فرحات الجبري: نظم العزابة، ص: 70.

(3) - عوض خليفات: النظم الاجتماعية، ص: 31.

تتوفر فيه الشروط اللازمة، فالحلقة حسب عوض خليفات تعين مرافقا وملازما له بطريقة سرية للتأكد من سلامة سلوكه قولاً وعملاً، وفي حالة التأكد تماماً من ذلك، يجتمع المجلس ليقرر بشكل نهائي تتحاقه بالحلقة، ولا يمكن للعضو الجديد الذي تم قبوله رفض المنصب إلا بعذر مقبول.

وبعد قبول العضو الجديد يتم استدعاؤه رسمياً إلى المقر (المسجد)، فيقوم الشيخ بتعريفه بالمهمات والواجبات التي ستسند إليه، ثم يُطلب من سلفه في الرتبة ملازمته لمدة ثلاثة أيام متتالية حتى يترب على وسائل خدمة العزابة، ويعلمه الأدب والسلوكيات التي سيتوجب عليه ممارستها دون كلل أو ملل⁽¹⁾.

وتتوزع الوظائف داخل الحلقة كما يأتي:

الشيخ: يُعد رئيس الحلقة، ويشترط فيه التقوى والورع والصلاح والذكاء والفتنة، ويجب أن يكون متضلماً في العلوم الدينية. ويرأس كل اجتماعات الحلقة التي لا يمكن أن تجتمع بدونه، ويعد المرجع الأول في الفقه الإباضي، فإليه تُرجع الفتوى في المدينة، ويبقى في منصبه مدى الحياة، ويقوم الشيخ باختيار أربعة أعوان من أعضاء العزابة لمساعدته في بعض المهمات⁽²⁾.

الأعوان: وعندهم أربعة يختارهم الشيخ، ويكونون في الدرجة الثانية في العلم والورع والتقوى ويشكل هؤلاء ما يسمى باللجنة الاستشارية داخل الحلقة، إذ يقوم الشيخ باستشارتهم في كل الأمور، وينوب أحد هؤلاء الشيخ في حالة مرضه أو تعذره القيام بواجباته، ويعد الأعوان مع الشيخ بمثابة الإمام، لذلك يرجع إليهم الحل والعقد في كل قضية، ومن هؤلاء يتم اختيار إمام للصلاة والمؤذن وكلاء الأوقاف. ويحتفظ هؤلاء الأعوان بمنصبهم مدى الحياة.

الإمام: يؤم الناس في الصلاة، ويشترط فيه أن يكون حافظاً للقرآن الكريم ومجيداً لتلاوته وعالماً بقرائن الصلاة وسننها وشروطها، ومن بين مهامه كذلك تحرير عقود الزواج.

المؤذن: ووظيفته القيام بالأذان وينوب عن الإمام في بعض الأحيان في تحرير عقود الزواج، ويشترط في المؤذن أن يكون أميناً وورعاً عارفاً بأوقاف الصلاة بدقة، ويتحدث في الظروف الطبيعية في سبيل إنجاز مهامه، ويكون المؤذن أحياناً من ضمن الأعوان الأربعة.

وكلاء الأوقاف: وعندهم اثنان يجب أن تتوفر فيهما شروطاً إضافية، نظراً لخطورة

(1) - عوض خليفات: النظم الاجتماعية، ص: 39-40.
(2) - مرجع نفسه، ص: 35.

وظيفتهما، ومن بين الشروط أن يكونا قليلي المال وليسا بفقيرين (الطبقة المتوسطة)، وقبلي الأولاد، لكي لا تشغلها ثروتهما أو أولادهما عن أداء واجباتهما، ووظيفتهما الإشراف على بيت مال العزابة والبحث عن سبل تنمية وإدارته، وكذا الإشراف على الأوقاف المتعلقة بالحلقة والمسجد والمدرسة والمصليات الجنائزية، ومن مهامهما أيضاً المحافظة على المسجد ونظافته، ويعتد المسؤولون في كل الأمور المائنة المتعلقة بالمسجد، ويمكن لهؤلاء الوكلاء الاستعانة ببعض الأشخاص من طبقة العوام في أداء بعض أعمالهما⁽¹⁾.

المعلمون: ويطلق عليهم تسمية "العرفاء" ويكون عددهم ثلاثة ويزداد أو ينقص حسب الاحتياج، ويشرفون إلى جانب الشيخ على كل شؤون المدارس التابعة للعزابة.

الضمائون: وعندهم خمسة، وتتمثل مهامهم في غسل الموتى من الإباضيين، وتجهيزهم والصلاة عليهم. كما يشرفون على تنفيذ وصايا الموتى وتقسيم التركات طبقاً لمبادئ الشريعة الإسلامية، ولا يتولون الإشراف على الإباضيين الذين هم في براءة المسلمين⁽²⁾.

تؤدي حلقة العزابة داخل المجتمع الإباضي مهاماً عديدة منها:

2-1-3- المهام الدينية:

وتتمثل في الإشراف على الجوامع والمساجد والمصليات الجنائزية والمدارس الحرة وكل ماله صلة بهذه الوظائف، كما يساهمون على تطبيق الشريعة الإسلامية طبقاً لتعاليم المذهب الإباضي، ويقومون أيضاً بتعيين القضاة في المدينة لإقامة العدل والمساواة بين كل الناس، ومن المهام أيضاً إرسال الوعاظ والمرشدين إلى المناطق التي يتواجد فيها الإباضيون دون وجود حلقة العزابة فيها، ويقومون أيضاً بمهمة تأليف ونسخ الكتب الدينية.

2-1-4- المهام الاجتماعية:

وتأتي في الدرجة الثانية من حيث الأهمية، إذ يتدخل المجلس في مختلف أوجه الحياة اليومية للمجتمع الإباضي، نظراً لارتباطها الوثيق بالدين، إذ لا يصلح الدين إلا بصلاح الأمة، ومن هذا المنطلق فإن المجلس يشرف على كل المناسبات التي تقام في المدينة كالأعياد الدينية وحفلات الأعراس والأفراح، وفي هذا الصدد فإن حلقة العزابة تحدد المهور وتحرر عقود

(1) - عوض خليفات: النظم الاجتماعية...، ص 36-37.

(2) - بكور بن سعد أعروش: وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية: دينياً وتاريخياً، اجتماعياً، الطبعة العربية، غرداية، 1991، ص 105.

الزواج، كما أنها تشرف على المعتم.

2-1-5- المهام الاقتصادية:

يشرف المجلس على كل الأوقاف والحبوس في المدينة ويعمل على ترميمها. ومن المهام الاقتصادية الأخرى الإشراف على السوق العامة لمراقبة عملية البيع والشراء وضمان سلامتها من الوجهة التشريعية، وتلك فعالية البيع في الأسواق لا تبدأ إلا بحضور عضو العزبة المسؤول بالإشراف على عملية البيع والشراء داخل السوق.

2-1-6- المهام الموسمية:

مهامها محدودة في هذا الجانب، ولا يتعدى عمل حلقة العزبة ربط العلاقات مع المدن الإسلامية الأخرى⁽¹⁾.

2-2- المجلس الأعلى للعزبة:

بما أن المدن المزربية السبع تشكل تحاداً فيدرالياً فيما بينها، فكان لابد لها من إنشاء مجلس أعلى يسهل على حماية هذا الاتحاد من نزول وحماية الجماعات الإسلامية المتواجدة في المنطقة. ويقوم هذا المجلس بفرض النزاعات والخلافات التي تنكز باستمرار بين هذه المدن، كما ينظم العلاقات بين منطقة مزاب والمنطقة الأخرى بالجزائر وخارجها، واعتباراً لهذا كان يشرف على شؤون الحاج المزبيين، ولهذا المجلس حق عقد اتفاقيات أو معاهدات مع الأطراف الخارجية.

يضم المجلس الأعلى ثلاثة أعضاء من كل مدينة (الشيخ والإمام والثالث) ينتخب من بين أعضاء العزبة الآخرين، ويكثر ويقل عدد أعضاء المجلس تبعاً لعدد المدن المنضوية تحته. وتقوم لجنة متكونة من سبعة فقهاء (يختارون من بين أعضاء المجلس أو من العلماء المشهورين في مزاب) بمساعدة المجلس لتتفر في بعض القضايا الخلافية⁽²⁾.

لا يُعرف تاريخ تأسيس هذا المجلس ولكن الشيء المؤكد أنه كان موجوداً في بداية القرن التاسع الهجري والتليل على ذلك أن قدم اتفاقية وصلت إلينا تعود إلى أول رجب سنة 807هـ / 1405م⁽³⁾.

(1) - يوسف الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 31-32.

(2) - عوض خليفة: نظم الاجتماعات... ص 53-54.

(3) - L.Millot: Op.cit. p.173-174

2-3- هيئة إروان (قضاء التلاميذ):

لا ينضم إلى هذه الهيئة إلا من كان ضمن هيئة إمسوردان (الشباب)، ويشترط أن يكون العضو في هذه الهيئة حافظاً للقرآن الكريم عن ظهر قلب، ويكون مستعداً لمواصلة دراسته، وخاصة في الفقه وأصول الدين، ولهذا الغرض خصص لهم مقراً في المسجد ويُطلق عليها اسم "إروان" التي تضم مكتبة معتبرة⁽¹⁾.

2-4- هيئة إمسوردان (الشباب):

للتضام إلى هذه الهيئة يُشترط حفظ القرآن الكريم، وتهتم هذه الهيئة بالحراسة في المدينة والوادة لضمان الأمن للسكان، وتخضع في هذا الصدد إلى نظام خاص إذ تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

2-4-1- إمسوردان من الدرجة الأولى:

وتتكون من الرجال المسنين الذين يقومون بتسيير وتنظيم الشباب في الدرجات الأخرى، وتوزيع المهام عليهم كالحراسة في الوادة والمدينة وكذا تنظيف المساجد وما جاورها والمصليات الجنائزية والمقابر.

2-4-2- إمسوردان من الدرجة الثانية:

يلقبون أيضاً بالوسطاء، ويتكون هذا القسم من الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين (20 و50 سنة)، وتوكل إليهم مهمة تنظيف الأماكن الدينية وملحقاتها، كما يقومون بنقل الأحجار التي تستخدم في عملية التنف، ويكلفون من طرف الوكيل بتوزيع الأوقاف (للحم والخبز والتمر والكسكس...) في المساجد أو في المصليات الجنائزية، ويشاركون طبعاً في الحراسة الليلية في الوادة والمدينة.

2-4-3- إمسوردان من الدرجة الثالثة:

ويتكون من الشباب الذين لا توكل إليهم أية مهمة، بل يسمح لهم فقط بالمشاركة في قراءة القرآن الكريم في المساجد والمصليات الجنائزية..

وإلى جانب مهمة الحراسة تقوم هيئة إمسوردان بأعمال شغل في الصالح العام، كما أنها تتكفل في حال وقوع خلاف بين أعضاء حلقة العزبة، وذلك لقض النزاع والمصالحة فيما بينهم. لذا إذا استعصى عليهم الأمر ولم يصلوا إلى نتيجة ترضي جميع الأطراف، فإن هيئة إمسوردان

(1) - يوسف الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 32.

تقوم بحلّ هيئة العزّابة الموجودة واستبدالها بهيئة جديدة، ولكن في حالة ما إذا صوتت الأغلبية على هذا الحلّ فقط⁽¹⁾.

2-5- هيئة تمسردين (الغسلات):

إلى جانب حلقة العزّابة الخاصة بالرجال، هناك هيئة العزّابة الخاصة بالنساء في كلّ المدن المزابية، ويُطلق عليها اسم "تمسردين"، وتضمّ الهيئة نساء وارعات وعالمات ذوات حنكة ودراية في الشؤون العائلية، ويتمّ تعيينهن من طرف حلقة العزّابة، وتُختار واحدة من كلّ عشيرة. وتقوم هذه الهيئة بتربية النساء تربية دينية، وتعمل على محاربة البدع والخرافات التي تنفّس داخل المجتمع النسوي، كما تشرف الهيئة على حفلات الأعراس ومراقبة المهور اعتماداً على قرارات حلقة العزّابة. وأهمّ عمل تقوم به هذه الهيئة غسل الأموات من النساء اللاتي لسن في براءة المسلمين، ومن هنا جاءت تسميتهن بالغسلات⁽²⁾.

(1) - C.M. Vigouroux: "la garde de nuit à Ghardaia "In Bull de Liaison Saharienne, N° 9,

le 05 / 1952 ; pp. 11-12.

(2) - بكير بن سعيد أعوش: وادي ميزاب في ظلّ الحضارة الإسلامية: دينياً، ص 109-111.

الفصل الثالث

مساجد مزاب

من ناحية التصميم المعماري

مساجد مزاب من ناحية التخطيط

I- المساجد:

يعدّ المسجد أول منشأة معمارية تُشيد في المدينة الإسلامية، وذلك اقتداء بالرسول ﷺ حين أمر بإقامة أول مبنى، وذلك مباشرة بعد هجرته إلى المدينة المنورة، ومنذ ذلك الحين ظهر المسجد كبناء مستقل تؤدي فيه وظيفة الصلاة، وقد اتبع المسلمون منهاج الرسول ﷺ فأقاموا في كلّ البقاع التي فتحوها مسجداً أو أكثر. وتبرز أهمية المسجد وقيّمته في حياة المسلمين، في تلك الأدوار الهامة التي يؤديها داخل المجتمعات الإسلامية، فبالإضافة إلى وظيفته الأساسية ألا وهي أداء فريضة الصلاة، يبدو المسجد بمثابة مؤسسة تربوية واجتماعية وسياسية وحتى اقتصادية.

1- تعريف المسجد:

المَسْجِدُ بكسر الجيم اسم لمكان السجود و المسجّد بفتحها جبهة الرجل، أين يصيبه السجود و المسجد بكسر الميم الخمرة وهي الحصير الصغير⁽¹⁾.
أما المَسْجِدُ فهو الموضع الذي يُسجد فيه. فحسب الزركشي والزجاج، فالمسجد كلّ موضع يُتعبّد فيه لقوله ﷺ: "وجُعِلَت لي الأرض مسجداً وطهوراً"، وهذا من خصوصيات أمة محمد ﷺ، لأنّ الأمم السابقة كانوا لا يصلّون إلّا في موضع يتيقّنون طهارته، كالبيع اليهودية والكنائس المسيحية. ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من خالقه، فقد اشتق اسم المكان منه، فقليل مَسْجِدٌ ولم يُقال مَزْكَعٌ⁽²⁾.

وأما لفظ الجامع فوصف للمسجد الكبير فيذكر هشام بن عمار أنّ عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لما افتتح البلدان كاتب ولّاه بمصر والبصرة والكوفة يأمرهم أن يتخذوا مسجداً للجماعة، ويتخذوا أيضاً للقبائل مساجد. ويتضح من هذا أنّ الجامع هو المسجد الذي تُقام فيه صلاة الجمعة. وابتداءً من العهد الأموي أصبح المسجد الجامع يشكّل ظاهرة سياسية على جانب كبير من الأهمية، ولذا أصبح كلّ أمير أو عامل من عمال الأقاليم يتخذ المسجد الجامع بمثابة المسجد

(1) - ابن منظور: المصدر السابق، ج : 3، ص : 201- 202.

(2) - سعاد ماهر : مساجد من السيرة النبوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987، ص : 13، 14.

الرسمي للدولة، أي قصر الحكومة بمفهومنا الحديث. وتتجلى لنا مدى أهمية رسالة المسجد السياسية أو الدور السياسي الذي يؤتيه المسجد داخل المجتمع الإسلامي، عندما نعلم أن اسم الخليفة يُنكر في خطب الجمعة لأن عدم ذكره يعني بالضرورة خلعه⁽¹⁾.

2- نشأة المسجد وتطوره :

كانت الصلوات تؤدى جماعيا في السنوات الأولى من الإسلام في كل مكان، ولم يخصص لها مكان معين، فبعد وصول الرسول ﷺ مباشرة إلى المدينة المنورة اشترى أرضا كانت ملكا ليتينيين سهل وسهيل وبالتعاون مع المسلمين شيد فيها الرسول ﷺ أول مسجد في الإسلام⁽²⁾. وتميز التصميم الأولي للمسجد بالبساطة والتشرف في البناء مقارنة بعناصر الديانات السابقة.

وبالنسبة لاختيار الموقع فلم يربط الإسلام بناء المسجد فوق أرض معينة، بل اشترط فقط عنصر الطهارة والشرعية، باعتبار أن أي بقعة فوق هذه الأرض تعدّ مسجدا، ويقول الرسول ﷺ في هذا الصدد "وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا"⁽³⁾.

ويُعدّ مسجد الرسول ﷺ من الجانب المعماري النواة الأولى لعمارة المساجد، وكان يحمل في ثناياه الخطوط المريضة لمنط معماري صار نموذجا يُحتذى به، كما كان إلهاماً لطرز انتشر فيما بعد في كل بقاع العالم الإسلامي، لا سيما في القرون الأولى للهجرة. ويتمثل هذا النمط في الصحن الواسع، وبيت الصلاة ذي أعمدة ودعامات يأتي في مقامة الصحن من جهة القبلة.

وعلى هذا النمط المعماري شُيد مسجد البصرة سنة 14هـ/ 636م، ومسجد الكوفة سنة 17هـ/ 638م⁽⁴⁾.

لقد أذى البحث عن أصول عمارة المسجد وتصميماته إلى نقاش طويل بين مؤرخي الفن، فبعضهم أرجع أصل مخطط المسجد إلى معبد يهودي معروف باسم "دورا أوربوس Daura-Auropos"⁽⁵⁾ إن ما يميز هذا المعبد ببساطة أبعاده، إذ يتكوّن من صحن مستطيل

(1) - سعد ماهر : المرجع السابق، ص : 14.

(2) - Lucien Golvin : La Mosquée..., Institut des Etudes Islamiques d'Alger, Alger 1960, p : 24.

(3) - رؤوف الأنصاري: عمارة المساجد، ط 1، دار النبوغ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1996، ص : 25.

(4) - مرجع نفسه، ص : 35-38.

(5) - دورا الملقبة من طرف اليونانيين بأوروبوس Europos تحمل بقايا أثرها اسم سليلو، توجد فوق مرتفع صخري على سفلة نهر الترات، وقد شُيدت المستعمرة من طرف سليلوس Séléucide عام 300 ق.م. لقد جرت الحفريات في المنطقة بين 1932 - 1933 من طرف د. H. Pearson. ينظر Lucien Golvin ; Op. cit, p : 34.

(10×13م) يتقمّصه قاعة مستطيلة الشكل (7,68×13,65م) التي فُتح في وسط جدارها العرضي تجويفة تحدّد اتجاه القاعة نحو بيت المقدس، وإلى الجانب الأيمن من هذه التجويفة يوجد سلم يتكوّن من أربع درجات يؤدّي إلى درجة خامسة أكبر عرضا وارتفاعا تُستعمل كمكان خاص لرئيس المجتمع اليهودي⁽¹⁾. وأما الصحن هنا فتحيط به أروقة من ثلاث الجهات.

لا نستبعد الفكرة التي تعتبر مخطط دورا أوربوس Daura-Auropos مصدر إلهام بالنسبة للمعماري المسلم في بناء المسجد. ولكن هناك اختلاف بين المخططين، يتمثل في عدم وجود أية ركائز داخل قاعة دورا أوربوس، كما أن المسجد لا يحتوي على تلك الدكة الحجرية التي تجانب كل جدران القاعة لجلوس المصلّين.

وهناك آراء أخرى ترجع مصدر مخطط المسجد إلى الكنيسة، ولا سيما من ناحية تقسيم بيت الصلاة إلى بلاطات، وظهور المجاز القاطع أو ما يسمّى بالبلاطة الوسطى المستعرضة كعنصر معماري بارز في المسجد، ويبدو هذا العنصر هو الأساس في تصميمات الكنائس المسيحية، حيث تنتهي عند حنية كبيرة ذات مخطط نصف دائري⁽²⁾.

لا يمكن رفض هذه الفرضيات التي ترجع أصل المسجد إلى مصدر يهودي أو مسيحي مادام الفن الإسلامي على العموم قد تأثر بكل فنون البلدان التي فتحها المسلمون، فإضافة إلى تأثره بالفن الهلنستي والبيزنطي، فقد تأثر أيضا بالفن الساساني والقبطي والقوطي وغيرها من الفنون المختلفة. فكانت بذلك عمارة كل المناطق التي فتحها المسلمون مصدر إلهام بالنسبة للمهندس المعماري المسلم. ولكن ما قام به المسلمون هو صقل هذه الفنون وتهذيبها وطبعها بطابع الدين الإسلامي الحنيف، ممّا أعطى أنماطا وطرزا معمارية مختلفة تماما وبعبدة كل البعد عن المعبد اليهودي والكنيسة المسيحية رغم ببساطة البناء.

ولمكانة وأهمية المسجد النبوي الشريف في وضع أسس طراز المساجد ذات الأعمدة والدعامات، لا بدّ لنا من إعطاء فكرة ولو وجيزة عن تصميمه. فالمسجد النبوي الشريف كان يمتاز بالبساطة والتشرف اللذين يمثلان جوهر العقيدة الإسلامية. وكان مخطط المسجد مربع الشكل (100×100م)، وتحدّد فضاءاته جدران من اللبن (الطوب) ذات أسس

(1) - Lucien Golvin ; Op. cit, p : 34 - 35.

(2) - Ulya Vogt Göknil : Grands Courants de l'Architecture Islamique, Mosquée, Trad : F et B Wauthier - Wurmser, Chêne, Lausanne 1975, p : 38.

حجرية. وبلغ ارتفاع جدرانه الخارجية سبعة أذرع، وقد أُقيم في جهته الشمالية الغربية فضاء يمثل بيت الصلاة، وكان هذا الفضاء مغطى بسقف مسطح يدخل في بنائه سقف النخيل وكُسي من الخارج بطبقة طينية، ويحمل ثقل السقف أعمدة من جنود النخيل والتي قامت بتقسيم بيت الصلاة إلى فضاءات يطلق عليها اسم: البلاطات. كما شُيّدت في الجهة الجنوبية الشرقية تسع غرف تفتتح نحو الصحن، واستعملت كمسكن للرسول ﷺ وزوجاته⁽¹⁾. وكان للمسجد ثلاثة مداخل متعامدة، وفي السنة التاسعة للهجرة أُضيف إليه منبر ذو ثلاث درجات.

قد عرف هذا المسجد عدة توسعات في فترات متلاحقة، لاسيما في عهد ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة المنورة، كما تم إصلاحه وتجديده في العهد العباسي والمملوكي (886هـ / 1481م) ثم في العهد العثماني، وآخر ترميم شهده المسجد كان في سنة 1393هـ / 1973م⁽²⁾.

وهكذا نرى أن المسجد ظهر كمبنى أصلي لم يُقَدِّم بُنائًا المباني الدينية السابقة، ويمكن أن يُرجع هذا التميز إلى عامل المناخ، إذ أن الحرارة الشديدة وقلة الأمطار جعلت الرسول ﷺ يختص فضاء (بيت الصلاة) مغطى مفتوحا نحو صحن مكشوف لأداء الصلاة في ظروف ملائمة، وقد أخذ هذا الصحن حيزا كبيرا من المساحة الإجمالية للمسجد، وذلك بهدف تهوية وإضاءة الفضاء المغطى (بيت الصلاة) وضمان بقاء المصلين في منأى عن حرارة الشمس ولهيبها.

ولقد أُضيف إلى المسجد الأولي عناصر معمارية أخرى جديدة، ستصبح بمرور الزمن عناصر أساسية وضرورية في كل المساجد، وقد كان المنبر أول عنصر يُضاف إلى بيت الصلاة⁽³⁾.

وفي البداية كان الرسول ﷺ يستند إلى جذع نخلة أثناء إلقاء خطبة إلى الجمع فأوعز إليه تميم الذاري ليصنع منبرا كما هو الشأن في كنائس الشام، فبنى الرسول ﷺ الفكرة ثم أمر بصنع منبر خشبي بثلاث درجات⁽⁴⁾. ومنذ ذلك الحين صار المسلمون يتبعون هذا التقليد في كل المساجد، بحيث أصبح المنبر عنصرا معماريا مميزا داخل بيوت الصلاة، لذا فقد أعطى له

(1) - أبو صالح الأثري: المرجع السابق، ص: 141 - 142.

(2) - سعاد ماهر: المرجع السابق، ص: 90 - 105.

(3) - Elie Lambert : l'Art Musulman d'Occident des Origines à la Fin du XV^e Siècle, Société d'Édition d'Enseignement, Paris 1966, p: 28

(4) - عفيف بهسلي: الفن العربي الإسلامي في بداية تكونه، دار الفكر، القاهرة دت، ص: 14.

المعماري المسلم أهمية بالغة وعناية خاصة، فصُنِعَ من مواد مختلفة (الخشب والحجر والرخام). كما أصبح مجالا حيويا للفنان المسلم لإظهار براعته وتفوقه في مجال فن النقش والزخرفة. وقد أُضيف إلى المنبر عدد من الدرجات في العهود اللاحقة.

بعد أن كان جدار القبلة يبين اتجاه الكعبة في المساجد الأولى، فقد أُضيف في أواخر القرن الأول الهجري عنصر معماري جديد استخدم بالإضافة إلى أنه فضاء لوقوف الإمام لتعيين جهة القبلة بوضوح، ويتعلق الأمر بعنصر المحراب الذي جاء في شكل تجويف تتوسط جدار القبلة تقع على يسار المنبر، ويقف عندها الإمام أثناء أداء الصلوات المختلفة، وقد أعطى المعماري المسلم عناية خاصة وأهمية بالغة لهذا العنصر الذي أصبح وجوده ضروريا عند بناء أي مسجد أو حتى مصلى، كما صار محورا حقيقيا ل إلى أن الصلوات الخمس لا تقام في هذه المباني، اقتداء بالأحاديث النبوية التي تحرم اتخاذ لسميرية داخل المباني الدينية⁽¹⁾.

ويتشيد الجامع الأموي بدمشق من طرف الوليد بن عبد الملك بن مروان سنة 78هـ / 697م⁽²⁾ بدأت عمارة المسجد تعرف تطورات هامة على مستوى التصميم الداخلي أو بإضافة عناصر معمارية جديدة.

وقد تبلورت أسس طراز المساجد ذات الأعمدة والدعامات في جامع الأموي بدمشق، فتوسّع بيت الصلاة عرضيا، وبرز المجاز القاطع كعنصر يقوم بقطع وتيرة تواصل تلك الأساكيب الثلاثة التي تولدت من انتظام الأعمدة عرضيا، وهكذا قُتِمَ المجاز القاطع بيت الصلاة إلى قسمين متساويين.

وتتقدّم المجاز القاطع من جهة المحراب قبة (قبة النسر) التي أصبحت هي الأخرى عنصرا معماريا مميزا في المساجد ذات الأعمدة والدعامات، واصطلح عليها تسمية "قبة أمام المحراب"⁽³⁾. وإضافة إلى ذلك أصبح الصحن محاطا برواق من كل الجهات باستثناء جهة القبلة.

وعلى نمط الجامع الأموي بدمشق شُيّدت مساجد عديدة في مشارق الدولة الإسلامية ومغاربها نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الجامع الكبير بسمامراء (234 - 238هـ / 848 - 852م)، وجامع ابن طولون (263 - 266هـ / 876 - 879م)

(1) - Elie Lambert : Op.cit, pp: 30- 32.

(2) - Ibid, p p: 34 - 35

(3) - Robert Irwin : Le Monde Islamique, Trad:Armand Canal; Hong Kong 1997, p: 64.

بالتقاهرة حيث نلسم ليشكلوا جنيدا يتمثل في ما يسمى بالزيادة⁽¹⁾، وجامع الأزهر (359-361هـ / 970-973م) في القاهرة. وقد ظهر هذا الطراز في المغرب الإسلامي والأندلس بقوة، ليصبح النمط السائد في المنطقة، وتبرز ملامحه لأول مرة بالمغرب الإسلامي في الجامع الكبير بالقيروان سنة 50-55هـ / 670-675م، ثم ينتقل الطراز إلى جامع قرطبة (169هـ / 785م)⁽²⁾. وقد طُبق نفس الطراز في المساجد المرابطية كالجامع الكبير بتلمسان (530هـ / 1136م) واستمر هذا النمط سائدا في كامل مناطق العالم الإسلامي إلى بداية القرن الرابع عشر الميلادي، ولم يخرج عن هذا النمط سوى بعض مساجد إيران وتركيا ابتداء من العهد السلجوقي.

لقد طُبق السلاجقة في إيران طرازا معماريا جديدا في تصميم المساجد، ويتعلق الأمر باستخدام الإيوان كعنصر معماري بارز. إذ يرتفع في وسط كل رواق من أروقة الصحن الأربعة إيوان ضخم، منفتح نحو الصحن بعقد منبسط، وأخذ إيوان القبلة بيتا للصلاة، وقد طُبق هذا التصميم لأول مرة في مسجد الجمعة بأصفهان الذي شُيّد بأمر من السلطان ملكشاه السلجوقي سنة 476هـ / 1080م⁽³⁾ أو قبل ذلك بقليل، وأصبح نموذجا تقليديا في مساجد إيران وآسيا الصغرى عامة. وبلغ هذا الطراز ذروته وكماله في مسجد شاه عباس بأصفهان (1021-1040هـ / 1612-1630م)⁽⁴⁾، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مصر في عهد المماليك، ويتضح ذلك جليا في جامع قايتباي (890هـ / 1485م)⁽⁵⁾.

لقد أراد المعماري العثماني من خلال تجاربه المتواصلة التقليل من عدد الأعمدة والدعامات بحثا عن وحدة مكانية داخل بيت الصلاة، إذ تعدّ هذه الركائز في نظره معرقة للوحدة المكانية التي تؤدي إلى وحدة صفوف المصلين. وانطلاقا من هذه الفكرة أخذ يبحث عن تصميم جديد لبيت الصلاة، فتمكن من تحقيق هذه الفكرة باستعمال القبة الضخمة لتغطية بيت الصلاة، وبعد تجارب عديدة في مسجد ذي ثلاث شرفات (851هـ / 1447م) بأدرنة، وجامع محمد

(1) - الزيادة عبارة عن فضاء يحيط بالجامع من كل الجهات باستثناء جهة القبلة، يتمثل دوره في فصل الجامع عن العالم الخارجي، وبعبارة أخرى يعدّ الحدّ الفاصل بين المكنس والمكتس.

(2) - Henri Stierlin : Op.cit, p p 64- 79.

(3) - Ara Altun : Ortaçağ Türk Mimarısının Anahtarı, için bir Özet, Arkeoloji ve Sanat Yayinevi, İstanbul 1988, pp 73-74.

(4) - G. Marçais : Op.cit, pp : 143 - 144.

(5) - ثروت عكاشة : المرجع السابق، ص : 108.

الفتاح (867-875هـ / 1462-1470م) وجامع بايزيد (912هـ / 1506م) وجامع السليمانية (965هـ / 1557م) باستانبول. وأخيرا توصل المعماري الفنّان بشا من تجسيد التصميم الأنسب لهذا الطراز في جامع السليمانية بأدرنة (980هـ / 1572م)⁽¹⁾.

لابدّ من الإشارة إلى طراز معماري رابع فريد من نوعه طُبق في مسجد قبة الصخرة الذي بُني بأمر من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة 72هـ / 691م⁽²⁾. ويُعدّ النموذج الوحيد في العالم الإسلامي بأسره، إذ عمد المعماري المسلم هنا إلى تطبيق تصميم ذي مخطط منمن الشكل يعطيه قبة نصف كروية، وقد ارتكزت القبة على مجموعة من الأعمدة والدعامات.

3- مساجد مزاب:

تشكّل كل مدينة من مدن مزاب من مجموعة من المنشآت المعمارية العامة التي تدخل في تركيبة النسيج العمراني للمدينة، ويأتي في مقدّمة هذه العناصر المسجد الذي يأخذ موقعه في أعلى قمة الهضبة، وتنتزح من حواله المباني الأخرى ذات الوظائف المتنوعة، ويحاط الكل بسور تتخلله مجموعة من الأبراج والمداخل.

لا تختلف مساجد مزاب على العموم في جوهرها وفي تصميماتها عن المساجد الإسلامية، ولكنها تفرّد ببعض المميزات، إذ كان للبيئة المحلية أثرها الكبير في ذلك، بحيث ساهمت بقوة في تبلور وتشكّل هذه العمارة. ولكي يتسنى لهذه الدراسة أن خروج بمجموعة من الخصائص المعمارية التي تميّز هذه المنشآت المعمارية الدينية بمزاب عن غيرها، اخترنا مجموعة من المساجد وفق أساسين: الاختلاف في زمن تأسيسها، وفي مخططها المعماري.

3-1- تاريخ مساجد مزاب:

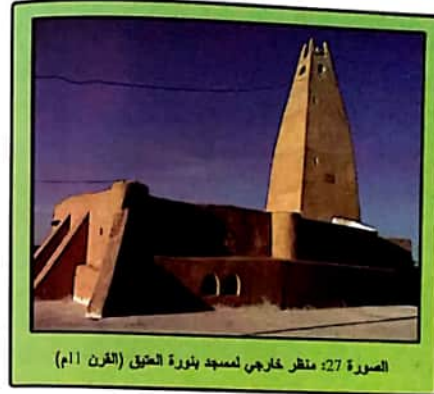
شيدت مساجد وادي مزاب في الفترة التاريخية الممتدة ما بين القرن الخامس والقرن العاشر الهجريين.

3-1-1- مسجد بنورة القديم:

ويعد مسجد مدينة بنورة القديم أقدم النماذج، حيث شُيّد خلال القرن الحادي عشر الميلادي، ويبدو أنّها البناية الوحيدة التي نجت وسلمت من التخريب والدمار الذي تعرّض له القصر في

(1) - Baelhadj Marouf : Op.cit, pp : 13 - 14.

(2) - Henri Stierlin Op.cit, p 28 - 36.



الصورة 27: منظر خارجي لمسجد بنورة العتيق (القرن 11م)

القرن 17م، وذلك جراء ما تعرض له القصر من النمار والتخريب من قبل التحالف الفدرالي المزابي، كما سبق وأن ذكرنا سابقاً أثناء حديثنا عن تاريخ مدينة بنورة⁽¹⁾. وعلى هذا فيعدّ النموذج الأصلي لمخطط المساجد الأولى التي انتشرت في كامل المدن المزابية السبع قبل أن تتعرض للإضافات المتتالية. ولم يبق من هذا

المسجد حالياً سوى قاعة الصلاة والمنذنة وبيت الوضوء واندثر الصحن.

وفي حالة ما إذا أخذنا بعين الاعتبار ذلك النصّ الكتابي الذي تحمله اللوحة الحجرية وسلمنا بحقيقة ما جاء فيه (الصورة 99)، فيمكن القول أنّ المبنى شُيّد في سنة 750هـ/ 1349م. ولكن لا بد من وضع علامة استفهام حول هذا التاريخ في ما إذا كان يعكس فعلاً تاريخ تأسيس المسجد؟ إننا لا نشكّ بتاتاً في أنّ لهذا النصّ قيمة تاريخية بالنسبة للمسار التاريخي لهذا المبنى، ولكنه لا يمثل في رأينا التاريخ التأسيسي للمسجد، بل يشير فقط إلى تاريخ تنفيذ الكتابة على اللوحة الحجرية، ففي اعتقادنا أنّ المسجد قديم قدم مدينة بنورة وشُيّد مع تأسيسها أي في سنة 430-458هـ/ 1046-1065م⁽²⁾.

3-1-2- مسجد غرداية العتيق:

شُيّد المسجد في منتصف القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي، وإذا أخذنا بالرواية الشعبية التي ترجعه إلى تاريخ تأسيس مدينة غرداية⁽³⁾ باعتباره أقدم مسجد في المدينة من جهة، ومن جهة أخرى فالمسجد يُعدّ أوّل منشأة شُيّد في المدينة الإسلامية،

(1) - تناولنا قضية تخريب القصر القديم في مدينة بنورة في الفصل الأول بنظر الفصل: الأول، ص: 55-56.

(2) - لقد تلّوّاها إلى تأسيس مدينة بنورة سابقاً وللمودة إلى هذه القضية بنظر الفصل الثاني ص: 50.

(3) - لقد سبق الحديث عن تأسيس مدينة غرداية في الفصل الأول، للاستزادة أكثر يرجى العودة إلى ص: 56-58.



الصورة 28: منظر خارجي لمسجد غرداية العتيق

وبناء على هذا يمكن القول إنّهُ شُيّد مباشرة بعد استقرار كلّ من إبراهيم بن يوسف المعروف بـ "بابه أولجمة" وباعيسى أو علّوان بالمنطقة أي سنة 447هـ/ 1053م، وفعلًا فالرواية الشعبية ترجع بناء المسجد الأوّل إلى الشيخ باعيسى أو علّوان.

لقد مرّ المسجد على عدّة مراحل توسّعية كان آخرها سنة

1998م، فأوّل توسّع شهده المسجد حسب الذاكرة الشعبية كان في عهد الشيخ عتيّ سعيد الجربي فيما بين 889-898هـ/ 1484-1492م⁽¹⁾. ولكن التوسّعات المتتالية الأخرى تبقى مجهولة التاريخ لدينا، لعدم تمكّنا من الاتّصال بالوثائق التي من خلالها يمكن تحديد تاريخ كلّ توسّع بشكل دقيق، ونحن على يقين بأنّ هناك وثائق تثبّت تلك التوسّعات، فمن غير المعقول أن يُضَمّ فضاء مجاور للمسجد دون وثيقة تؤكّد شراؤه أو منحه كهبة على شكل وقف للمسجد، وغالباً ما يكون الفضاء المراد ضمّه عبارة عن مسكن مجاور للمسجد، وفي حالات قليلة يكون الشارع المحاذي له، وبعد ذلك يتمّ ضمّ تلك الفضاءات إلى الكتلة المعمارية القديمة. وفي ظلّ هذه الضبابية، وصعوبة الحصول على الوثائق اعتمدنا في محاولة تحديد تواريخ الإضافات إمّا على تقنية البناء وطراز العناصر المعمارية أو على ما احتفت به الذاكرة الشعبية.

تقوم دعلمات وأعمدة ذات أخاديد بحمل سقف هذه الأروقة. ولكن اعتماداً على صورة قديمة لمنظر الصحن وردت في كتاب الحضارة العمرانية في مزاب، وتعود حسب تقديرنا إلى بداية القرن العشرين الميلادي⁽²⁾ (الصورة 29)، ويتبين من خلالها أنّ الصحن كان محاطاً

(1) - لقد حسبنا التوسّع الأوّل في الفترة الممتدة فيما بين 889-898هـ. اعتماداً على أنّ تاريخ قدوم الشيخ عتيّ سعيد الجربي إلى منطقة وادي مزاب كان سنة 889هـ وولفته كانت في سنة 898هـ فلا بدّ أنّ التوسّع الذي أجراه في المسجد كان خلال فترة استقراره بالمنطقة. وحول تاريخ الشيخ عتيّ سعيد، بنظر الفصل الثالث ص: 163-166.

(2) - Marcel Mercier : Op.cit, p : 80.



برواق واحد من كل الجهات باستثناء جهة القبلة، كما يبدو من خلال نفس الصورة أن الأعمدة ذات الأخاديد (الأعمدة المقناة) ليست أصلية، بل أضيفت بعد السنوات العشرين من القرن الماضي أو بعدها بقليل، وذلك أثناء إجراء توسع في المسجد. ومما يؤكد ما اتجهنا إليه هنا كون الأعمدة لم تستعمل بناتنا كركائز في العمارة الدينيّة الإيباضية بالمنطقة، واعتماداً كذلك على نفس الصورة المأخوذة في العشرينيات يمكن أن نحدّد بوضوح أثر توسع تمّ في اعتقادنا خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين، ويتمثل في الأروقة المضافة إلى المجنبتين. إذا فالأعمدة تتلّنا بشكل واضح على الحدود القديمة للصحن ولرواقه.

لقد تمّ توسيع بيت الصلاة للمرة الأولى حسب الذاكرة الشعبية في عهد الشيخ عتي سعيد التجريبي⁽¹⁾، وكانت الزيادة نحو الجهة الجنوبية الشرقية، إذ أضيف إلى الجزء القديم خمسة أساكيب موازية لجدار القبلة وسبع بلاطات عمودية عليه. ومما يلاحظ هنا أن المحراب (الشكل 7) قد بُني بحيث يتوسط تماماً الإضافة، وأصبح على محور المحراب الأيمن للنواة الأولى.

لقد تمّ توسيع بيت الصلاة للمرة الثانية نحو الجهة الجنوبية الغربية في فترة تاريخية مجهولة، وذلك بإضافة ثلاثة أساكيب موازية لجدار القبلة، كما أضيف أسكوبان آخران إلى نفس الجهة في زمن لاحق، ويظهر ذلك جلياً من خلال تقنية بناء سقفهما، والتي تختلف في بناتها عن تقنية المقوف الأخرى، حيث استعملت في هذا الفضاء أقبية نصف برميلية، بدلاً من السقوف المسطحة والأقبية المقاطعة والقباب المفطحة المضمرة في السقف. ويبدو أنه

(1) - متّكى ترجمة هذه الشخصية لاحقاً في الفصل الرابع عندما نتناول المسأل الجنائزي الذي يحمل اسمه.

احتفظ بالفضاء المعماري (لعله مسكن) الذي ضمّ إلى كتلة المسجد المعمارية دون إجراء أي تعديل عليه.

وفي مرحلة تاريخية غير معروفة توسّع أيضاً بيت الصلاة في قسمها القديم (الشكل 7) نحو الجهة الشمالية الشرقية على غرار الصحن، وذلك على حساب الشارع المجاور للمسجد.

وفي سنة 1986م وتمّ توسيع بيت الصلاة مرة أخرى بزيادة أسكوب واحد نحو الناحية الجنوبية الشرقية أي نحو القبلة لتغطّي جزءاً من الشارع المحاذي للمسجد من تلك الجهة.

وأخيراً ففي نهاية الثمانينيات تمّ توسيع بيت الصلاة في الجزء الذي يعود إلى عهد الشيخ عتي سعيد بحيث أضيفت أربع بلاطات موازية لجدار القبلة نحو الجهة الشمالية الشرقية. كما وتمّ الجزء الذي يمثل النواة الأولى نحو الجهة الجنوبية الغربية. وما زالت هناك إضافات حديثة العهد في نهاية التسعينيات.

3-1-3- مسجد بني يزقن:

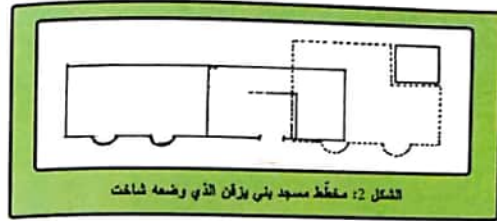
إنّ هذا المسجد لم يتناول بالبحث والدراسة على الرغم من أهميته، ولكن هذا لم يمنع من وجود بعض الإشارات الخفيفة في بعض الدراسات التي تطرّقت إلى العمارة الدينية بالمنطقة، إلا أنّها كانت خاطئة في وصفها وتحليلها، نظراً لاعتمادها على دراسات جوزيف شاخت Joseph Schacht⁽¹⁾ الذي يبدو من خلال دراسته التي تضمّ مخطّطاً للمسجد (الشكل 2)، أنّه لم يقم بأية زيارة للمبنى، وإنما اعتمد على ما نقلته إليه أسنة الأهالي.



يحتلّ المسجد مكاناً استراتيجياً في أعلى قمة الهضبة (الصورة 30) التي تكتزج فوقها مباني المدينة، على غرار المساجد الإيباضية الأخرى في المنطقة، وذلك انطلاقاً من قاعدة دينية تجعل من المسجد المكان المقدّس الذي يشرف على كلّ المباني الأخرى ولكونه مقرّاً للسلطة الروحية (حلقة المزابة) في المدينة، فلا بدّ إذ أن يمسك سلطته حتى معمارياً.

(1) - Joseph Schacht: "Notes Mozabites" In Andalus, N° 22, 1957, pp 5.

لقد تمّ تشييد المسجد العتيق مباشرة بعد تشكيل الاتحاد فيما بين القصور الخمسة (بوكياو وأقنوناوي وترشين وموركي وتافلات) المتناثرة



الشكل 2: مخطط مسجد بني يزقن الذي وضعه شامت

- حسب ما أشرنا إلى ذلك في الفصل الثاني- وتأسيس مدينة بني يزقن وذلك فيما بين سنة 720 - 748 هـ / 1321 - 1347 م⁽¹⁾، إذ بعد هجرة سكان القرى الخمس إلى قصر تافلات⁽²⁾ الذي شكّل النواة الأولى للمدينة الجديدة ضاحق مسجدها - مازالت آثاره باقية إلى يومنا هذا - بالمصلين، فكان من الضروري بناء مسجد أكبر حجماً، بحيث يصبح بإمكانه استيعاب المتضمنين الجدد، فاختاروا لذلك موقعا مناسباً لا يبعد عن تافلات ومسجده إلا بخمسين متراً تقريباً، ومن المؤكد أنّ هذا المبنى ظهر إلى الوجود بهذه الطريقة.



الصورة 31: راقم منظر لمسجد بني يزقن من الداخل

لقد مرّ المسجد الكبير بعدة ترميمات تماثياً مع ترميمات المدينة، فربما كان التوسّع يتمّ في المسجد كلّما توسّعت المدينة، أي كلّما ازداد عدد السكان سواء بالنمو الديموغرافي أو بالهجرات المتتالية نحو المدينة خلال فترات تاريخية مختلفة، كلّما اضطرّ أهالي المدينة إلى توسيع المسجد. ولكن ما لفت انتباهنا أنّ الإضافات

(1) - نعتقد أنّ بناء المسجد الحالي واكب تاريخ تأسيس مدينة بني يزقن، وذلك لشق مسجد تافلات القديم واكتناظته بالمسكين بعد عملية توحيد القصور الخمسة.

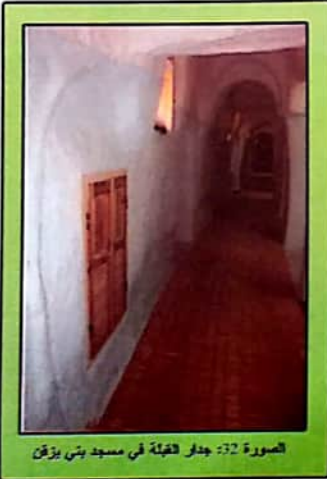
(2) - سبق الحديث عن هذا القصر عندما تطرّقنا إلى القصور المنتشرة في منطقة وادي مزاب، باعتبار أنّ هذا القصر اندمج مع المدينة الجديدة (بني يزقن) وأصبح حياً من أحيائه.

المتتالية لم تؤثّر في أصالة المبنى، ولم تعرّض الأجزاء القديمة للضرر والتشويه، بل بالعكس فقد حفظ على أصالة العناصر المعمارية القديمة مثل المحراب، وهذا ما سمح لنا بالتعرّف على مراحل التوسّعات وتحديثها، وذلك اعتماداً على تقنية البناء، وعلى أنواع العقود وتعدّد المحارب، وعلى هذا تمكّنا من تمييز أربع توسّعات كان آخرها سنة 1892 م.

يتّبع المسجد على مساحة إجمالية تقدر بحوالي 1600 م²، ويتألّف من طابق أرضي وسطح.

يمكن من خلال أنواع العقود وكذا تقنيات البناء تمييز التوسّعات التي أجريت في بيت الصلاة، فالنواة الأولى التي نعتقد أنّها تعود إلى فترة إنشاء مدينة بني يزقن أي خلال القرن الرابع عشر الميلادي، تحدّد في رأينا صفوف من العقود الحنوية، وتتألّف من سبعة أسكيب موازية لجدار القبلة، وثماني بلاطات عمودية على جدار القبلة، ويعدّ المحراب الأيمن الذي يتوسط هذا الجزء، هو الأصلي في المسجد

الأول (الصورة: 32). وقد تمّ توسيع المسجد الأول نحو الجهة الشمالية الشرقية في فترة لم نتمكن من تحديد تاريخها، نظراً لعدم تمكّنا من الحصول على الوثائق التي تثبت ذلك، ولكن اعتماداً على القرائن التاريخية التي سنبرزها في لاحقاً في هذه الدراسة⁽¹⁾، يمكن القول أنّ توسيع المسجد قد تمّ في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر أو بداية القرن السادس عشر الميلادي، حيث أضيفت نحو الجهة الشمالية الشرقية خمس بلاطات عمودية على جدار القبلة، ثمّ نحو الجهة الشمالية الغربية، وذلك بإضافة أسكوبين موازيين لجدار القبلة، ويدخل ضمن هذا التوسّع أيضاً المجلسين القرآني والميراث. ولما التوسّع الثاني فقد



الصورة 32: جدار القبلة في مسجد بني يزقن

(1) - إنّ القرائن التاريخية التي سنبرزها في الفصل الرابع تتعلّق بظاهرة تجلّو محرابين وحول هذا الموضوع ينظر الفصل الرابع من الدراسة، ص: 224 - 226.

كان في اتجاه الشمالي الغربي والجنوب الغربي، ويبدو أن هذه الإضافة تمت حسب ما تشير إليه مخطوطة يوسف بن حمو بن عدون في عهد الشيخ عبد العزيز الثميني⁽¹⁾ أي ما بين 1201-1223هـ/ 1786-1808م، وبعد التوسع الثالث والأخير الذي أجري في شهر محرم من سنة 1229هـ/ 1892م⁽²⁾ أكبر توسع عرفه مسجد بني يزقن، وكان نحو الجهة الجنوبية الغربية.

إلى جانب تلك التوسعات أجريت على المسجد بعض التعديلات سواء على مستوى بيت الصلاة أو على مستوى الصحن في سنوات متلاحقة كان آخرها في نهاية الثمانينيات من القرن العشرين.

3- 1- 4- مسجد القرارة

يحثل المسجد العتيق كما هو الحال بالنسبة لكل مساجد مزاب قمة الهضبة التي تأسست فوقها مدينة القرارة، وهذا ما جعله يشرف مع منئذته الهرمية الشكل على كل المباني الأخرى للمدينة.

يترتب المسجد بكل إضافاته التي طرأت عليه في فترات زمنية مختلفة إلى غاية سنة 1998م على مساحة إجمالية تقدر بحوالي 2630,80 م².

شُيّد المسجد مع تأسيس المدينة سنة 1040هـ/ 1630م،



الصورة 33: منظر للمسجد العتيق بالقرارة

(1) - عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد العزيز الثميني المشهور باسم "خياه الدين"، عالم من كبار علماء مدينة بني يزقن ولد بها سنة 1130هـ/ 1718م. وقد أخذ مبادئ العلم في مسقط رأسه، ثم سافر إلى ورفلة لإدارة أملاك والده حتى بلغ سن الثلاثين، ويعود أبي زكرياء بن يحيى بن صالح الأملاني إلى مزاب رجع إلى التحصيل العلمي ولازم حلقته إلى أن بلغ في علوم اللغة العربية والشريعة والمنطق، وكالغ إلى جانب شيخه في سبيل إصلاح مجتمعه، وصار على رأس حلقة عزابة ببني يزقن سنة 1201هـ/ 1786م، وقد مارس مهامه لفترة من الزمن ثم اعتزل للتفرغ للتدريس والفتوى والتأليف، ولازم داره مدة خمس عشرة سنة وتوفي في 11 رجب 1223هـ/ 1808م تخرج من حلقات الشيخ عدد من العلماء منهم إبراهيم بيجمان ويوسف بن حمو بن عدون وقد أثنى المكتبة بمؤلفات عديدة من أهمها كتاب النبل وثغاه الطليل.

ينظر جمعية التراث: معجم أعلام الإبلانية مج 3، المطبعة العربية، غرداية 1999، ص: 532-536.

(2) - يوسف بن حمو بن عدون: المصدر السابق، ص: 5.

ويشير أبو اليقظان أن سكان القرارة الأوائل لما استقرّوا بالمدينة الجديدة، قاموا بحفر بئر عميقة نسبت إلى ابن علف ثم اختطوا بجانبها مسجد المدينة⁽¹⁾. وعلى الرغم من انعدام الوثائق التي يمكن من خلالها تحديد الإضافات والتوسعات المتتالية على المسجد، فإن اعتمادنا كان على أساس أنماط وتقنيات بناء العناصر المعمارية كالمحراب والدعامات والعقود، وانطلاقاً من هذا يمكن أن نحدد أربع توسعات أجريت على مستوى بيت الصلاة والصحن.

لقد تعرّض بيت الصلاة ذو المخطط المستطيل الشكل على مساحة تقدر بحوالي 1753,43م²، وتنقسم إلى ثلاثة وعشرين أسكوباً موازياً لجدار القبلة وتسع بلاطات عمودية عليه، مما يعطي منظراً متميّزاً، بحيث يصبح المرء مندهشاً أمام ذلك العدد اللامتناهي من الدعامات، ويحمن نفسه وكأنه داخل غابة كثيفة أساسها عنصر الدعامات. وتقوم البلاطة الوسطى المستعرضة أو ما يطلق عليه اسم المجاز القاطع (الشكل 8، والصورة 34) بتقسيم بيت الصلاة إلى قسمين.



الصورة 34: البلاطة الوسطى المستعرضة في مسجد القرارة

لقد تعرّض بيت الصلاة لعدة إضافات حدّناها اعتماداً على تقنيّة البناء والعناصر المعمارية. واستناداً على عنصر المحراب القديم ونمط العقود (الصورة رقم: 31) تمكّنا من تحديد معالم النواة الأولى لبيت الصلاة والتي تقع في الجهة اليسرى المواجهة للصحن. وتتألف من سبعة أسكوب موازية لجدار القبلة وأربع بلاطات عمودية عليه. وقد تمّ توسيع بيت الصلاة بعد ذلك في فترة زمنية

مجهولة التاريخ، حيث أضيف إلى النواة الأولى أسكوبان نحو الجهة الجنوبية الشرقية وبلاطة واحدة من الجهتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية (الشكل 8). كما توسّع بيت الصلاة أيضاً في بداية القرن العشرين - فيما يبدو - نحو الجهة الجنوبية الغربية، وذلك بإضافة أربع بلاطات. وقد أشار أبو اليقظان إلى هذه الإضافة لكن دون تحديد الموقع في الأبيات الآتية :

(1) - إبراهيم أبو اليقظان: عنوان الحضارة فيما يتعلق بالحوال بلد القرارة، مخ: ص: 8.

لكن مسجدنا غدا يتطور
فتشارروا في الأمر فاتفقوا على
قاموسا كفرد واحد بالجد في

وأجريت بعد ذلك ثلاث ترميمات في بيت الصلاة، وكان ذلك خلال الفترة التي تولى فيها إبراهيم بيوض رئاسة حلقة العزابة في مدينة القنطرة. وكانت كلها نحو جهة القبلة. وآخر توسع شهده المسجد كان سنة 2001م.

3-2- من ناحية الموقع

يعد المسجد من أهم المباني الدينية في المدينة الإسلامية، لما يؤديه من دور فعال في حياة المجتمع المسلم عامة، من هنا اكتسب المسجد أهميته في منطقة وادي مزاب. فضلا عن دوره الديني كمبنى للعبادة، فإنه يؤدي أيضا في مزاب مهام لا تقل أهمية عن ذلك. إذ يُعدّ مركزا ومقرًا للمسلطة الروحية (حلقة العزابة) ومكانا للقضاء وإصدار الفتوى، وتنظيم حلقات الدرس، وممارسة وظيفة التعليم والتربية، وإلى جانب ذلك فإنه يُعدّ مخزنا حقيقيا لبعض المؤن خاصة التمور والحبوب، يُستند بها في الحالات الصعبة مثل الحروب والمجاعات، ومن هنا فإن المسجد يعتبر القلب النابض للمدينة المزابية، فيبعث فيها الحياة، ويعمل على تأطير المجتمع دينيا واجتماعيا وتربويا وحتى اقتصاديا. وانطلاقا من هذا كله حرص المزابيون على إعطاء المكانة اللائقة للمسجد معماريا، وتجسيد تلك السلطة المعنوية واقعا. لذا فقد اختير له موقعا استراتيجيا مناسباً، فكان أول مبنى يُشيد في المدينة المزابية على غرار المدن الإسلامية، حيث يشير مرسيل مرسيه Marcel Mercier إلى أنه اتصل بمؤلف إياضي مجهول صاحبه يذكر فيه أن بناء مدينة مزابية يكون انطلاقا من اختيار شيخ العزابة لموضع المسجد ثم تخطيط سورها فيبنتي الناس الدور والمرافق الأخرى من حوالى المسجد وصولا إلى السور⁽¹⁾. ويأخذ المسجد موقعه في قمة الهضبة التي تتدرج فيها المنشآت المعمارية الأخرى، ثم يتم بعد ذلك تشييد المساكن والدور والمباني العامة من حوله، بحيث تنتهي كل طرق ومساكن المدينة إلى المسجد.

(1) - أبو الطيّان : المرجع السابق، ص : 36 - 37.

(2) - Marcel Mercier : Op.cit,p : 110.

وانطلاقا من تلك الأهمية احتلت كل مساجد وادي مزاب أعلى نقطة في الهضاب الصخرية التي شيدت فوقها المدن، وكان هذا الاختيار قائما على أساس تأكيد سلطنة المسجد الروحية معماريا، بحيث تشرف على كل المباني الأخرى المحاطة بها، وقد زاد في عظمتها وشموعها تلك المئذنة العالية ذات الشكل الهرمي الناقص والملصقة بها، لتصبح أول ما يبرز للناظر من مباني المدينة المزابية من على بعد كيلومترات، وبهذا أصبح المسجد يجسد فعلا مقولة "الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه" تجسيدا معماريا واقعا وميدانيا.

وحرصا على توحيد كلمة صفوف المجتمع المزابي داخل المدينة الواحدة، وعدم إنشاء أسباب التفرقة فيما بين أفرادها، لم يسمح إياضي وادي مزاب ببناء أكثر من مسجد واحد داخل المدينة الواحدة، لذا فقد لجؤوا في عدة مزار إلى توسيع المسجد بدلا من تشييد مسجد آخر. وتتم عملية التوسيع بضم المساكن المجاورة للمسجد إلى الهيكل العام، بعد شرائها من أصحابها أو بعد تقديمها من طرف ملكها كهدية أو تبرع للمسجد، وتقتضي الضرورة أحيانا إلى توسيع المسجد على حساب الشارع المجاور لها، ويلجأ المزابيون إلى عملية التوسيع كلما اقتضت الضرورة عند ازدياد عدد السكان الذي كان يرتفع باستمرار، وذلك إما بالنمو الديموغرافي أو إثر الهجرات المتتالية نحو المدينة.

ولكن ذلك لم يمنع من ظهور نشوء عن القاعدة بسبب نشوب بعض الانقسامات والنزاعات داخل المجتمعات المزابية والتي سبق وأن أشرنا إليها، كما هو الشأن بالنسبة لمدينة العطف ومدينة بنورة اللتان تضمّان مسجدين بدلا من مسجد واحد⁽¹⁾.

لم نثر في المساجد المزابية على أثر اللوحات التذكارية التي تحتوي على نصوص يفترض أن تحمل في شأياها تواريخ بناء العمار، ويبدو أن المعماري المزابي لم يعط أي اهتمام لهذا الجانب وفضل التفاضل عنه، وهذا ما شكّل صعوبة كبيرة في تحديد تواريخ إنشاء هذه المساجد، وكذا التوسعات المتلاحقة التي أجريت عليها.

3-4- من ناحية التصميم :

اتّبعَت المساجد الإباضية بمنطقة وادي مزاب في تصميمها مخططا غير منتظم الشكل (الشكل: 5، 6، 7، 8)، وربما كانت تلك التوسعات المتتالية التي تتم بعد شراء أو تقبل (هبة بصفة وقف) مسكن أو مجموعة مساكن ثم ضمّها إلى الهيكل العام للمسجد في فترات تاريخية

(1) - Joseph Schacht : Op. cit, pp : 4 - 5.

مختلفة سببا رئيسيا في عدم إعطاء شكل منتظم لتصميم المسجد، ومن هنا يمكن الجزم أن الفضاءات المضافة إلى نواة المسجد الأولى هي التي حدت فعلا شكل المخطط النهائي للمسجد، فإذا دققنا النظر في مخطط النواة الأولى لكل مسجد نلاحظ أنها اتبعت نوعا ما شكلا هندسيا مقبولا، فكانت على العموم ذات مخطط مستطيل الشكل.

لم تخرج المساجد المزبانية عن النمط المعماري للمساجد الإسلامية الأولى، سواء في المشرق أو المغرب الإسلامي، إذ إن احتواءها على ذلك العدد الهائل من الدعامات في بيوت الصلاة يجعلها تنضم إلى طراز المساجد ذات الأعمدة والدعامات الذي يعود جذوره - كما سبق وأن أشرنا إليه آنفا - إلى مخطط مسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة، ليكتمل شكله النهائي في الجامع الأموي بدمشق، لينتشر فيما بعد في كل بقاع العالم الإسلامي.

وتبدو بعض المساجد في مزاج بمثابة مجمع معماري ديني حقيقي، فإلى جانب المكونات الأساسية للمسجد (بيت الصلاة والصحن... الخ) ألحق بالمسجد العتيق بغرداية والمسجد الكبير ببني يزقن بيت للصلاة خاص بالنساء، وبناء خاص لاجتماعات حلقة المزبانية وتخزين المون (تامنايت)، وقاعات للتدريس.

3-3-1- بيوت الصلاة :

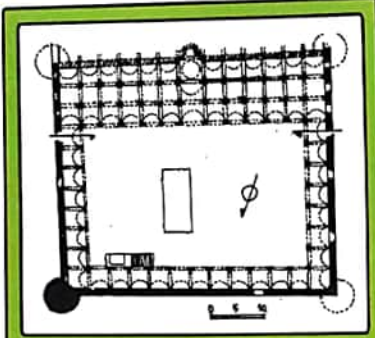
توسعت بيوت الصلاة في مساجد وادي مزاب في اتجاه عرضي، فأصبح عرضها أكبر من عمقها، مقبلة في ذلك نمط الجامع الأموي بدمشق والمسجد الأقصى بالقدس ومسجد عمرو بالفسطاط وجامع ابن طولون بالقاهرة. ونعتقد أن البناء أراد من وراء ذلك إعطاء فرصة لعدد كبير من المصلين بالانضمام إلى الصف الأول، ولا سيما أن الرسول ﷺ كان يحث المسلمين على التقدم إلى الصف الأول بقوله : "الشهداء : الغرق والمطعمون والميطون والهجم، وقال: ولو يعلمون ما في التهجر لاستبقوا، ولو يعلمون ما في العمة والصبح لأتوهما ولو حبوا، ولو يعلمون ما في الصف الأول لاستهوا⁽¹⁾، وقوله ﷺ أيضا تكفموا وفتتوا بي، وليتكم بكم من يحكم، لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله⁽²⁾".

الشكل 3: مخطط المقي لجامع أبي فتحة بتونس
L.Golvin / ٥٤

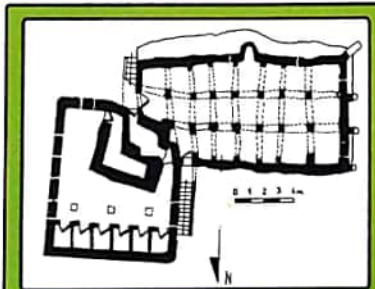
المخطط المقي لجامع أبي فتحة بتونس

إن ما يشد الانتباه ذلك الكم الهائل من الدعامات التي تحمل سلسلة من العقود، وتبدو وكأنها غابة كثيفة من الدعامات داخل بيوت الصلاة.

تتخذ البوائك في اتجاهها نحو جدار القبلة مسارا موازيا وعموديا في كل مساجد مزاب. ولكن ما هو مألوف في مساجد ذات الأعمدة والدعامات أن البوائك تأخذ في اتجاهها نحو جدار القبلة مسارا واحدا وموحدًا، يكون إما موازيا أو عموديا. ففي الجامع الأموي بدمشق وجامع ابن طولون وجامع الأزهر في القاهرة تأخذ البوائك مسارا في اتجاه موازي لجدار القبلة، بينما تسير البوائك في جامع عمرو بالفسطاط والجامع الأقصى بالقدس والجامع الكبير بالقبرون وجامع قرطبة بالأندلس في اتجاه عمودي نحو جدار القبلة⁽¹⁾، ولكن لكل قاعدة استثناء، فالأمر يختلف بالنسبة لجامع أبي فتحة⁽²⁾



الشكل 4: مخطط المقي لجامع الكبير بسوسة التونسية
L.Golvin / ٥٤



الشكل 5: مخطط المقي لمسجد بتورة القديم
٥٤ / ديوان مزاب

(1) - Vogt Göknil: Op.cit, pp 31 - 32

(2) - شيد مسجد أبي فتحة بمدينة سوسة في عهد الأغلب بن إبراهيم فيما بين 223 - 226 / 838 - 841م، يشتمل المسجد على بيت للصلاة مستطيل الشكل يتكون من ثلاث بلاطات وثلاثة أسكيب، ويمتد أول مسجد يحتوي على بوائك عمودية وموازية لجدار القبلة.

ينظر : كمال الدين سامح: العمارة في صدر الإسلام، دار نهضة الشرق للطباعة والنشر، القاهرة 2000، ص: 145 - 146.

(1) - البخاري: المرجع السابق، ج 1، ص: 253.

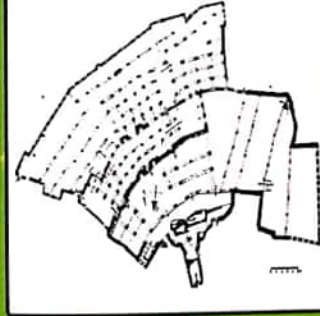
(2) - خير الدين واتلي: المسجد في الإسلام، أحكامه وأدبيته، ط 4، المكتبة الإسلامية، عمان 1998، ص: 86.

(223-226هـ/838-841م) والجامع الكبير بموسى (236هـ/850م)⁽¹⁾ بالقطر التونسي، إذ أنّ البوائك هنا تميز في اتجاهين؛ العمودي والموازي نحو جدار القبلة (الشكل 3 و 4)، وبالتالي فإنه يمكن ضمّ مساجد الإباضية بوادي مزاب إلى نمط هذين المسجدين. وبالنسبة للجزائر يمكن ربط نمط مساجد مزاب المعماري انطلاقاً من مسار بوائكها بالمساجد الحثادية كالجامع الكبير (530هـ/1135م) بقسنطينة، وجامع سيدي مروان (425هـ/1033م) بعباية⁽²⁾. ريثما كان لجوء المهندس المزابي إلى تطبيق هذا الأسلوب المعماري في البناء لعاملين هما :

- تقليص مساحات التسقيف تماثلياً مع مواد البناء المتوفرة لدى البقاء في المنطقة، ولا سيما أنّ جذوع النخيل المستعمل في تغطية الفضاءات الكبيرة قليلة الكمية، إذ يُعدّ النخيل بمثابة ثروة ذات أهمية بالغة بالنسبة للمجتمع المزابي لا ينبغي تضييعها، لذلك لا يتم استخدام هذه المادة في البناء، إلا بعد موت النخلة. وفي ظلّ نقص هذه المادة، لم يكن أمام المعماري المزابي من وسيلة سوى اللجوء إلى أسلوب التغطية بالأقبية، نظراً لتوفر مادة جريد النخيل والحجر بكثرة في المنطقة.

- حمل ثقل السقف الذي يتكوّن من الحجر وطبقة سميكة من التربة الطينية، حيث يصل سمك السقف في أغلب المنشآت إلى 70 سم.

لقد أدّى تقاطع هذه البوائك فيما بينها إلى بروز فضاءات صغيرة داخل بيوت الصلاة، حيث غُطيت بأقبية، قد تكون إما متقاطعة أو نصف برميلية، كما قد تُغطّى هذه الفضاءات في بعض الأحيان بقباب صغيرة مضمرة في السقف.



الشكل 6: مقطع أفقي لمسجد غرداية الصنّيق
تُجزأ بالتكامل مع بيوت مزاب

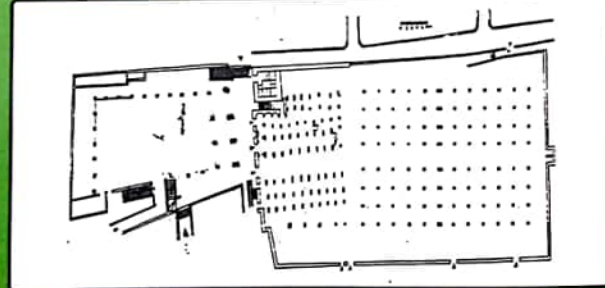
(1) - L. Golvin : Essai sur l'Architecture Religieuse Musulmane, T 3, Ed Klincksieck, Paris 1974, pp : 210 - 217.

(2) - Rachid Bourouiba : Apport de l'Algérie à l'Architecture Religieuse Arabo-Islamique, O.P.U, Alger 1986, p: 48.

لقد نتج عن اختلاف مستويات الأرضيات الصخرية التي شُيّدت فوقها المساجد إلى بروز مستويات مختلفة داخل بيوت الصلاة. وأمام النقص الفادح في الإمكانيات الإنشائية لدى البناء المزابي آنذاك، فإنه لم يتمكّن من تسويتها بمسبب طبيعة الصخور الصلبة، ولكنه تغلب على هذا المشكل العويص باللجوء إلى حلّ عيقر يتمثّل في إنشاء سلالم تتكوّن من درجتين أو ثلاث درجات، كلّما اقتضى الأمر (الصورة 35).



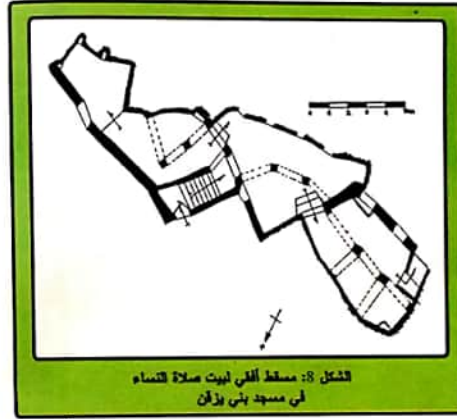
الصورة 35: منظر يوضّح لاختلاف المستويات الأرضية داخل بيت الصلاة (مسجد غرداية الصنّيق)



الشكل 7: مقطع أفقي لمسجد القرواء الصنّيق

3-3-2- بيت الصلاة للنساء

قد سهر المزيبيون على تطبيق مبدء الفصل بين الفضاء الرجالي والفضاء النسائي سواء كان ذلك في العمارة المدنية أو الدينية، لتصبح ميزة من مميزات العمارة المزابية، وانطلاقاً من هذا المبدء خصص المعماري المزابي بيتاً خاصاً للنساء في المساجد، حيث يكون مداخلها منعزلة وبعدة عن المداخل الأخرى للمسجد والمخصصة للرجال، ويبدو أن هذا الانفصال كان انعكاساً لملازمة الجنسين، ومحافظة لحرمة المرأة وتجنباً لاختلاطها بالرجال.



وعموماً جاء بيت الصلاة الخاص بالنساء عبارة عن مجموعة من غرف غير منتظمة الشكل تقع في مستويات مختلفة، وذلك تماثياً مع مستويات الأرضية أو حسب مستويات بيت الصلاة الخاص بالرجال في حال بناء بيت الصلاة للنساء فوقه كما هو الشأن بالنسبة لمسجد بني يزقن.

وما يجلب انتباهنا تلك الفتحات ذات الشبكة الخشبية التي تطل على بيت الصلاة في اتجاه المحراب، إذ من خلالها تتمكن النساء من سماع صوت الإمام، كما ويسمح لهن من خلالها برفع مظالمهن إلى حلقة العزابة بالمسجد، وأثناء رفع مظلمة ما من قبل امرأة، لا يقوم الإمام للصلاة، إلا بعد إرجاع الحق إلى نصابه أو أن يضمن أحد من المصلين في القضية. ويطلق على هذه العملية في اللهجة المحلية اسم "أزجال".

3-3-3- الصحن

ظهر الصحن في عمارة المساجد كضرورة معمارية، نظراً للحرارة الشديدة التي تمتاز بها أغلب الأقاليم الإسلامية. ويعمل هذا العنصر المعماري على تلطيف الجو داخل بيت الصلاة المفتوح نحوه بواسطة صف من العقود، وإضافة إلى ذلك فللصحن وظيفة أخرى تتمثل في إدخال الضوء، واستعماله أيضاً كمكان للصلاة في الليالي الصيفية الحارة.

والصحنون في العمارة الدينية تكون في معظمها ذات مخطط إما عرضي أي أن عرضها أكبر من عمقها أو طولي أي أن عرضها أقل من عمقها وذلك تقليداً لمسجد الرسول ﷺ وجامع الأموي بدمشق. وعموماً فالصحن محاط من كل الجهات بأروقة باستثناء جهة القبلة، ويختلف عددها في المجنبتين خاصة ببلاد المغرب. ومثال ذلك جامع الزيتونة (114هـ/732م) وجامع الكبير بتلمسان (530هـ/1136م) وجامع الكتبية بمراكش (558هـ/1163م)⁽¹⁾، وأما في المشرق فقل ما يرتفع عدد الأروقة في المجنبتين كما في جامع عمرو بالفسطاط (20هـ/641م)، وجامع ابن طولون (263-266هـ/876-879م)، وجامع الأهر (359-362هـ/970-973م) بالقاهرة⁽²⁾.

ويأتي الصحن في معظم العمارات الدينية متقماً بيت الصلاة على محور المحراب، اللهم إلا بعض الاستثناءات، حيث يحيط الصحن ببيت الصلاة من ثلاث جهات كما هو الحال في المساجد الحفصية والثركية بتونس، ويمكن أن يكون الصحن ذو مخطط غير منتظم الشكل، وبخاصة في المساجد المغاربية ذات الأبعاد الصغيرة، وكما يمكن أن يأخذ موقعا حتى أمام جدار القبلة كصحن جامع الجديد بالجزائر العاصمة (1036هـ/1626م)⁽³⁾، وفي حالات جد نادرة نجد أكثر من صحن في مسجد واحد، كما هو الشأن بالنسبة لجامع حسان بالرباط⁽⁴⁾.

وبالنسبة لمساجد مزاب فموقع الصحن بالنسبة لبيت الصلاة يتبع في معظم الأحيان التقاليد المعروفة في عمارة المساجد. ففي مسجد غرداية (الشكل 6) ومسجد القرارة (الشكل 7) أخذ الصحن موقعه التقليدي أي متقماً بيت الصلاة على محور المحراب. وأما صحن مسجد

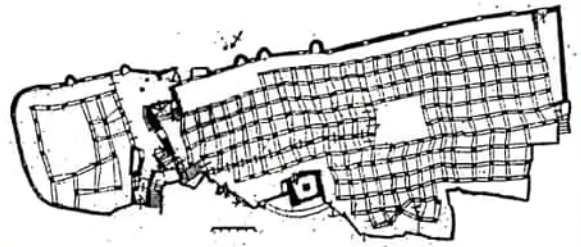
(1) - G. Marçais : Op.cit, p : 86 - 89.

(2) - Ulya Vogt Göknil : Op.cit, p : 39.

(3) - Baelhadj Marouf : Op.cit, p : 31.

(4) - L. Golvin : Op.cit, pp : 47 - 51.

بني يزقن فقد جاء محاذيا بيت الصلاة من جهته الشمالية الشرقية (الشكل 9)، وقد تركزت هذه الظاهرة حتى في مسجد مليكة الذي أسس في نفس الفترة تقريبا أي خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي.



الشكل 9: مخطط القلي للطابق الأرضي للمسجد الكبير ببني يزقن



الصورة 36: صحن مسجد بني يزقن

ليست هذه الظاهرة من خصوصيات مزاب فقط بل نجدها طبقت في جامع الباشا بوهران⁽¹⁾ (1207هـ / 1792م) وجامع الكبير بمعسكر (1195هـ / 1781م)، والجامع الكبير بتقورت (1219هـ / 1804م)⁽²⁾ حيث بُني الصحن

(1) - شُيّد هذا الجامع حسب اللوحة التذكارية الموجودة في متحف زينة بمدينة وهران سنة 1207هـ / 1792م، من قبل حاكم بابليوك الغرب محمد بن عثمان، بأمر من داي الجزائر حسن باشا. ينظر Baelhadj Marouf : Op. cit, p : 56
(2) - Rachid Bourouiba : Op.cit, p: 60



الصورة 37: صحن مسجد القراة العتيق

في الجهة اليسرى من بيت الصلاة. ونعتقد أنّ المعماري المسلم لا يلجأ إلى ترتيب الصحن بجوار بيت الصلاة من الجهة اليمنى أو اليسرى، إلا لضرورة معمارية ملحة، أي عندما يستعصى عليه الأمر ببناء الصحن على محور المحراب، بسبب انحصار المبنى من تلك الجهة. وهكذا كان الأمر

بالنسبة لصحن مسجد بني يزقن، وما إطلاق تسمية الصحن إلى يومنا هذا على الجزء المقابل لجدار القبلة والمجاور للمنطقة داخل بيت الصلاة في مسجد بني يزقن (الشكل 9)، إلا دليل قاطع على أنّ هذا المسجد كان يحوي -قبل الإضافات المتتالية عليه- صحنًا في الجهة المقابلة لجدار القبلة. وبسبب توالي الزيادات التي كانت على حساب الصحن القديم، أصبح المسجد محاصرا بالمساكن من تلك الجهة، وصار من المستحيل إنشاء صحن جديد في تلك الناحية، وكان الفضاء المجاور لبيت الصلاة من الجهة اليسرى الأكثر تلاؤما لاحتضان الصحن.

وعلى غرار العمارات الدينية الإسلامية جاء الصحن في المساجد المزابية محاطا بأروقة من جميع الجهات باستثناء جهة القبلة. ولكن هذا الأسلوب المعماري لا ينطبق على صحن مسجد بني يزقن والقراة اللذين تحيطهما أروقة من جميع الجهات (الصور 36 و 37). وما يمكن ملاحظته هنا عدم التجانس والتناسق في عدد الأروقة المحيطة بالصحن حتى في مسجد واحد، كما هو مألوف وشائع في مساجد بلاد المغرب، حيث نشاهد مبدأ السمترية والتناظر مطبق بشكل واضح، ويختلف عدد الأروقة من مبنى إلى آخر، فمن رواق واحد في مسجد القراة إلى رواقين في مجنبتَي مسجد غرداية وفي المجنبة الشمالية الغربية والمؤخرة في مسجد بني يزقن.

كما جاءت أروقة الصحن مركبة من طابقين في بعض مساجد مزاب مثل مسجد غرداية ومسجد القرارة، ويُنزل ذلك على حرص البنّاء المزابي على استغلال كل المساحات المتاحة له. ولا بدّ أن نشير في الأخير إلى تلك المحاريب المفتوحة في الجدار القبلي للصحن في كلّ مساجد مزاب، وتشبه تماما تلك المحاريب داخل بيوت الصلاة في تصميمها وبساطة بنائها، إلا أنّ ما يجلب نظر الباحث تكرر ظاهرة تجاور محرابين في صحن مسجد غرداية ومسجد بني يزقن.

3-3-3- المسطوح

تمتاز منطقة وادي مزاب والصحراء الجزائرية عموما بجوّها الحارّ صيفا كما سبق وأنّ أشرنا إلى ذلك، لذا لجأ المهندسون الصحراوي عامة والمزابي بخاصة إلى استغلال الفضاءات الشاسعة التي تعلو المسجد والتي يطلق عليها اسم "المسطح"، ولا سيّما أنّ الصحن صغير في مساحته، إذ لا يمكن أن يستوعب ذلك العدد الهائل من المصلّين الوافدين إلى المساجد.



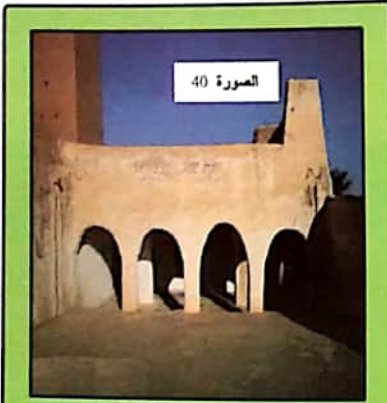
الصورة 39: سطح مسجد القرارة



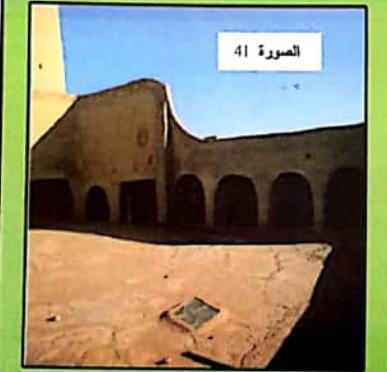
الصورة 38: سطح مسجد غرداية

وتحاط المسطوح بسياج جداري يتراوح ارتفاعه ما بين 0,70م و 50م، وفُتحت في جدرانها القبلية تجويفات بمثابة المحاريب لتعيين اتجاه القبلة، وتُعرف هذه المحاريب في العمارة الإسلامية باسم "المنزة"، وهي عبارة عن فتحة مجوّفة ذات مخطط نصف دائري لا يتعدّى ارتفاع جدرانها 70م، وجاءت في مساجد مزاب امتدادا لمحاريب بيوت الصلاة أو الصحنون.

يُصادف أحيانا عدّة سطوح في مسجد واحد، ولكنها منفصلة عن بعضها البعض بواسطة جدار. وتبرز فكرة هذه المسطوح بشكل واضح في مسجد بني يزقن ومسجد غرداية العتيق، حيث يتمّ الانتقال من سطح إلى آخر عن طريق أبواب خشبية مصنوعة من جذوع النخيل.

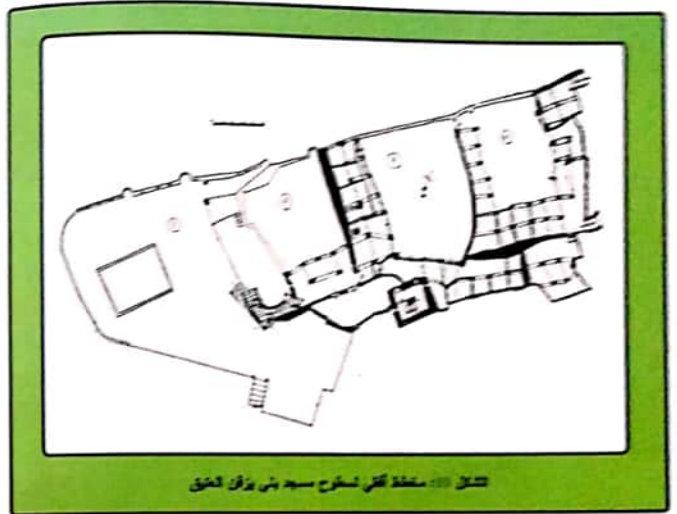


الصورة 40



الصورة 41

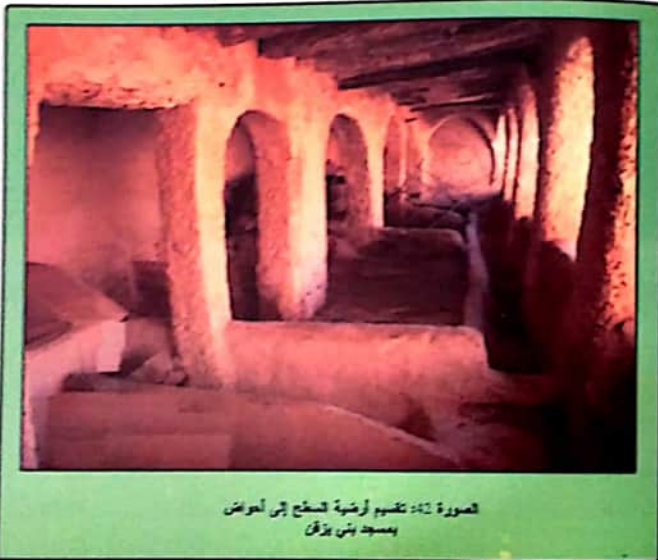
تماذج من سطوح مسجد بني يزقن



الشكل 100: مخطط قبة المسجد بني يزقن الحقيق

ويقيم لنا مسجد بني يزقن على الخصوص نموذجاً رائعاً وواضحاً عن هذه المسطوح التي غالباً ما تنقسم إلى قضاين متميزين: صحن مكشوف ورواق مغطى يحيط بالقضاء المكشوف، إما من جهة واحدة أو من جهتين أو ثلاث جهات (الشكل 100 والصورة 38 و 39). ويكون هذا الرواق مفتوحاً نحو الصحن ببوابة متكوتة من صف من العقود للنصف الدائرية. وقد تتخذ إحدى هذه المسطوح مغزلاً لاجتماعات حلقة العزائية ومخزناً للمؤمن التي تزد إلى المسجد على شكل أوقف أو حبوب أو مصفقات، ويطلق على القضاء المخصص لهذا الغرض اسم "كثنايكت"، ويكون قوياً ومتيناً من حيث البناء وحصينا بشكل يضمن السرية لتثمة لاجتماعات الحلقة ويؤمن سلامة المؤمن المخزونة فيه.

وقد قُسمت أرضية الأروقة في بعض المسطوح إلى أحواض صغيرة (الصورة 42) تحتها حفران قليلة السمك والارتفاع. وتُسَعَّل هذه الأحواض لتخزين التمور للقائمة من الأوقف والحبوس. وبهدف الاستفادة من غسل التمر الناتج من تكبيس التمور ببيت السوق التي تتعلق من الأحواض ليسهل فيها العمل ثم يتم جمعه بعد ذلك. وتعرض تخزين الحبوب خصصت أيضاً أماكن متميزة.



الصورة 42: تقسيم أرضية المسطوح إلى أحواض بمسجد بني يزقن

الفصل الرابع

المصليات الجنائزية

بمزاب من ناحية التخطيط

الفصل الرابع

المصليات الجنائزية بمزاب من ناحية التخطيط

I - مفهوم المصلّى الجنائزي ونشأته:

هناك من يطلق عليها أيضا اسم "مصلّى المقبرة"، وقبل الخوض في ثنايا الموضوع لا بدّ من تقديم تعريف لهذا المصطلح، فأما مفهوم المصلّى بالضم وتشديد اللّام، فيعني موضع الصلاة، وقيل أيضا موضع الدّعاء⁽¹⁾، كما في قوله تعالى: "وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى"⁽²⁾.

وأما مفهومه كمصطلح، فيقصد به تلك المنشآت أو العمارات التي تخصص للصلاة في مناسبات مختلفة مثل صلاة العيدين (الفطر والأضحى)، ومن هنا اشتهرت باسم مصلّى العيد. وتجاوزا أطلق على المساجد بدون مؤنّة اسم المصلّى⁽³⁾.

وبأداء صلاة الجنازة في هذه المصلّيات، أصبحت تُعرف باسم المصلّى الجنائزي. ويبنى هذا المصلّى في بعض الأحيان مجاورا لمصلّى العيد، وقد يُستغل نفس المصلّى لأداء صلاة العيد وصلاة الجنازة في آن واحد. فضلا عن أداء صلاة الاستسقاء كما تذكر ذلك بعض المصادر التاريخية⁽⁴⁾.

أدت المصلّيات دورا عظيم الشأن في المجتمعات الإسلامية لا سيّما في العصور الوسطى، وخصوصا في المنطقة التي نحن بصدد تناولها في هذه الدراسة، ألا وهي وادي مزاب.

لقد ورد في المصادر التاريخية أنّ المصلّى الجنائزي في المدينة المنورة كان ملاصقا بمسجد الرسول ﷺ من ناحية الشرق، وما يؤكّد هذا القول ما تذكره المصادر التاريخية من أنّ جدار الحجرة الشريفة التي تلي موضع الجنائز - يعني جهة الشرق - سقط في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وظهرت القبور المقدّسة⁽⁵⁾.

(1) - ابن منظور، لسان العرب، ج: 1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت 1968، ص: 464-469.

(2) - سورة البقرة الآية: 125.

(3) - محمد حمزة إسماعيل الحداد، المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، القاهرة 1995، ص: 37.

(4) - محمد ناصر الدين الألباني، أحكام الجنائز، دمشق 1968، ص: 106.

(5) - السموهدي، الوفاء بما يجب على حضرة المصطفى، ضمن كتاب رسائل في تاريخ المدينة، الرياض 1972، ص: 111.

وقد ظلَّ ذلك الموضع يحمل اسم مصلى الجنائز إلى وقت قريب، إذ يشير عبد القادر شيبه الحمد إلى ذلك في قوله "ولا زلنا نسمع إلى الآن أنَّ الساحة الواقعة بجانب جدار المسجد النبوي الشريف من الناحية الجنوبية الشرقية والتي أحيطت من جهة الشرق والشمال والجنوب بجدار قصير، أنَّها كانت مصلى الجنائز"⁽¹⁾.

لقد انتشرت هذه المصليات في العديد من المدن الإسلامية، فكانت تُعرف أحيانا باسم "المصليات الجنائزية" وأحيانا أخرى باسم "مصليات المقابر". ولقد ألحقت هذه المصليات الجنائزية سواء المغطاة منها أو المكشوفة ببعض الجوامع ويقدم لنا محمد الكلالي أمثلة من ذلك في بلاد المغرب مثل المصلى الملحق بجامعي القرويين والأندلسيين بفاس⁽²⁾، وأما في مصر فصلاة الجنائز كانت تُقام في المساجد. وهذا لا يعني بالضرورة أنَّ العمارة المصرية الإسلامية لم تعرف هذا النوع من العمارات، بل من المؤكد أنَّها عرفت مثل بقية الأقطار الإسلامية، ويُفهم من المصادر والوثائق التاريخية أنَّها كانت عديدة، وكانت إما ملحقة بالعمائر الدينية وخاصة بالمساجد أو بُنيت مستقلة. وتعلّق عليها أوقاف وحبوس عديدة، ومن أمثلة ذلك المصلى الملحق بمسجد الأمير علي كاشف جمال الدين بمنقلاوط الذي أنشئ سنة 1176هـ / 1762م⁽³⁾.

1- المصليات الجنائزية بمزاب :

ويُقصد بالمصلى الجنائزي في منطقة مزاب تلك المنشأة التي تُوظف لأداء صلاة الجنائز أو تُمارس فيها بعض الشعائر الدينية التي لها علاقة مباشرة بالميت، مثل مدارسة القرآن الكريم وتلاوته، ووظائف أخرى لها علاقة بالجانب الاجتماعي.

(1) - الحمد عبد القادر شيبه، فقه الإسلام شرح بلوغ المرام في جمع أدلة الأحكام للحال أبي حجر الصقلاني، ج 3، ط 2، مطابع المدينة، الرياض، د.ت، ص: 41.
(2) - محمد الكلالي، عتات الموحدين الدينية بالمغرب، رسالة دكتوراه الدولة، كلية علم الآثار، جامعة القاهرة 1986، ص: 144.
(3) - محمد حمزة إسماعيل الحداد: "المصليات الجنائزية في العمارة المصرية العربية - دراسة أثرية - (تحليلية مقارنة) وثقافية تاريخية" مجلة كلية الآثار، ع 8، مطبعة جامعة القاهرة 2000، ص: 148-149.

نقصد بالمصليات الجنائزية تلك المصليات التي شيدها المزابيون وسط مقابرهم، وغالبا ما تحمل اسم أكبر فقهاء وعلماء المدينة الذين تقلدوا وظيفة رئيس حلقة المزابية⁽¹⁾ في مدينتهم لفترة زمنية معينة بعد تأسيس المدينة مباشرة، أو قتموا خدمات جليلة لمجتمعهم في ميدان التعليم وإصلاح المجتمع، وفي أغلب الأحيان يكونون ممثلين لأحد الأعراس المشكّلة لمجتمعهم، ولهذا السبب نجد هذه المصليات تنتشر بكثرة في محيط كل مدن مزاب.

إنَّ كلَّ العتائر التي تنتمي إلى هذا الجدَّ العالم تقوم بدفن موتاهها في المقبرة المحيطة بالمصلى من كلِّ الجهات باستثناء جهة القبلة.

1-1- تاريخ بعض النماذج:

تنتشر المصليات الجنائزية داخل جميع المقابر الإباضية بمنطقة مزاب، ولا نستطيع أن نتناول كل تلك المصليات بالدراسة، وعليه اخترنا بعض النماذج التي من خلالها يمكن أن تكون فكرة شاملة وواضحة عن الخصائص المعمارية المميزة لهذا النوع من العتائر الدينية، والأساليب المعمارية التي طبقت فيها.

1-1-1- المصلى الجنائزي عتي إبراهيم :

يقع المصلى الجنائزي داخل مقبرة تحمل اسم عتي إبراهيم وتقع يمين الداخل إلى مدينة العطف.

ينسب هذا المصلى الجنائزي إلى إبراهيم بن مناد من علماء مدينة العطف الذي عاش في النصف الأول من القرن 12هـ / 12م. وعاصر الشيخين باعبد الرحمان الكرتي⁽²⁾

(1) - نظام اجتماعي وتربوي سته الإباضية ليقوم مقام سلطة الإمام، ويُعد أعلى أعلى سلطة عرفية في منطقة وادي مزاب، ويعود تاريخ تأسيسه إلى القرن الخامس الهجري، وقد سنَّ قوانين هذا النظام ومبادئه العالم الإباضي أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطاني النفوسي. ينظر عدون جهلان: الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ محمد بن يوسف أمفيش، جمعية التراث، القاهرة د.ت، ص: 168-169.
(2) - هو عبد الرحمان الكرتي المصعبي المشهور باسم بابا عبد الرحمان، يعدَّ حسب المصادر الإباضية من علماء الإباضية الأوائل بوادي مزاب، وقد عاش خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي، كان يمارس نشاطه التعليمي والإصلاحي في مدينة مليكة، ولا يزال المصلى الجنائزي الواقع في الجنوب الشرقي لمليكة يحمل اسمه. ينظر جمعية التراث، المرجع السابق، مع: 3، ص: 512-513.

وأبا جعفر مسعود⁽¹⁾، وقد اجتهد هذا العالم في نشر المذهب الإباضي بمنطقة وادي مزاب باعتبار أن بعض السكان الأصليين كانوا إلى ذلك العهد على مذهب الواسلية المعتزلة⁽²⁾.

تروي لنا أسطورة شعبية قصة بناء المصلى، وقد نقل إلينا تفاصيلها مانويل روش Menuelle Roche في كتابه مزاب، وتروي القصة التي كان بطلها أحد العلماء الإباضيين المعاصرين للشيخ إبراهيم بن مناد، ألا وهو الشيخ بامسعود الذي سُجن في جزيرة بعيدا عن أهله الذين كانوا يعتقدونه ميتا، وبعد أن أخذ إلى النوم بعد أداء صلاة العشاء في إحدى الليالي، رأى رؤيا عظيمة. إذ رأى شيئا يمسك بيده عصا يقول له: "يا بامسعود، أنا سيدي إبراهيم لقد أصبحت في ذاكرة النسيان بعد وفاتي، ولا أحد من أهلي يتذكرني. فهل تريد العودة إلى أهلك يا بامسعود، فإذا أعطيتني عهدا من الله سأعطيك حريتك، وأخذك إلى أهلك في مزاب." ويستمر سيدي إبراهيم في حديثه حسب الرواية "فإذا أصبح الغد يأخذك الحراس إلى ساحل البحر للعمل، وسوف يقيمون لك حراسك اللحم فلا تأكله بل احتفظ به، وعندما يبتعدون عنك أهرب بكل قواك نحو البحر، وأثناء فرارك لا تنسى أن ترمي اللحم الذي احتفظت به إلى الكلاب التي تركض وراءك، ثم واصل السير نحو البحر، وأغمض عينيك"⁽³⁾.

ومقابل هذه الخدمة، طلب إبراهيم بن مناد من بامسعود في حلمه أن يعطيه عهدا، بحيث حينما يصل إلى مدينة العطف يصعد نحو أعلى الهضبة المحاذية للمدينة ويرمي عصا في الهواء، وحينما تستقر يشيد عليها مصلى سيحمل اسمه لقد طبق بامسعود كل ما جاء على لسان الشيخ في المنام، وبعد أن أغمض عينيه واستيقظ سمع من حوله صوت دارسي القرآن الكريم، ولكنه لم يكن يعلم مكان تواجده، وكان حينذاك متدبرا بجلايته ومكتئا على دعامة. وبعد زمن قصير دخل الإمام إلى المسجد، وبمجرد أن سمع صوته علم أنه موجود في مسجد

(1) - هو أبو جعفر مسعود الزنقي ولد ونشأ في فسطاط بجبل نفوسة (ليبيا) وانتقل مع أخيه الحاج محمد سنة 470هـ / 1077م إلى وادي مزاب. فطلب منهم أهالي مدينة العطف النزول بينهم للاستفادة من علمهم الفزير، فأقام فيها سنتين ثم انتقل إلى مدينة غرداية، وكان ينتقل يوميا إلى مليكة لإلقاء الدروس في مسجدنا ليستقر فيها ويصبح سنة 485هـ / 1092م شيخ حلقة عزابتها. فقد الشيوخ في حداث غرق لباخرة الحجاج بالقرب من جزيرة مالطة سنة 501هـ / 1107م، ليعود إلى وادي مزاب بعد خمس وعشرين سنة، وبعد هذا الشيخ جة عذيرة ويزو. ينظر : جمعية التراث : المرجع نفسه، مج : 4، ص : 867 - 868.

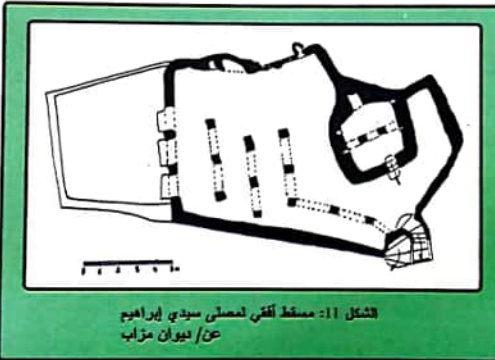
(2) - مرجع نفسه، مج : 2، ص : 64.

(3) - Manuelle Roche : Le m'zab, Arthaud, Paris 1970, 93 - 94

مليكة، وتقدم الإمام خطوات ثم توقف وسط المسجد قائلا: "إن بيننا أحد إخواننا وأشم رائحة بامسعود". فقبل له مستحيل إن هذا الشخص مسجون منذ عشرين سنة، وهو ميت. وكرّر الإمام مقولته مرّات عديدة ثم أخذ ينتزع أغطية الرأس عن المصلين الجالسين، وحين وصل عند بامسعود، أخذ هذا الأخير يقبل يد الإمام، فأنبهر الناس لهذا الحدث العظيم⁽¹⁾.



الصورة 43: منظر خارجي لمصلى سيدي إبراهيم



الشكل 11: مسقط أفقي لمصلى سيدي إبراهيم عن ديوان مزاب

(1) - Manuelle Roche : Op .cit, p : 95.

وعندما قصّ بامسعود رؤياه على أهل مدينته، تجمّع فريق من البنّائين وتوجّهوا معه إلى مدينة العطف، فصعدوا إلى قمة التلّ، ثم رمى بامسعود العصا في الهواء فانخرست فوق تلّ رملي. فاحتار البنّائون في كيفية البناء فوق تلّ رملي، وفي صباح الغد رأى البنّائون أنّ التلّ الرملي أزيح، وبقيت العصا مغروسة فوق الصخر، فقرّروا في الحال بداية بناء المصلّى⁽¹⁾، وعلى هذا الشكل رُويت قصّة بناء مصلّى عمّي إبراهيم حسب الأسطورة.

لو أخذنا بهذه الرواية، فلا بدّ أن نسلّم على أنّ المصلّى شُيّد بعد وفاة عمّي إبراهيم أي في أواخر القرن الخامس الهجري، وهذا يطرح إشكالا كبيرا، فالمبنى لم يُوظّف إذاً من قبل الشيخ العالم في حياته، وهذا ما يتنافى مع القاعدة العامة للمصليّات الجنائزية المزابية التي تجعل من المصلّى مكانا يتردّد إليه الشيخ العالم مع تلاميذه أو لوحده أثناء حياته بحثا عن الخلوة وبعبدا عن مشاغل الدنيا وملهياتها، كما أنّ أسلوب بناء الحجرتين المترابيتين داخل المبنى يؤكّد استخدامهما كخلوة من قبل العالم، وهذا ما تشير إليه فعلا الذاكرة الشعبية.

1-1-2 المصلّى الجنائزي بآمخند

يقع وسط مقبرة يُطلق عليها اسم "بآمخند"، وهذه المقبرة تقع في سفح جبل بوعغند، في الجهة الجنوبية الشرقية لمدينة بني يزقن مقابل المدخل الثانوي المسمى "باب الزنقة".

صنّف أمخند أطفيش صاحب المقبرة الشيخ بآمخند ضمن علماء الخمسين الثانية من المائة الثامنة وهو محمد بن عبد العزيز المصمعي⁽²⁾ المشهور باسم "بآمخند"⁽³⁾، في حين صنّفه الأب لويس دافيد ضمن علماء ومثايخ القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي⁽⁴⁾.

اشتهر هذا العالم بالورع والتقوى، وإليه تُنسب الرواية الشعبية قضية توحيد القرى التي كانت متناثرة في واحة بني يزقن، ومن تمّ تأسيس مدينة بني يزقن. وعليه يمكن القول إنّ الشيخ بآمخند قد عاش خلال القرن الثامن الهجري.

(1) - Manuelle Roche : Op . cit, p : 96 .

(2) - محمد أطفيش : الرسالة الشافية الكبرى، مخطوطة بمكتبة الحاج صالح لعلي، ص : 80 .

(3) - تصانف كلمة "بآ" إلى الاسم في اللهجة المزابية لتعبر عن السيد أو الشيخ وليست لها أية علاقة بالأسماء الخمسة.

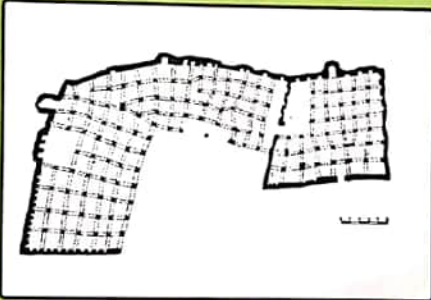
(4) - Louis David : Les Mechaichs du M'zab, Beni- Isguen et ses Mechaichs Manuscrit Dactylographié , p : 1 ,

إنّ تاريخ تشييد هذا المبنى يبقى مجهولا، ولكن اعتمادا على الرواية السابق ذكرها والتي تجعل من الشيخ بآمخند مؤتمسا لمدينة بني يزقن، فيمكن القول إنّ هذا المصلّى شُيّد في أواخر القرن الثامن الهجري وبداية القرن التاسع الهجري.

لقد طرأت على المبنى عدّة توسّعات وإضافات وتعديلات في فترات تاريخية مختلفة وغير معروفة، ولكن بمجرد ملاحظة تقنية البناء يمكن تمييز ثلاثة مراحل بارزة.



الصورة 44: منظر عام للمصلّى الجنائزي بآمخند، بني يزقن



الشكل 12: مسقط أفقي لمصلّى بآمخند، بني يزقن
عن/ ديوان مزّاب

إنَّ النواة الأولى للمصلى في نظرنا تتمثل في القاعة المعروفة باسم "قاعة بَنْشُري"⁽¹⁾ لما تحمله من أوصاف معمارية مشابهة مع أغلبية المصليات الجنازية الأولى في وادي مزاب ثم توسعت نحو الجهة الشمالية الشرقية، فأضيف إليها القسم المفتوح نحو الفضاء المكشوف، وأخيراً زيد في توسيعها إلى نفس الجهة لتعطي الشكل النهائي الحالي.

نعتقد أنَّ الشيخ بَأْمَحْخَذْ قد اتخذ قاعة بَنْشُري (الشكل 12) مكاناً للتدريس، وذلك تقليداً لأسلافه من الإباضية، ولا سيما أنَّ هذه القاعة جاءت في تصميمها على شكل مصلى حقيقي، كما أنَّ بعد المكان عن التجمع السكاني يقتضي حمايته من كل طارئ، لذلك كان لابد من إحاطته بجدران قوية، وهذا ما جعل المبنى يظهر على شكل حصن في حجم صغير، وخاصة إذا علمنا أنَّ مدينة بني يزقن لم تصل بعد في ذلك العهد إلى حدود التوسع الثاني⁽²⁾. وبناء على هذا نعتقد أنَّ الأجزاء المفتوحة نحو الصحن قد أضيفت لاحقاً بعد أن أصبح المكان يحتضن مقبرة، وذلك بعد وفاة الشيخ بَأْمَحْخَذْ وليس قبلها.

1 - 3 - مصلى عتي سعيد :

يقع مصلى عتي سعيد شمال شرق مدينة غرداية، وسط مقبرة في سفح هضبة تطل على وادي مزاب، ويُعد من أقدم المصليات الجنازية بالمدينة، كما يستخدم مقراً للمجلس الأعلى لعزابة وادي مزاب.

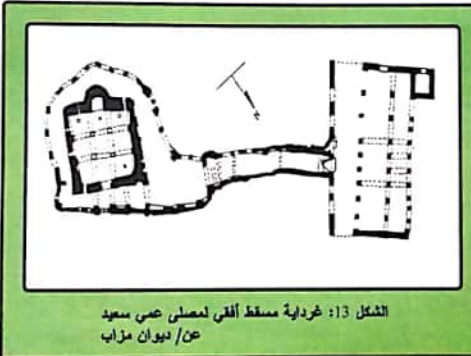
(1) - بانشري بن أيوب بن عون أصله من وارجلان، وقيل من تافلات المغربية، ولد إلى بني يزقن وتولى مشيختها خلفاً للشيخ بايزيد سنة 646هـ / 1248م وينسب إليه إنشاء قرية موركي، وكان عالماً، وقد خلفه بعد وفاته في بداية القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي الشيخ بالمحمد في مشيخة بني يزقن.

(2) - شهدت مدينة بني يزقن أربع توسعات في فترات تاريخية مجهولة، ففي القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي امتدت قرية تافلات (النواة الأولى) إلى الناحية الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية ووصل حدود هذا التوسع إلى شارع الشور، حيث يوجد مدخل يسمى بباب الغيبة.

ولد عتي سعيد بن علي بن يحيى بن يندر سليمان بن عثمان الجربي ثم الخيري حسب ما جاء في ديباجة رسالة له تعود إلى سنة 825هـ / 1421م، في قرية أجيم بالقطر التونسي، وهناك نشأ وترعرع، وقد بدأ تحصيله العلمي في مسقط رأسه ثم تقلد على يد الشيخين⁽¹⁾ ابن النجاة التعاريفي⁽²⁾ والشيخ أبي بكر بن عيسى البرادي⁽³⁾.



الصورة 45: منظر عام للمصلى الجنائزي عتي سعيد (غرداية)



الشكل 13: غرداية مسقط الفلي لمصلى عتي سعيد
عن ديوان مزاب

(1) - بشير الحاج موسى : سعيد بن علي بن يحيى الخيري الجربي، مخطوط مرقون، غرداية 2000، ص: 4-1.
(2) - هو يونس بن سعيد بن يحيى التّعاريفي الملقب بأبي النّجاة، يعدّ من العلماء الإباضيين الفاضل في الفقه في علوم اللغة العربية وفي الشريعة الإسلامية. عاش خلال القرن العاشر الهجري، أخذ العلم عن أبي القاسم زكرياء ابن أفلح الصديقي وأبي محمد عبد الله بن أبي القاسم البرادي. تولى رئاسة حلقة المذاكرة في جربة سنة 908هـ / 1407م. ينظر جمعية التراث : المرجع نفسه، مج : 2، ص: 154-155.
(3) - لم نعثر على ترجمة لهذا العالم الإباضي.

قيم الشيخ إلى المنطقة بطلب من عزابة المنطقة فيما بين 884-889هـ/1479-1484م فانكب على نشر العلم وإرساء قواعده، وبمجرد وصوله إلى مزاب واستقراره فيه شرع في التدريس بالمسجد العتيق بغرداية وبالمصلى الذي يحمل اسمه. وقد تخرج من حلقاته علماء كثيرون لم تذكر منهم المصادر التاريخية سوى اثنين فقط؛ وهما ابنه صالح بن عتي سعيد⁽¹⁾ والشيخ أبي مهدي عيسى المليلكي⁽²⁾.

توفي عتي سعيد حسب ما جاء في مخطوطة بخط ابنه عمرو بن سعيد في ليلة الاثنين 27 من جمادى الثاني سنة 929هـ/1521م⁽³⁾. وقد عاش الشيخ عتي سعيد حسب ما ورد في قصيدة له أكثر من 86 عاما يقول فيها ما يأتي :

كيف لا أنسى يا ذوي الدين عمري أرذل والشيب الفذير علان
زاد عمري عن الثمانين عاما سنة يا ذا العرش أصلح مكانا⁽⁴⁾

1- 4- مصلى بابه أو الجمة (بابه بن الجمة):

يقع مصلى بابه أو الجمة في الشمال الغربي لمدينة غرداية، وشيد فوق قبة هضبة صخرية (الصورة 46).

ينسب هذا المصلى إلى الشيخ محمد بن يحيى المعروف في اللهجة المحلية بـ "بابة أو الجمة" بمعنى (صاحب البستان) أو "بوقدامة" كما يُلقبه البعض، وهو عالم إياضي قدم حسب غوفيون Gouvion من مدينة ققيق المغربية رفقة أخيه سليمان بن يحيى ورفيقه باعيسى أو غلوان⁽⁵⁾ قاصدين منطقة وادي مزاب⁽⁶⁾، وبما أن الرواية الشعبية تنسب إليه أسطورة تأسيس

(1) - صالح بن عتي سعيد بن علي بن يحيى الجري الخيري عالم من أعلام مدينة غرداية، تولى مشيخة المدينة بعد سنة من وفاة والده. عمل على نشر العلم وإصلاح المجتمع، توفي سنة 949هـ/1542م. ينظر جمعية التراث : المرجع نفسه، مج 3، ص : 478 - 479.

(2) - هو عيسى بن إسماعيل بن موسى المعروف عند الملتة باسم "أبو المهدي" عالم من أعلام الإباضية عاش خلال القرن 10هـ/16م، ويعود أصله إلى أحد عروش أولاد نابل. وقد نشأ أبو المهدي على المذهب المالكي ثم اعتنق المذهب الإباضي ليصبح أحد مشايخه الكبار، وأخذ العلم عن عتي سعيد الجري، وكان من أنجب تلاميذه. ينظر جمعية التراث : المرجع نفسه، مج 3، ص : 678 - 679.

(3) - بشير الحاج موسى : المرجع نفسه، ص : 2.

(4) - قصيدة كتبها في مدح شيخه أبي النجاة التماريقي، وتضمن اثنين وعشرين بيتا، مخطوطة بخط يد الشيخ عتي سعيد. (5) - هو عيسى بن علوان عاش خلال القرن الخامس الهجري علم من أعلام مدينة غرداية، وأحد مشايخها الأوائل، اشتهر عند الملتة باسم باعيسى أو علوان، نزح إلى وادي مزاب من المغرب الأقصى، وعاصر العالم المصلح يوسف بن يلومر الإباضي التلوسي. ويوجد بغرداية مصلى جنائزي يحمل اسمه. ينظر جمعية التراث : المرجع نفسه، مج 3، ص : 687 - 688.

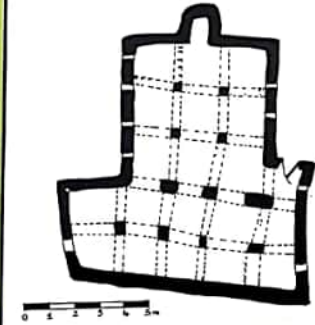
(6) - Marthe et Edmond Gouvion : Op. cit, p : 220.

مدينة غرداية في منتصف القرن الخامس الهجري، فلا شك أنه عاش في تلك الفترة. وتروي الرواية كذلك أن هؤلاء الشيوخ الثلاثة اختاروا هضبة على مقربة من مدينة غرداية، فضربوا عليها خيامهم. وكان محمد بن يحيى يشاهد كل يوم ضوءا ينبعث من غار بالجبل المقابل لهم، فبعث

رفيقه يتحرى الأمر، فوجد امرأة تسمى "داية" تقطن ذلك الغار منذ أن تركت من طرف رفقاتها، فطلبها بابه والجمة للزواج فقبلت. ومنها أخذت المدينة التي تأسست من حوالي الغار اسمها (غارداية)⁽¹⁾، وقد دُفن بابه والجمة بعد وفاته في الهضبة التي ضرب عليها خيامه عند قدومه إلى المنطقة وفوقها شُيد المصلى الجنائزي ومقام الشيخ ليصبح مكانا يقصده الزوار.



الصورة 46: غرداية، منظر عام للمصلى الجنائزي بابه بن الجمة



الشكل 14: غرداية، مسقط الفتي لمصلى بابه أو الجمة عن ديوان مزاب

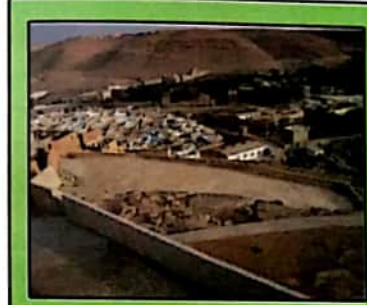
(1) - J. Melia : Ghardaia, Paris 1930, p : 71.

إنَّ تاريخ تشييد هذا المبنى يبقى مجهولاً لدى الباحثين وحتى في الذاكرة الشعبية، ولكن يبدو أنَّه بُني بعد وفاة محمد بن يحيى في الفترة الممتدة بين القرنين 6 - 7 هـ / 12 - 13 م.

1-1-4- مصلى الجنائزي الشيخ بالحاج:

يعدُّ بالحاج بن محمد بن سعيد اليسجني من علماء الإباضية، وقد عاش في النصف الأول من القرن العاشر الهجري، وقدم من جربة إلى وادي مزاب حسب أحمد أطفيش لإحياء للنشاط الفكري من جديد في المنطقة. ويرجع الفضل إلى هذا العالم في سنِّ بعض التقاليد في المنطقة ومنها: الختمات القرآنية التي تُقام بالمقابر، وكذا الزيارات التي تُقام إلى الأماكن التاريخية مرَّة في كلِّ سنة⁽¹⁾، وإليه تُنسب المقبرة والمصلىَّان الجنائزيان اللذان يقعان خارج السور إلى جانب المدخل الشمالي الغربي لمدينة بني يزقن عند أعلى نقطة بالمدينة، وعلى ذلك فهذه المباني الدينية تجاور برج بن يزقن المشهور باسم "برج بوليلة".

وتعدُّ مقبرة الشيخ بالحاج آخر الجولات ضمن الختمات القرآنية التي تُقام شتاء في أيام الجمعة في المصلىَّات الجنائزية ببني يزقن. وتضمُّ هذه المقبرة إلى جانب مقام الشيخ بالحاج مصلىَّين مكتوفين.



الصورة 47: بني يزقن، منظر لمصلى الشيخ بالحاج الشرقي



الشكل 15: بني يزقن، مسقط أفقي لمصلى الشيخ بالحاج الشرقي / عن ديوان مزاب

(1) - جمعة التراث: المرجع السابق، ص: 162 - 163.

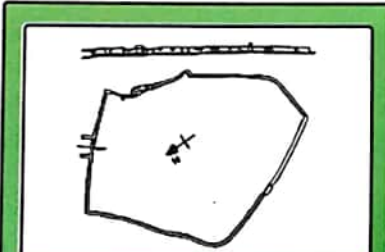
يقع المصلى الجنائزي خارج سور المدينة بجانب المدخل الثانوي الغربي (باب الشيخ بالحاج) الذي يحاذي برج بوليلة، ويكون على يمين الخارج من هذا المدخل.

1-2- وظيفة المصلىَّات الجنائزية في مزاب:

تؤدي المصلىَّات الجنائزية أدواراً متنوعة وهامة داخل المجتمع المزالي ومن أهمها الدور التعليمي والتربوي والاجتماعي.



الشكل 48: بني يزقن، منظر لمصلى الشيخ بالحاج الغربي



الشكل 16: بني يزقن، مسقط أفقي لمصلى الشيخ بالحاج الغربي / عن ديوان مزاب

لقد كان لهذه المصلىَّات دور أساسي في ميدان التعليم، وفي اعتقادنا أنَّ فكرة إنشائها كانت في الأصل لغرض تعليمي بحث. إذ يبدو أنَّ بعض المشايخ الإباضيين الأوائل في وادي مزاب كانوا يتخذون من المباني البعيدة عن التجمعات السكانية أماكن لأداء مهنة التعليم والتدريس على أحسن وجه، وذلك اقتداء بأسلافهم من مشايخ الإباضية الذين كانوا يلجؤون إلى مغارات طبيعية أو غير طبيعية، وذلك في سبيل أداء مهامهم في أحسن الظروف، وعندما نتحدث عن المغارات يتبادر إلى أذهاننا إتخاذ الرسول ﷺ غار حراء للتعبّد،

يبدو أن الغار كان يكفل قنرا من الحماية والأمان للمجموعات المضطهدة فقد اتخذ الرسول ﷺ غار ثور ملجأ يحتمي فيه ضد أعدائه الذين كانوا يريثون القضاء عليه، كما أن الظروف التاريخية جعلت المجموعات الإباضية تقتدي بالرسول ﷺ ، وتلجأ إلى المغارات فرارا من مضطهدهم، وقد تكون هذه المغارات على شكل سراديب تحت الأرض تُمارس في داخلها مهنة التدريس، ولنا في التاريخ الإباضي أمثلة عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الغار الذي أوى إليه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة وتلاميذه ممن يُطلق عليهم اسم "حملة العلم"⁽¹⁾، والغار الذي احتضن أبا عبد الله محمد بن بكر الفرسطاني وتلاميذه في تيسن إيسلي حين أراد الاتعزال مع تلاميذه قصد التعلم والتفقه في الدين والمذهب⁽²⁾. وليس أدل على ذلك ما قام به عتي سعيد الجربي عندما استقر في مزاب، حيث خصص المصلّى الذي ابتناه (المصلّى الجنائزي عتي سعيد) لأداء مهنة التدريس، وذلك استنادا إلى تقاليد بلده الأصلي جربة.

إن فكرة الاختلاء بالطلبة في أماكن بعيدة عن التجمعات السكانية تجعل الطلبة ينصرفون تماما عن كل ملهيات الحياة، كما تضمن لهم التفرغ الكامل للتحصيل العلمي والتربية فقط، ويبدو أن الزوايا في بلاد المغرب قد نشأت من نفس الفكرة، ولنا في تاريخ التصوّف ببلاد المغرب أمثلة عديدة.

وبعد وفاة العالم يدفن إلى جوار مدرسته أو خلوته، ثم يُدفن إلى جواره بعد ذلك كل من ينتمي إلى عشيرته أو عرشه، ثم تتحول الأراضي المجاورة للمدرسة شيئا فشيئا إلى مقبرة حقيقية، ثم تحيط هذه القبور بها من كل الجهات باستثناء جهة القبلة، وعندئذ يتكوّن ذلك المبنى (المدرسة) إلى مصلّى جنائزي، فيحمل اسم العالم الجدّ، كأن نقول مثلا مقبرة الشيخ عمي سعيد أو مقبرة الشيخ بالأمحمد، ثم تندمج المقبرة مع المصلّى. وهكذا تتغيّر وظيفة المبنى طبيعيا من مدرسة إلى مصلّى جنائزي، حيث تُقام صلاة الجنائز وبعض الشعائر الدينية التي لها علاقة بالميت .

(1) - عرض خليفة: نشأة الحركة الإباضية، ص: 108.
(2) - أبو العباس الرجبلي: المصدر السابق، ج: 1، ص: 170.

ولندعيم هذه الفكرة والاستدلال على عملية تحويل المدرسة إلى مصلّى جنائزي، يمكن أن نضيف إلى ما سبق ذكره إطلاق تسمية "المحضرة" إلى يومنا على هذا النوع من المباني، مع العلم أن اسم المحضرة كان يقصد بها المدرسة في منطقة وادي مزاب. إن فالمصليات الجنائزية نشأت من فكرة المدرسة أو ما يسمى "بالمحضرة" ثم تحولت إلى مصليات جنائزية بمجرد دفن الشيخ العالم ولاحقه من أبناء عرشه بجوارها. فإذا كانت هذه المنشآت المعمارية تؤدي في البداية وظيفة التدريس، فما هو دورها الجديد بعد تحويلها إلى مصلّى جنائزي؟

إضافة إلى أداء صلاة الجنائز، تستقبل تلك المصليات الجنائزية في فترة محدّدة من السنة عددا هائلا من دارسي القرآن الكريم بدءا بأعضاء حلقة العزاية والهيئات المرتبطة بها إيروان وإمصوردان وحتى التلاميذ الصغار الذين يتوافدون نحو المصلّى منذ الصباح الباكر، ثم ينقسمون إلى مجموعات على حسب درجة حفظهم للقرآن الكريم، وقد خصّص لكل مجموعة فضاء معيّن. ويقوم الوافدون بتلاوة القرآن الكريم حتى الزوال، ثم ينصرفون ليعودوا في المساء قبل صلاة الظهر، حيث يتمّ اختتام القرآن الكريم. وخلال الفترتين الصباحية والمساءية يتمّ توزيع بعض الأطعمة (التمر والخبز والكسكس وحتى اللحم... الخ) المعلقة على المصلّى الجنائزي في شكل أوقاف أو حبوب أو صدقات، ويستفيد من هذه الأطعمة (الكسكس) إلى جانب الدراسين جميع حاضري الختمة وعدد كبير من المحرومين والفقراء والمساكين.

وتبرز أهمية هذه المباني فعلا أثناء ظهور الكوارث مثل المجاعات والأوبئة التي تؤدي بحياة العديد من السكان الذين يمكن أن تستوعبهم هذه الأماكن، فتُقام عليهم صلاة الجنائز فيها⁽¹⁾.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الصلوات الخمس لا تقام في هذه المباني، اقتداء بالأحاديث النبوية التي تحرم اتخاذ المقابر مساجد فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: "الأرض كلّها مسجد، إلا المقبرة والحمام"⁽²⁾.

(1) - محمد حمزة إسماعيل الحداد: المرجع السابق، ص: 141.
(2) - خير الدين واثلي: المرجع السابق، ص: 385.

1-3- دراسة تحليلية وتصنيفية لمصليات مزاب الجنتزية :

عندما ما يكون بجوار المصليات الجنتزية في مزاب ضريح لعالم، ولكن قد يكون إما سابق لبناء أو بعده. وعموماً نلحظ بمحاذاة مدافع هؤلاء العلماء أو ما يسمى عند أهالي المنطقة بـ "المقلمت"، مصليات صغيرة تكريماً لشخصهم وعرفاناً للمجهودات العلمية التي قاموا بمجتمعهم في مجال التعليم والإصلاح أثناء ترأسهم لحقبة العزاية في منبتهم. ولكن لا بد من طرح تساؤل مهم هنا، ألا وهو هل قبر العالم أبق لم المصلى؟ سنحاول الإجابة على هذا التساؤل لاحقاً.

1-3-1- أنواع المصليات الجنتزية:

بعد الملاحظة والتحقق في المصليات المثبتة في وادي مزاب، يمكننا تمييز نوعين مختلفين تماماً وهما : المصليات المغطاة أي التي غطيت جزئياً أو كلياً، والمصليات المكشوفة تماماً.

أ - المصليات الجنتزية المغطاة:

لا تختلف المصليات الجنتزية المغطاة في تخطيطها وتصميمها كثيراً عن مساجد المدينة إلا من حيث الوظيفة. فقد جاءت تصاميم هذه المصليات على العموم في شكل غير منتظم، كما أنها تمتاز ببساطة والتخلف في البناء، حيث أنها تخلو من كل أنواع الزخرفة. ومن الصعوبة يمكن محاولة تمييز هذه المصليات، نظراً للتشابه الكبير فيما بينها، فاجتهدنا قدر الإمكان لإيجاد بعض الاختلافات، وبعد الملاحظة الدقيقة، واعتماداً على تقنية للتغطية، استطعنا تمييز نمطين معماريين وهما : المصليات ذات القباب، والمصليات ذات الأقبية.

ب - المصليات الجنتزية ذات القباب :

يشكل ضمن هذا النوع كل المصليات الجنتزية المغطاة جزئياً أو كلياً بقباب بارزة من الخارج أو مضمرة ومغروسة في المقف كالمصلى الجنتزي عتي سعيد (الصورة 45) والمصلى الجنتزي بابيه أو الجمعة (الصورة 46) ومصلى باعيسى أو علوان (الصورة 49، والشكل 17)، وما يلاحظ هنا أن هذا النوع من المصليات الجنتزية ينتشر بكثرة في مدينة غرداية، وهذا الوضع يفرض علينا طرح التساؤل الآتي: لماذا انتشرت معظم المصليات الجنتزية المنتمية إلى هذا النمط المعماري في مدينة غرداية؟.

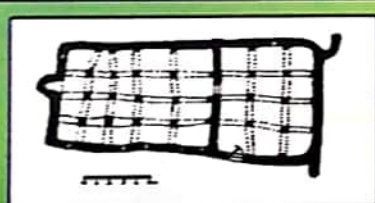
يبدو أن الإجابة على هذا التساؤل يستلزم منا البحث في أصل الجماعات المهاجرة التي استقرت في مدينة غرداية دون غيرها، ولم يكن لها انتشار في المدن الأخرى. ويُفترض بطبيعة الحال أن ينتقل بعض البنكين مع هذه الجماعات حاملين معهم هذه الأنماط المعمارية التي أتوا بتخطيطها وتصميمها على أرض الواقع، ويبدو لنا أن الأمر يتعلق بالمجموعات القادمة من مدينة جربة بتونس، أو من جبل نفوسة بليبيا، وذلك للاستعمال الواسع لعنصر القبة في هذه المناطق ولا سيما في المباني الثينية. كما نجد الأسلوب ذاته في التشييف متداولاً في العمارة الشعبية

بمصر، ومن أبرز النماذج مسجد سبع والمبشرين بمدينة أصوان الذي ينقسم إلى تسع فضاءات متساوية، مغطاة بقباب نصف كروية (1).

ينتج عن تقاطع الجوانب المعمودية والموزية فيما بينها داخل بيوت الصلاة في المصليات الجنتزية المنتمية إلى هذا النوع، فضاءات صغيرة غير متساوية تغطي بقباب نصف كروية متفاوتة البروز من الخارج أحياناً (الصورة 46 و 49)،



الصورة 49: غرداية، منظر خارجي لمصلى باعيسى أو علوان



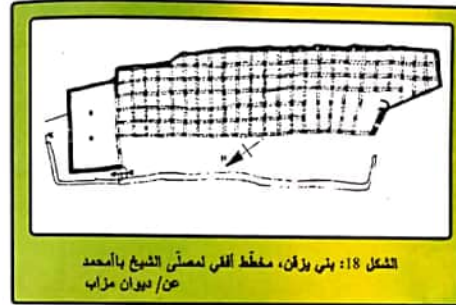
الشكل 17: غرداية، مخطط أفقي لمصلى باعيسى أو علوان (من ديوان مزاب)

(1) - رياض الرباط : المرجع السابق، من : 107.

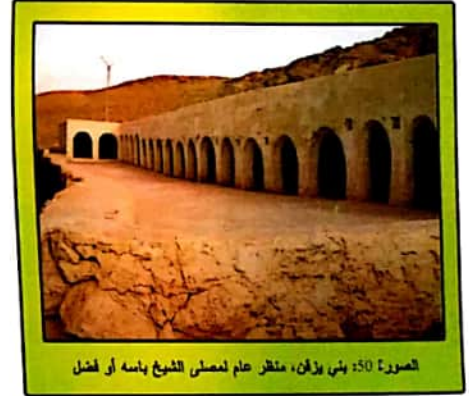
ومضمرة أو مفروسة في السقف (الصورة 45) أحيانا أخرى، وترتكز القباب هنا على دعائم مستطيلة أو مربعة وأحيانا غير منتظمة الشكل بواسطة عقود نصف دائرية . يظهر مخطط مصلى بابه والجهة الجنائزية بغرداية (الشكل 14) مختلفا تماما عن المخططات التي ألفنا مشاهدتها، ويتعلق الأمر بمخطط على شكل حرف T اللاتيني.

1-2 - المصليات الجنائزية ذات الأقبية :

يعدّ هذا النمط أكثر الأنواع انتشارا في منطقة مزاب. حيث إنّ القراغات الضيقة الناتجة من تقاطع البوائك المسائرة في اتجاه عمودي وموازي لجدار القبلة تحت



تغطيتها بأقبية نصف برميلية أو أقبية متقاطعة، وقد ساعد على سهولة إنجاز هذه الأقبية توفر مادة الجريد بكثرة في هذه المنطقة. وما يلاحظ في المصليات الجنائزية المنضوية تحت هذا النوع أنّ بيوت الصلاة فيها، تكون في أغلب الأحيان



مفتوحة بواسطة بانكة أو أكثر نحو الفضاء المفتوح (الصحن) الذي يحدّه سياج جداري، بحيث لا يتجاوز ارتفاعه 0,70م، ويظهر ذلك جليا في المصلى الجنائزي بالمحمد (الصورة 44) والشيخ باسه أو فضل⁽¹⁾ (الشكل 18، والصورة 50) ببني يزقن والمصلى الجنائزي عمّي إبراهيم بالمعطف (الصورة 34).

إنّ انفتاح بيت الصلاة نحو الفضاء المكشوف بهذا الشكل، لم يأت عفويا أو اعتباطا، بل كان استجابة لمتطلبات ملحة تمليها اعتبارات وظروف طبيعية ومناخية. فأغلب هذه المصليات بنيت على سفوح الهضاب الصخرية، وبما أنّ الجزء المغطى من هذه المباني يكون مواليا للجبل، فكان من الضروري تأمين الضوء والهواء لهذه الأقسام الداخلية المغطاة من الجهات الأخرى. فجاء الحل عبقريا وذلك بفتح بوائك نحو فضاء مكشوف.



بالنسبة لموقع الصحن بالنسبة لبيت الصلاة في المصليات الجنائزية المغطاة بالأقبية، فيكون في أغلب الأحيان في موقعه التقليدي كما جرت العادة في المساجد الإسلامية، أي خلف بيت الصلاة، وهذا ما نلاحظه في المصلى الجنائزي بالمحمد (الشكل 31) والمصلى

الجنائزي باسه أو فضل (الشكل 18)، وقد يأخذ الصحن موقعا محاذيا لبيت الصلاة سواء من جهة اليمين أو من جهة اليسار وهذا ما لمسناه في تصميم المصلى الجنائزي عمّي إبراهيم بالمعطف (الشكل 12).

(1) - يوجد هذا المصلى الجنائزي في الجهة الغربية لمدينة بني يزقن على بعد مائة متر تقريبا من الباب الغربي للمدينة، ويكزن على يسار المتوجّه إلى الأجنّة، ويُنسب إلى العالم الشيخ باسه بن فضل الذي عاش خلال القرن التاسع الهجري الرابع عشر ميلادي.

هناك ظاهرة لاحظناها في مساجد المدينة وتكرّر في بعض المصلّيات الجنائزية ذات الأقبية، ويتعلّق الأمر بالكَمّ الهائل من الدعامات الساندة، حتى ليعتقد المرء أنّه داخل غابة كثيفة من الدعامات التي تقوم بحمل السقف بواسطة عقود نصف دائرية.

تُرك داخل بعض المصلّيات الجنائزية فضاءات واسعة نوعاً ما مقارنة بالفضاءات المعمارية الأخرى. ولا شك أنّ هذه الفضاءات تُستغلّ لأداء وظائف معينة، ولا سيّما ما يتعلّق بحلقات الدرس، كما تُستغلّ كمجالس لتلاوة القرآن الكريم جماعياً، وتُغطّى هذه الفضاءات بأخشاب من جذوع النخيل وجريدها وأحسن مثال على ذلك ما نشاهده في مصلّى عمّي سعيد والمصلّى الجنائزي بأمحمد (الصورة 44).

أ - 2- المصلّيات الجنائزية المكشوفة:

هناك نوع آخر من مصلّيات المقابر في مزاب وهي عبارة عن ساحة واسعة مكشوفة تماماً، يحدّها سياج جداري بعلو لا يزيد عن 0,80م وفُتحت في واجهاتها القبليّة عنزة تبيّن اتجاه الكعبة وتؤدّي نفس وظيفة المحراب، كما فُتحت على جدرانها عدد كبير من الكوّات غير النافذة التي تُستخدم لوضع الأحذية والمصاحف والأدوات الضرورية لأداء الشعائر الدينية، وقد يبنى في وسط هذه المصلّيات المكشوفة عمود منتفخ في الأسفل وضيق في الأعلى، غُرست في أعلاه قضبان خشبية، حيث يُعلّق الأثاث الخاص لأداء الشعائر الدينية داخل هذه المنشآت. ويبدو أنّ المصلّيات المكشوفة على عطس المصلّيات الجنائزية المغطّاة لم تُشيد إلّا بعد دفن العالم بها، والذي سيمنح اسمه للمقبرة الجديدة فيما بعد.

الفصل الخامس

العناصر المعمارية والزخرفية
في العمارة المزابية

الفصل الخامس

العناصر المعمارية والزخرفية في العمارة المزابية

أولاً : العناصر المعمارية:

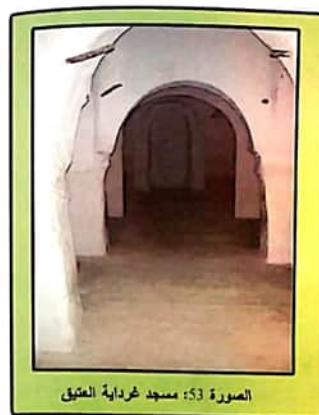
تتشكّل المساجد والمصليات الجنائزية في منطقة مزاب من جملة من العناصر المعمارية، ولكنّها لا تختلف عن العناصر المعمارية المستخدمة في العمارة الإسلامية بصفة عامّة إلا من حيث البساطة في الإنشاء وخلوها من الزخرفة.

1- المحراب :

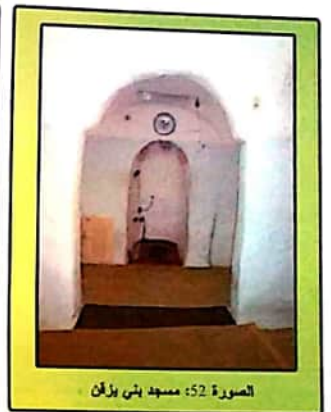
لقد أثار هذا العنصر المعماري باعتباره أحد أهمّ العناصر المعمارية في العمارة الدينية الإسلامية جدلاً كبيراً بين أوساط الأثاريين ومؤرّخي الفن حول أصله وظهوره لأوّل مرّة كعنصر معماري متميّز، فمن حيث أصله يرى بعض مؤرّخي الفن أنّه استلهم من الحنية التي تتقدّم الكنائس، والبعض الآخر يفترض الحنيات البوذية مصدر استلهم لهذا العنصر، ويربطها باحثون آخرون بمحاريب البيع اليهودية. وأمّا من حيث ظهوره في العمارة الدينية الإسلامية فيتفق مؤرّخو الفن على أنّ المحراب لم يتواجد في المساجد الإسلامية الأولى (مسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة، ومسجد البصرة ومسجد الكوفة)، ولكنهم في المقابل اختلفوا في تحديد تاريخ نشأته وظهوره داخل المسجد كعنصر معماري، فقد أرجعه بعض الباحثين اعتماداً على ابن بطوطة إلى عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وقيل إنّ مرواناً هو أوّل من ابتنى محراباً، ولكن أغلبهم جعل بداية ظهوره في عهد ولاية عمر بن عبد العزيز بالمدينة المنورة فيما بين 88 - 90 هـ / 706 - 710 م⁽¹⁾، إلّا أنّ أحمد فكري يعترض كلّ الافتراضات السابقة حول قضية ظهور المحراب، ففي اعتقاده أنّ محراب جامع القيروان يُعدّ الأوّل ظهوراً، وإذا أخذنا بهذا الرأي الأخير يكون تاريخ استعمال المحراب كعنصر معماري في المسجد بداية من سنة 50 هـ / 670 م⁽²⁾.

(1) - أحمد فكري: المسجد الجامع بالقيروان، مطبعة المعارف القاهرة، 1936، ص: 56-57.

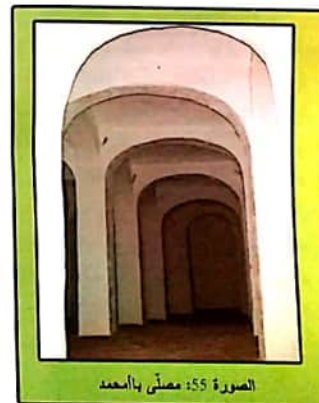
(2) - مرجع نفسه، ص: 59-60.



الصورة 53: مسجد غرداية العتيق



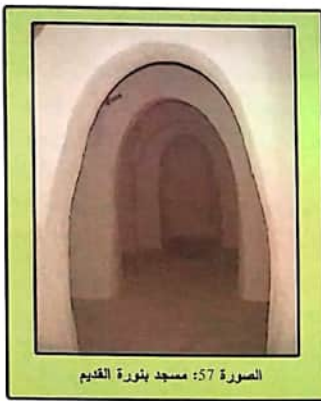
الصورة 52: مسجد بني يرقان



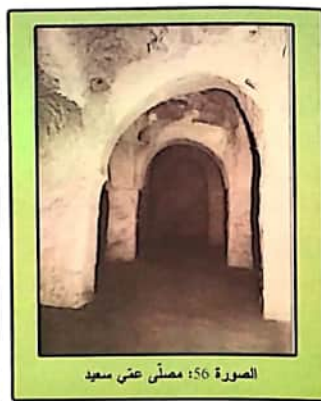
الصورة 55: مصلى بالأحمد



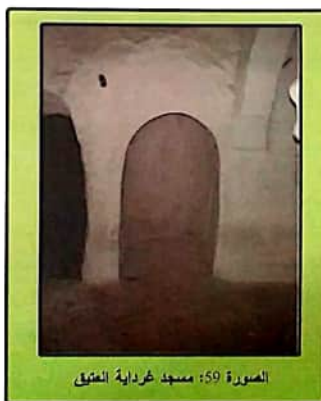
الصورة 54: مسجد غرداية العتيق



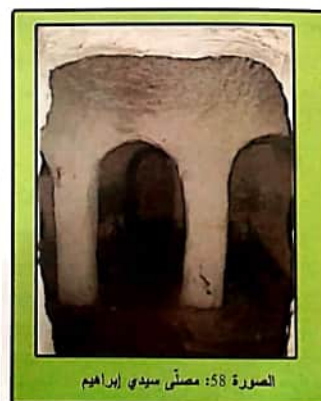
الصورة 57: مسجد بنورة القديم



الصورة 56: مصلى عتي سعيد



الصورة 59: مسجد غرداية العتيق



الصورة 58: مصلى سيدي إبراهيم

أُخذ المحراب في العمارة الدينية الإسلامية شكل فتحة مجوّفة وسط جدار القبلة، وتتمثل وظيفته أساساً في إيواء الإمام الذي يؤمّ الجماعة، بالإضافة إلى تعيين وإبراز اتجاه القبلة، وقد أعطى أحمد فكري تفسيراً يبدو مقنعاً حول بناء المحراب في شكل تجويف أو حنية، ففي رأيه فالإمام الذي يتقمّم المصلّين يكون منعزلاً عنهم، فيحتلّ بذلك صفّاً بأكمله أي يحتلّ فضاء كبيراً في المسجد، وبما أنّ المهندس المسلم كان يحرص دوماً على استغلال كلّ الفضاءات المتوفّرة لديه قدر المستطاع، فقد عمد إلى فتح تجويف داخل جدار القبلة تكون بقدر نسب الإنسان أو تزيد عنها ليأوي إليها الإمام، بحيث تسمح له بأداء فرائض الصلاة من ركوع وسجود ووقوف بارتياح ودون عناء⁽¹⁾. وهنا لا بد أن نشير إلى أنّ الاتجاه نحو الكعبة يكون عن طريق جدار القبلة.

ولإبراز المحراب كعنصر هامّ داخل بيوت الصلاة، فقد خصّه المهندس المسلم بعناية بالغة، فأبدع وبرع في تزيين وتتميق تجويفه والإطار المحيط بها بزخارف متنوّعة نباتية وهنسية وكتابية وصلت حدّ الإسراف أحياناً، وذلك باستخدام مواد مختلفة مثل الحجر والجص والرخام والبلاطات الخزفية.

تظهر المحاريب في المآثر الدينية الإباضية (المساجد والمصلّيات الجنائزية) بوادي مزاب على شكل فتحة مجوّفة بسيطة بجدار القبلة وهي قليلة الانضباط وذات مخطّط نصف دائري، ولا نرى للمحاريب ذات التصميم المضلّع وجوداً في مساجد هذه المنطقة، كما يشير إلى ذلك جوزيف شاخت⁽²⁾. ولكن في المقابل نلاحظ وجود هذا التصميم المضلّع في المصلّى الجنائزي عتي إبراهيم (الشكل 11)، والمصلّى الجنائزي بالمحمد فقط (الشكل 12).

تتمهي المحاريب في جزنها العلوي بحنية معقودة بعقد نصف دائري (الصور 52، 53، 54، 55، 56، 57، 58، 59) وأحياناً على شكل حدوة الفرس (الصورة 83)، ولا يكتفيها عمودان كما عهدنا ذلك في معظم المنشآت الدينية في كل أنطار العالم الإسلامي. وتشغل المحاريب في العمارة المزابية حيزاً معمارياً في جدار القبلة داخل بيوت الصلاة سواء كان ذلك في المساجد أو في المصلّيات الجنائزية المغطاة، وتوجد أيضاً في صحنون المساجد (الصورة 15). وتظهر على شكل "عنزة" في سطوح المساجد وفي المصلّيات الجنائزية المكشوفة.

(1) - أحمد فكري: المرجع السابق، ص: 60.

(2) - Joseph Schacht : La Diffusion , pp : 18 - 19 .

إنّ بساطة المحراب تتفاعل وتتسمج مع روح العمارة المحلية التي تمتاز بالبساطة الإنسانية، ونعتقد أنّ هذه البساطة نابعة أصلاً من الفكر الإباضي الذي يتشدد في مسائل تزيين وزخرفة أماكن العبادة⁽¹⁾. حيث يقصد من وراء ذلك التحريم لإعداد كلّ ما يمكن أن يشغل فكر المصلّي ويلهيه عن صلاته، ويشكّل عائقاً أمام خشوعه.

ولا تقتصر ميزة البساطة والتشّيف في البناء على محاريب مزاب فقط، بل تعمّ هذه الخصوصية أيضاً المآثر الدينية التي شيدت في شمال إفريقيا، لاسيما تلك المناطق التي شهدت تركز الجماعات الإباضية فيها مثل مساجد جربة⁽²⁾ ومساجد جبل نفوسة بليبيا⁽³⁾.

تشكّل المحاريب بروزاً ونقوشاً نحو الخارج على شكل كتلة غير واضحة المخطّط، بحيث تبدو فضّة وغليلة في الأسفل ونقلّ تلك الفضاضة كلّما زاد في الارتفاع نحو الأعلى.

لقد امتازت بعض الجماعات الإباضية بالمحافظة على المحاريب القديمة أثناء التوسّعات والإضافات اللاحقة على المبنى، ويبدو أنّها كانت تتّبع في ذلك إحدى آراء الفكر الإباضي في هذه القضية، حيث يقول البطاشي في هذا الصدد ما يلي :

ومن يكن أمّس مسجداً وقد	أراد بعد ذلك فيه أن يزيد
أو أنّه قبلاً صغيراً كان	وشاء أن يوسّع الأركان
فذاك جائز ولو أن يهتمّ	جميعه ولو المحراب سما
وذا هو الصحيح والبعض يرى	يهتمّ عن جوانب ومن وراء
لا من أمامه وقيل إلّا	محرابه لا يهتمّ أصلاً ⁽⁴⁾

(1) - للنظر في رأي المذهب الإباضي حول قضية تزيين المساجد ينظر الجبالي: قناطر الخيرات باب فصل المساجد ص: 345-349.

(2) - ينظر : رياض المزابي : جوامع ومساجد جزيرة جربة ص: 40 - 44.

(3) - ينظر : علي مسعود البلوشي وآخرون : المرجع السابق ، ص: 16.

(4) - البطاشي : المرجع السابق، ج: 4، ص: 326.

إنَّ طبيعة مناخ المنطقة الذي يمتاز بالحرارة الشديدة صيفاً، فرضت على إياضية وادي مزاب اللجوء إلى السطوح في الليالي الصيفية، فكان لا بدّ إذا من إقامة محاريب أو ما يسمى بالعنزة في سطوح المساجد. كما تبنى هذه العنزات في المصلّيات الجنائزية المكشوفة.



الصورة 60: محرابا صحن مسجد غرداية العتيق

إنَّ ما يسترعي انتباهنا في كلّ من المسجد العتيق بغرداية (الشكل 6) ومسجد بني يزقن (الشكل 9) تكرار ظاهرة وجود محرابين متجاورين سواء داخل بيت الصلاة أو في الصحن، إذ إنّ المساقفة بين المحرابين متقاربة

جداً ممّا يدفع الباحث إلى طرح التساؤل عن الغرض الذي أنشئ من أجله المحرابان. وعلى الرغم من أنّ الرواية الشعبية ترجع هذه الظاهرة إلى عامل التوسّع والإضافات المتتالية التي شهدتها المسجدين وما انجز عنها من محاولة الاحتفاظ بالمحراب القديم نظراً لقيّمته الدينية والتاريخية، فإنّنا نستبعد هذه الفكرة، نظراً لأنّ التوسّعات التي تتبّعناها في كلا المسجدين، تجعل أحد المحرابين فقط يؤكّد فكرة التوسّع، ويبقى الثاني يشكل علامة استفهام، فما هو الغرض إذاً من بناء محرابين متجاورين ؟

وهناك رأي آخر في هذه المسألة يتبنّاه بعض المهتمّين بالتراث الأثري، فيشيرون إلى أنّ أحد المحرابين داخل بيت الصلاة شُيّد ليُمثّل محراب مسجد قصر تافلات (يشكّل النواة الأولى لمدينة بني يزقن) - وذلك باعتباره أوّل مسجد في القصر - الذي تمّ الاستغناء عنه عند بناء مسجد بني يزقن الكبير، وذلك بمثابة ذكرى للمسجد القديم. إنّ فكرة بناء محراب

المحراب	العرض/م	العمق/م	الارتفاع/م
محراب مسجد بنورة	0,88	0,98	1,79
المحراب الأصلي مسجد غرداية	0,70	0,75	1,80
محراب التوسّع الأوّل مسجد	0,90	0,50	1,80
محراب الحديث مسجد غرداية	0,39	0,50	2,22
المحراب الأصلي مسجد بني يزقن	0,90	0,62	1,80
محراب التوسّع الأوّل مسجد بني يزقن	0,90	1,10	1,90
المحراب الأصلي مسجد القرارة	0,90	X	1,90
المحراب الحديث مسجد القرارة	1,50	1,26	2,20
محراب مصنّى عتي إبراهيم	0,28	0,83	1,55
محراب مصنّى بالمحمد	0,80	1,30	1,85
محراب مصنّى عتي سعيد	0,80	1,15	1,85

يتّضح من خلال الجدول المبين أعلاه أنّ المحاريب في مساجد مزاب ومصلّياتها الجنائزية عموماً قليلة الانضباط، لأثّة علاقة تناسبية فجميعها عبارة عن فضاء صغير مفتوح في جدار القبلة يؤدّي وظيفة إيواء الإمام، ونلاحظ أنّها تتميز باعتمادها من حيث الحجم على نسب آدمية، فالارتفاع ما بين 1,70م و 1,80م، والعرض يتراوح ما بين 0,70م و 0,90م، في حين يتراوح عمقها ما بين 0,56م و 1,30م.

التكري لمسجد قديم لم نعهدها في العمارة الدينية الإسلامية، وحتى في حالة ما إذا سلمنا بهذا الرأي، فهناك تساؤل هام لا بد من طرحه، فلماذا لم يُبين هذا المحراب الذكرى إلى جانب المحراب الأول في المسجد (النواة الأولى)؟ وترك إلى فترة التوسع الثاني، وانطلاقاً من هذا فهذا الرأي في تصوراتنا بعيد كل البعد عن الحقيقة العلمية ويحتاج إلى الأدلة والبراهين.

إننا نعتقد أن منطقة وادي مزاب استناداً إلى بعض رسائل بعض علماء القرن التاسع الهجري⁽¹⁾ كانت تعيش فترة تاريخية عصبية لاسيما في بداية القرن التاسع الهجري، إذ يفهم من خلال الرسالة التي بعثها عتي سعيد الجربي إلى فقهاء الإباضية بعمان أن الجهل والظلام قد خيم في ربوع مزاب، حتى وصل الأمر إلى حدّ الفرقة بين أتباع المذهب الإباضي، إذ ظهر فريقان متخاصمان ومتصارعان كانا يعرفان باسم الصفّ الشرقي والصفّ الغربي، وقد وصل الصراع والنزاع والتناحر بينهما إلى حدّ اتخاذ كل فريق محراباً له في المسجد، بدلاً من بناء مسجد آخر، وذلك تماشياً مع تقاليد وأعراف المنطقة التي تمنع بناء مسجد ثانٍ في المدينة الواحدة. ويبدو أن هذه الوضعية قد أزعجت زعماء إباضية وادي مزاب، فأرسلوا في طلب نجدة من إخوانهم في جربة، فبعثوا إليهم الشيخ عتي سعيد الجربي، وبفضل جهوده وجهود تلميذه أبي مهدي عيسى توخدت صفوف المزابيين من جديد، وتمّ القضاء فيما يبدو على تلك البدعة (إنشاء محراب لكل فريق في مسجد المدينة)، وخير ما نستدل به كلامنا، هو اختفاء الظاهرة تماماً أثناء التوسع الذي لشرف عليه الشيخ عتي سعيد شخصياً في مسجد غرداية العتيق، وعدم بروزها مرة أخرى عندما تمّ بناء مساجد جديدة إبان القرن العاشر الهجري السابع عشر الميلادي مثل مسجد القراة ومسجد بريان.

واعتباراً أن الظاهرة اختفت بفضل جهود العالمين الإباضيين عتي سعيد الجربي وأبي مهدي عيسى (القرن 9 - 10 هـ / 15 - 16م)، فيمكن اتخاذها كقرينة تاريخية بالنسبة لتحديد تواريخ بعض التوسعات - ولو نسبياً - التي تمت في المسجد الكبير ببني يزقن والمسجد العتيق بغرداية.

إن ظاهرة تعدد المحاريب لم تكن تقتصر على مساجد وادي مزاب، بل شأهناها حتى في بعض المساجد الإسلامية الكبرى القديمة مثل جامع الأموي بدمشق، حيث خصّص لكل مذهب

(1) - رسالة الشيخ عتي سعيد بن علي بن يحيى بن بدر بن سليمان بن عثمان الجربي إلى فقهاء عُتَن. ينظر : رسالة مخطوطة في مكتبة الشيخ صالح لملي ببني يزقن.

محراب، فنجد مثلاً محراب الحنفية ومحراب الحنابلة ومحراب المالكية⁽¹⁾.

تخلو محاريب العمان الدينية المزابية من كل أشكال الزخرفة، ولا شك أن لفكر المذهب الإباضي أثره في هذه قضية، وفي هذا الصدد يقدم لنا البطاشي في كتابه السلاسل ملخصاً حول رأي المذهب الإباضي في قضية تحريم الزخرفة في جدار القبلة وحتى الخطبة منها، ومما لا شك فيه أن المقصود من المنع هنا هو المحراب باعتباره المجال الأوفر حظاً في جلب اهتمام وعناية الفنان المسلم، وتكون الزخرفة في العموم على مستوى تجويف المحراب وإطاره، وقد لخص البطاشي ذلك في الأبيات الآتية :

وعن أبي محمد المجيد	لا يكتبن في قبلة المسجد
شيء من الكلام وهو يعوق	خشية أن يشغل من قد يقف
من حكم القرآن أو موعظة	ولا يجوز فيه جعل صورة ⁽²⁾

إذ ففضية منع الزخرفة بكل أنواعها في المذهب الإباضي كان من باب عدم إلهاء المصلّي وصرف انتباهه أثناء أدائه للصلاة، وعدم إعاقته من الخشوع الذي يُعدّ من الشروط الأساسية لإقامة الصلاة.

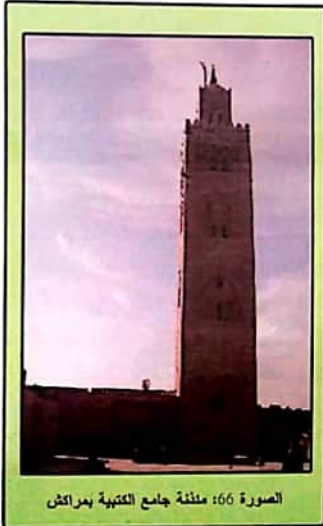
2- المذنبه :

تعدّ من العناصر المعمارية الأساسية والمتميّزة في عمارة المساجد أو المدارس، وأصبحت رمزاً يدلّ على قيام المسجد ويزيد من سموه ورفعته، ولعل تلك الأهمية كانت هي العامل الرئيسي في تخصيصها بالرعاية اللازمة والعناية البالغة من قبل المعماري المسلم، وهذا ما جعلها تتطور وتتوّع طرزها مع تعاقب العصور.

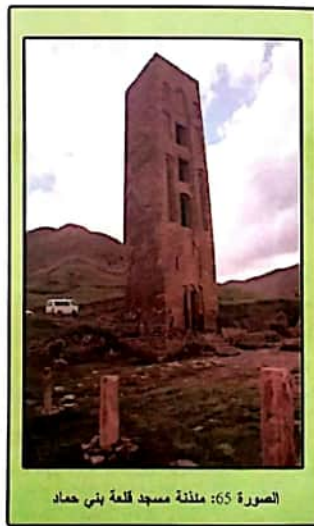
(1) - ينظر بهنسي عتيق : الفن الإسلامي، ص : 40.
(2) - البطاشي : المصدر السابق، ج : 4، ص : 328.

ويتفق مؤرخو الفن على أن أول ظهور للمنذنة كان في الجامع الأموي بدمشق ويعود تاريخها إلى العصر الأموي، حيث استخدمت الأبراج القديمة للمعبد الوثني كمآذن.

لقد كانت وظيفة الأذان تقام قبل ذلك من أعلى سطوح المساجد إقتداء بمؤذن الرسول ﷺ⁽¹⁾، وتتمثل الوظيفة الأساسية للمنذنة في إعلان أوقات الصلاة بواسطة المؤذن الذي يسمي من خلال صوته إلى دعوة الناس من كل أطراف المدينة الإسلامية إلى الصلاة خمس مرات في اليوم، وبالإضافة إلى ما سبق ذكره استخدمت المنذنة لمراقبة الأهلة ولحراسة ثغور المدينة، ولغرض أداء هذه المهام على أحسن وجه، فإنه يُراعى في بنائها حسن اختيار موقعها داخل المسجد الذي لا بد أن يأخذ هو الآخر مكانا استراتيجيا بالنسبة للمدينة.



الصورة 66: منئنة جامع الكتبية بمراكش



(الصورة 65: منئنة مسجد قلعة بني حماد

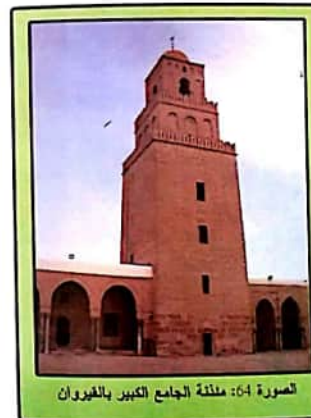
(1) - Lucien Golvin : La Mosquée, pp :51 – 52 .



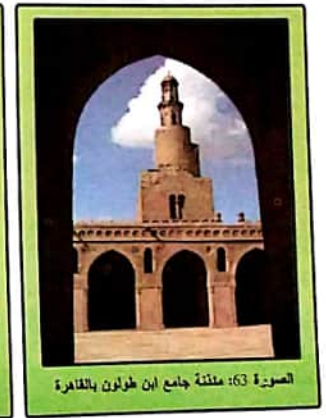
الصورة 62: منئنة الملوية بالجامع الكبير بمسماراء



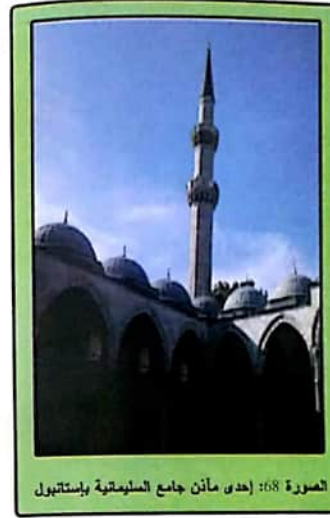
الصورة 61: إحدى مآذن الجامع الأموي بدمشق



الصورة 64: منئنة الجامع الكبير بالفيروان



الصورة 63: منئنة جامع ابن طولون بالقاهرة



الصورة 68: إحدى مآذن جامع المسلمين في إستانبول



الصورة 67: إحدى مآذن جامع الأثرين بالقاهرة

عرفت المئذنة بتسميات مختلفة، حيث أطلق عليها تسمية المئذنة انطلاقاً من وظيفتها الأساسية التي تؤذيها وهي الأذان. كما سُمّيت بالمئذنة نظراً لتشابهها الكبير مع منارة الإسكندرية، ويمكن أن تكون حتى مصدر إلهام لها، وأطلق عليها أيضاً اسم الصومعة، ويرجع هذا ربما إلى أن العرب كانوا يسمون أبراج الزخاد بالصوامع⁽¹⁾، وقد وردت هذه التسمية حتى في القرآن الكريم في قوله تعالى "...وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسِ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصُلُواتٌ وَمَتَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا مِنْهُ إِنَّهُمْ لَشَاءُوا..."⁽²⁾، ولعل هذه المآذن كانت تشبه في تصميمها تلك الأبراج وما زالت تسمية الصومعة متداولة لدى سكان بلاد المغرب الإسلامي⁽³⁾.

(1) - زكي محمد حسن فنون الإسلام ص : 144.

(2) - سورة الحج الآية : 40.

(3) - Robert Irwin : Le Monde Islamique, Trad Denis - Amond Canak, Ed Flammarion, Hong Kong 1997, pp: 63 - 64.

وهناك تسمية أخرى تبقى متميزة أطلقت على المئذنة في بلاد المغرب، فسكان وادي مزاب إلى حدّ اليوم يطلقون على المئذنة اسم "العساس" بمعنى مكان المراقبة والحراسة، وهذا ما يؤكد الدور الثانوي الذي يمكن أن تؤدّيه المئذنة إضافة إلى وظيفة الأذان.

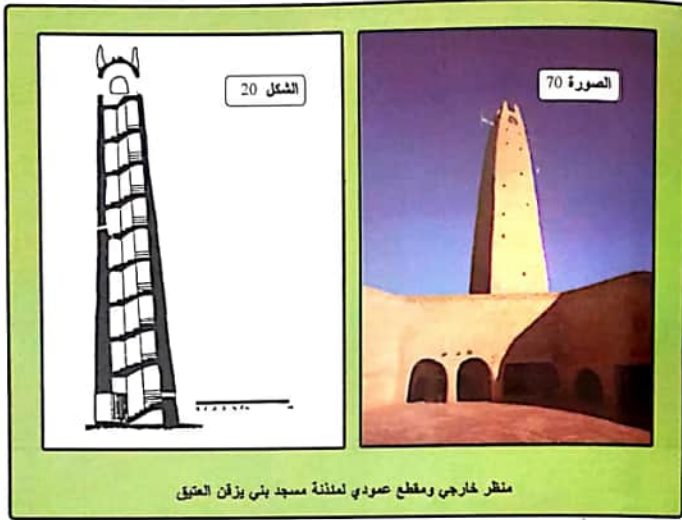
لقد حظيت المئذنة باهتمام وعناية كبيرة من قبل المهندسين المعماريين المسلمين واتخذت أشكالاً وأنماطاً معمارية متنوعة ومختلفة، فظهرت بتصميم مربع الشكل في سوريا وبلاد المغرب والأندلس، وحلزونية الشكل في سامراء، ثم اتخذت شكلاً أسطوانياً مستديراً أو قلمياً في كل من إيران وتركيا، بينما أثرت مصر المملوكية طرازاً مركباً من المربع والمثلث والاسطوانة. ولم يُخصّص للمئذنة موقع خاص في هيكل المسجد، كما هو الشأن بالنسبة للمحراب، فيمكن أن تكون جزءاً من مبنى المسجد، كما هو الحال في جامع الأموي بدمشق وجامع القيروان وجامع قرطبة وجامع المنصورة أو قائمة بذاتها وسط الصحن كما هو الحال في الجامع الكبير بسامراء⁽¹⁾.

يختلف عدد المآذن في المساجد الإسلامية، فمن مئذنة واحدة إلى ستة مآذن بجامع السلطان أحمد بإستانبول فقد نجد مئذنة واحدة كما هو الشأن بالنسبة لأغلب المساجد الإسلامية الأولى والمساجد الأندلسية المغربية، ويبدو أن المعماري المسلم كان يبحث عن صيغة للوصول إلى نوع من التوازن في واجهات المساجد فأضاف مئذنة ثانية ومن هذه الفكرة برزت المساجد الإيرانية والمدارس السلجوقية ذات المئذنتين. كما قد تعلو في المسجد ثلاثة مآذن مثل الجامع الأموي بدمشق، ويرتفع العدد إلى أربعة في المساجد العثمانية، حيث نلمس التوازن في البناء، إذ تأخذ هذه المآذن مكانها في أركان بيت الصلاة فقط أو في أركان المسجد. وأخيراً يبدو أن مهندس جامع السلطان أحمد (1018-1026هـ/ 1609-1617م) محمد أغا أراد تمييز إنجازه عن إنجازات سابقه فأضاف مئذنتين أخريين، ليصبح عددها الإجمالي ستة مآذن.

لقد أسرف الفنان المسلم في تحلية وزخرفة هذه المآذن بكل أنواع الزخارف (نباتية وهندسية وكتابية) لأنها كانت تعكس الوجه الظاهر والبارز للمسجد، فاستعمل لذلك أنواعاً مختلفة من المواد مثل الحجر والقشاني واللوحات الخزفية والرخام والزليج.

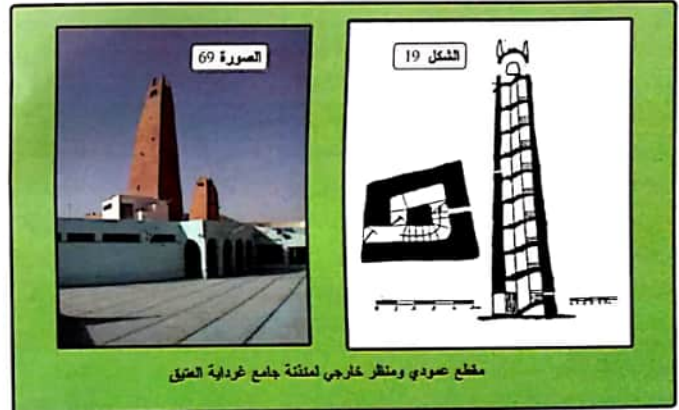
اتخذت مآذن وادي مزاب لنفسها نمطاً معمارياً متميزاً، يختلف عن الطرز التي أشرنا إليها سابقاً. حيث أن البناء المزابي اختار نمطاً معمارياً متميزاً وطبقه في كل المساجد، ولم يحد عنه

(1) - تروث عكاشة : المرجع السابق ، ص : 119.



وقد نتساءل عن ما إذا كانت لهذه المباني الهرمية الشكل علاقة بالعمارة الفرعونية التي تعتمد أساساً على هذا الشكل؟ لا نستبعد فكرة تأثير العمارة البربرية بمشيلاتها الفرعونية، خاصة أنه لا يوجد أي عائق طبيعي يمكن أن يكون حاجزاً مانعاً أمام عملية انتقال الثقافات التي كانت تتم بواسطة الحركة التجارية، ويفهم من خلال ما نقله المؤرخون القدامى حول وصول أحد البرابرة الليبيين إلى كرسي العرش الفرعوني وأخذه لقب فرعون⁽¹⁾، أن احتكاكاً كبيراً كان يتم بين الحضارتين الفرعونية والبربرية.

عبر مختلف الفترات التاريخية حتى صار مع مرور الزمن أحد رموز المجتمع المزايبي، حيث تبدو المنذنة في شكلها العام (من القاعدة إلى قمة الجوسق) على هيئة هرم ناقص، وهذا ناتج عن ميلان واجهات المنذنة الأربعة في شكل انسيابي نحو الداخل، وهكذا تضيق الجدران كلما زادت في الارتفاع. لقد أثار هذا الشكل نقاشاً وجدالاً بين مؤرخي الفن حول أصل ومنشأ وانتشار هذا النمط المعماري. ومن الطبيعي جداً أن يطرح هذا الطراز غير المألوف في العمارة الإسلامية تساؤلات عن أصله؟ ومنشأه؟ كما أن عملية انتشاره في بعض المناطق الإفريقية تثير جدلاً حقيقياً في كيفية انتقاله؟ ومن له السبق في ابتكار هذا الطراز؟ وفي هذا الإطار يشير هنري تيراس Henri Terrasse إلى أن الممانر ذات الشكل الهرمي الناقص انتشرت بقوة في مواطن عديدة من سلسلة الأطلس الصحراوي، فكان انتشارها حسب رأيه انطلاقاً من المغرب الأقصى، وتكاثرت في الواحات ثم استمرت إلى أن ظهرت في واحة سيوة بصحاري مصر. كما لاحظ تواجدها أيضاً في اليمن والجزيرة العربية⁽²⁾. وقد انتشر هذا الطراز بشكل ملفت للانتباه في بلاد السودان الغربي فمعظم مساجد هذه المنطقة تضم في هيكلها منذنة ذات شكل هرمي ناقص⁽³⁾.

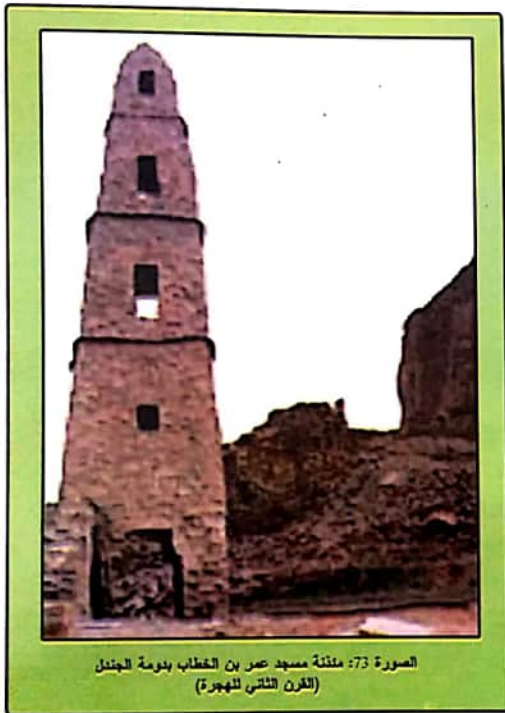


(1) - Henri Terrasse : Kasbas Berbères de l'Atlas et des Oasis, Horizons de France, Paris 1938, p : 30.

(2) - Didier Willems : Op.cit, pp ; 84-110 .

(1) - ينظر سويل الدريد : الفن المصري القديم، تر: أحمد زهير، وزارة الثقافة، هيئة الآثار المصرية، القاهرة 1990، ص : 261.

ونعتقد أن الأهرامات المصرية والأبراج البابلية المعروفة باسم الزيقورات البابلية هي مصدر إلهام بالنسبة لكل العمارات التي اتخذت شكل الهرم الناقص في بنائها بصفة عامة.



الصورة 73: منارة مسجد عمر بن الخطاب بدومة الجندل (القرن الثاني للهجرة)

وإذا ما حاولنا البحث عن المآذن التي تنتمي إلى طراز المآذن المزايبة، فإننا نلاحظ انتشارها بالخصوص في بلاد السودان الغربي⁽¹⁾ وليبيا⁽²⁾ ومصر بواحة سيوة خصوصا⁽³⁾ واليمن لا سيما في مناطق حضرموت وزبيد وشيأما، حيث اتخذت المآذن تصميمًا، مسقطه من الأسفل أكبر

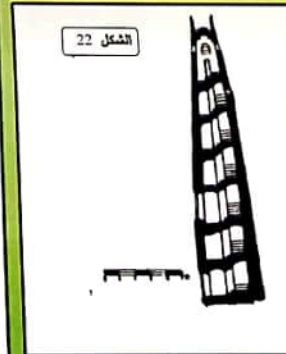
(1) - Marcel Mercier: "Notes Sur une Architecture Berbère Saharienne", in Hespéris pp : 422 - 426 .

(2) - ينظر: علي مسعود البلوشي وآخرون : المرجع السابق، ص: 165 - 168 .

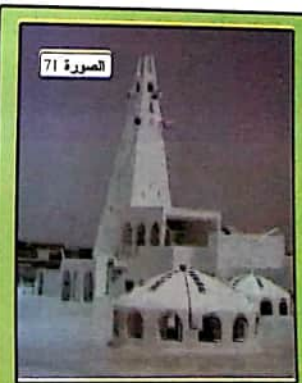
(3) - ينظر أسامة النحاس: صارة الصحراء، مكتبة الأنجلو المصرية، دت، ص: 228 - 233 .



الصورة 72



منظر خارجي ومقطع عمودي منارة مسجد بريان

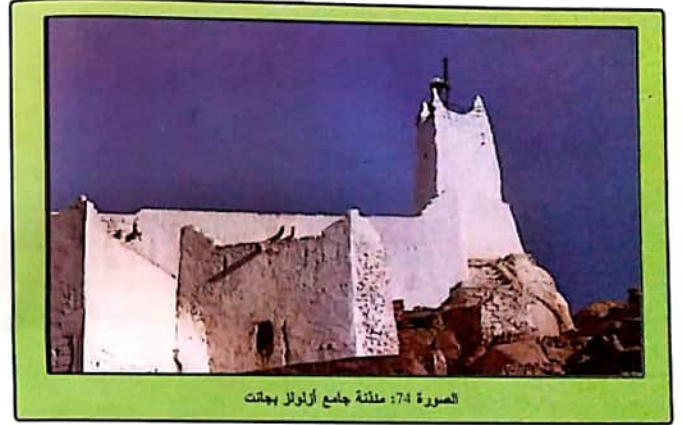


الصورة 71



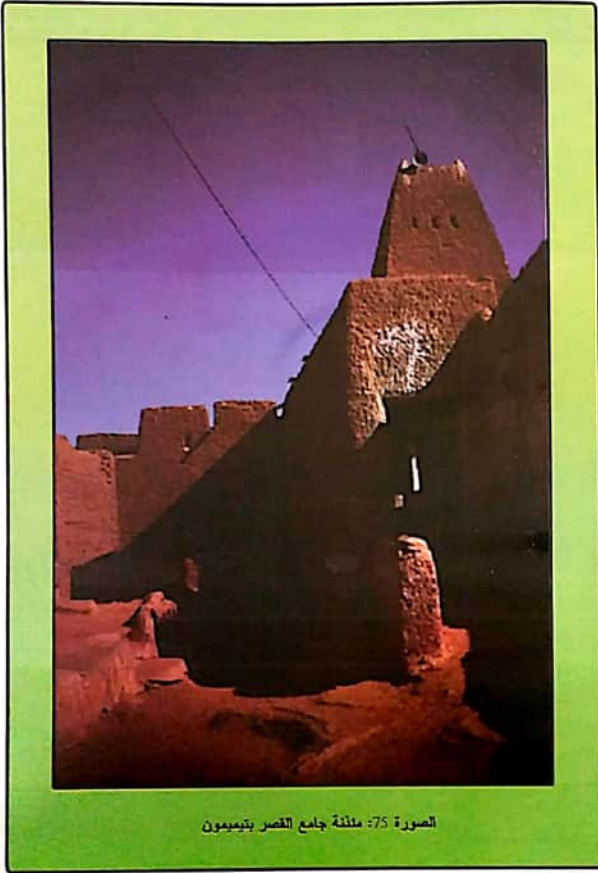
منظر خارجي ومقطع عمودي منارة مسجد الترابية للحق

مسقطه في الأعلى⁽¹⁾. وفي الجزيرة العربية بدومة الجندل⁽²⁾، إلا أنه لا بد من طرح التساؤل الآتي: أين ظهر هذا النمط المعماري لأول مرة؟ فبعد أن دققنا البحث في هذا المجال يتضح لنا [في حالة ما إذا ما أخذنا المعلومات التاريخية بجدية- أن المنذنة التي ترتفع في مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مدينة الجوف بدومة الجندل⁽³⁾ (الصورة 73) والتي يعود تاريخ بنائها حسب بعض مؤرخي الفن إلى سنة 71 هـ، وحسب فريق آخر فإنها تعود إلى فترة متقدمة حوالي القرن الثاني للهجرة⁽⁴⁾، تعد النموذج الأول لطراز المآذن ذات الشكل الهرمي الناقص.

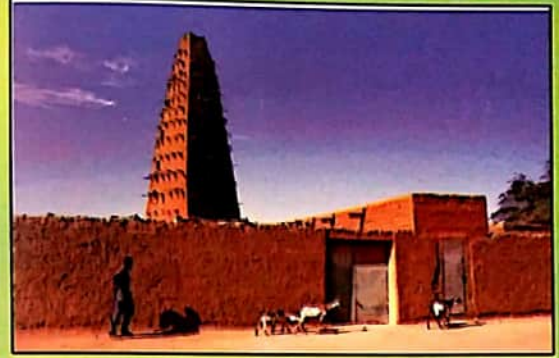


الصورة 74: منارة جامع أولول بهات

- (1) - ينظر: محمود إبراهيم حسين: المآذن اليمنية دراسة أثرية فنية، دار الثقافة العربية، القاهرة 1991، ص: 37-57.
 (2) - ينظر: يوسف أبو عواد: "دومة الجندل التاريخ والمآذن" (مدينة والتاريخ) "مجلة النيسل"، ع: 89، أوت 1989، ص: 20-29.
 (3) - تمتعت اسمها، قيل عنها دومتا، وقيل الجوف أو جوف آل عمرو، وقيل كذلك عقدة الجوف والخيث، ويُفهم من خلال النقوش التي خلفها الآشوريون أن دومة الجندل لم تكن عريبت إحداهن تلقب بشنار، وقد كانت لهذه المدينة أهمية بالغة في العصر الجاهلي من خلال سوقها التجاري. لقد قام النبي ﷺ بغزو دومة الجندل في السنة الخامسة للهجرة، وقد أسلمت بفضل جهود عبد الرحمن بن عوف. كانت المنطقة في العهد العثماني الطريق الرئيسية بين الشام والجزيرة العربية والعراق والعقبة، ودخلت تحت الحكم السعودي ابتداء من سنة 1920. ينظر يوسف أبو عواد: المرجع نفسه، ص: 22-24.
 (4) - يوسف أبو عواد: المرجع السابق، ص: 24.

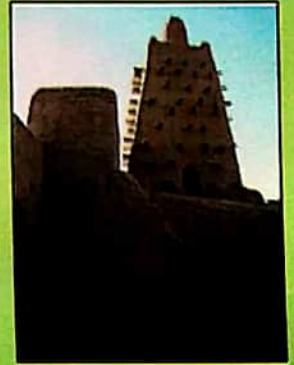


الصورة 75: منارة جامع القصر بتميمون



الصورة 76: تومبوكتو؛ مكتبة جامع تومبوكتو

وفيما يتعلق
بالنقاش والجدل
الذي أثير حول
مآذن مزاب
وبلاد السودان
الغربي أتيهما
تأثر بالآخر، فقد
أكد كل من
الباحثين
العمشوقيين



الصورة 77: مكتبة جامع أغاديس

مارسيل مرسويه M. Mercier⁽¹⁾ وجوزيف شاخت J. Schacht⁽²⁾ اعتماداً على قرائن تاريخية ومعمارية أن مآذن مزاب كانت الأسبق في البناء، ليقوم التجار المزابيون بنقل هذا النمط إلى بلاد السودان الغربي. وهنا تبرز أهمية حركة التجارة في عملية نشر الثقافات بين الشعوب.



الصورة 78: مكتبة جامع سنكوري

تبدو زاوية ميل بعض مآذن مزاب من الخارج في جزئها العلوي منحرفة قليلاً نحو جهة معينة (الصور 69، 70)، وقد أعطى بعض المعماريين من المنطقة تفسيراً - بعد دراسة مستفيضة حول مناخ المنطقة - لهذه الظاهرة، ففي رأيهم فإنّ البناء المزابي عمد إلى هذه الطريقة في البناء كوسيلة لجعل من هيكل المئذنة أكثر مقاومة للرياح القويّة التي تعصف

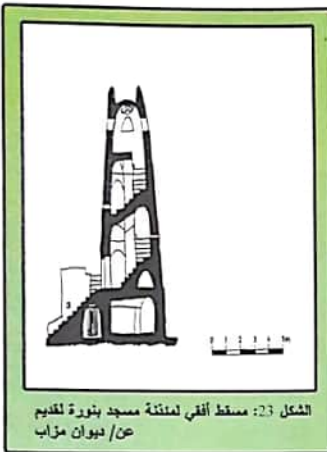
(1) - Marcel Mercier : La Civilisation ..., pp : 97-98.

(2) - J.Schacht ; Op.cit , pp :19-27.

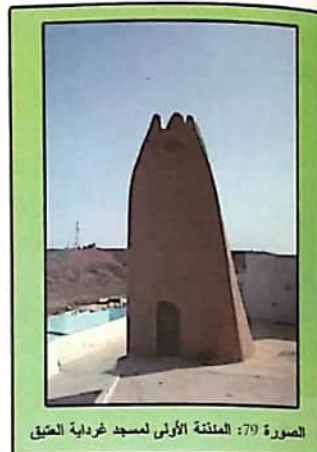
على المنطقة من تلك الجهة. يمكن لنا تقبل هذا الطرح، ولكن في اعتقادنا أن الشكل الهرمي العام للمنذنة كفيل بإعطاء المتانة والمقاومة اللازمة للمبنى دون اللجوء إلى تلك التقنية، حيث نلاحظ تطبيق هذا الشكل في بناء الأبراج للغرض ذاته. ونظن أن ذلك الانحراف نشأ بسبب نقص الإمكانيات الإنشائية لدى البناء المزابي الذي اعتمد على وسائل بدائية في إنجازاته المعمارية خلال تلك الفترات التاريخية.

فُتحت في واجهات المآذن عدد من الفتحات الصغيرة تشبه في شكلها المزاغل أو ما يسمى بفتحات الرمي، وهذا دليل آخر لقيام المنذنة بوظيفة ثانوية تتمثل في حماية المراقبة والحراسة، وهذا بالإضافة إلى الدور الأساسي الذي تؤنيه الفتحات داخل المبنى، ألا وهو التهوية والإضاءة.

المنذنة	الارتفاع م	أبعاد القاعدة م	أبعاد الفتوة المركزية / م	عدد الدرجات	عدد الطوابق
منذنة مسجد بنورة	12,50	4×4,60	0,80×0,80	26	03
المنذنة الصغيرة بمسجد غرداية	09,50	ما بين 1,68 و 2,18	0,15×0,25	07	02
المنذنة الكبيرة بمسجد غرداية	24,50	ما بين 3,80 و 5,10	0,80 و 1,50	114	10
منذنة مسجد بني يزقن	22	ما بين 3,60 و 4	0,62×0,80	65	08
منذنة مسجد القرارة	21,90	5×5,40	1×1,50	83	07
منذنة مسجد بريان	19,50	ما بين 2,47 و 2,70	ما بين 1,12 و 0,66	86	07



الشكل 23: مسقط أفقي لمنذنة مسجد بنورة لقديم عن/ ديوان مزاب



الصورة 79: المنذنة الأولى لمسجد غرداية العتيق



الصورة 80: منذنة مسجد قمبر بنورة القديم

عندما نلقي نظرة خاطفة على الجدول المبين أعلاه يتضح لنا أنّ منئذنة مسجد بنورة والمنئذنة الصغيرة بالمسجد العتيق بغرداية كانت النماذج الأولى في طراز المآذن ذات الشكل الهرمي الناقص في مزاب، باعتبار صغر حجمهما، وقلة ارتفاعهما، ونقص عدد طوابقهما التي لا تتعدى عندها ثلاثة. ويبدو أنّ البناء استفاد من التجارب السابقة، وعلى الرغم من نقص الإمكانيات الإنشائية المتوفرة لديه، نجح في زيادة علو المنئذنة، وإضافة طوابق أخرى، حيث وصل عندها في مسجد غرداية إلى عشر طوابق، وكانت هذه الزيادة في الارتفاع لضرورة ملحة أملها توسع وتطور النميج العمراني للمدن المزابية.

لقد اقتضت الضرورة إلى الزيادة في ارتفاع المنئذنة، وذلك عندما شهدت المدن المزابية توسعات عمرانية خلال القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، بسبب تزايد عدد السكان وتوافد المهاجرين نحو المنطقة، وكان الهدف من ذلك إيصال صوت المؤذن إلى كلّ أطراف المدينة. فبلغت المنئذنة أقصى ارتفاع لها 24,50م في المنئذنة الكبيرة بمسجد غرداية العتيق.

تتألف المنئذنة المزابية من الداخل من نواة مركزية غير منتظمة الشكل في معظم النماذج (الجدول الوارد في الأعلى)، ويتم الصعود إلى الطوابق العليا عن طريق سلم صاعد يلتف حول تلك النواة المركزية في شكل حلزوني.

يأتي الجوسق في المنئذنة المزابية كامتداد للبدن، ويكون مغطى بقبة صغيرة، تنتهي عند مفتاحها بقببية صغيرة أخرى على شكل إناء فخاري مقعر، ويبدو أنّ البناء المزابي لجأ إلى هذه المادة باعتبارها مادة فعالة في تردد الأصوات. ويخرج صوت المؤذن نحو الخارج عن طريق فتحات معقودة بعقد نصف دائري فُتحت في الجدران الأربعة للجوسق.

تتّوج الأركان الأربعة الخارجية لمآذن مزاب أعمدة صغيرة منتخفة في الأسفل وتضيق (الصور 69، 70، 71، 72، 79، 80) كلما زادت في العلو، وهكذا تأخذ هذه الأعمدة بدورها شكل الهرم الناقص، وهي بمثابة الشرافات هنا. وتضمّ منئذنة غرداية إضافة إلى الأعمدة الأربعة الصغيرة في الأركان نتوءا بارزا بين كلّ عمودين. وبالنسبة لهذا النوع من الزخرفة

يشير مارسيل مرسبييه Marcel Mercier إلى أنّها تعود في أصولها إلى عبادة وثنية قديمة⁽¹⁾، حتى إذا سلّمنا بهذا الاستنتاج، لكن المزابي في اعتقادنا لم يستعمل هذا العنصر المعماري لنفس الغرض، بل في أغلب الظن كان يقصد به تعيين الجهات الأصلية الأربعة أو استعمالها لمجرد زخرفة يتّوج بها مبانيه.

لم تأخذ المآذن موقعا موخدا في مساجد مزاب، شأنها في ذلك شأن المساجد الإسلامية، فأحيانا تحتل مكانا في الجهة المقابلة للجدار المحراب، أي أنّها تقع على محور المحراب مثل مآذن غرداية وبني يزقن وبريان أو تأخذ موقعا في الركن الشمالي مثل منئذنة القنارة، ونجدها أحيانا أخرى في الجهة الشمالية الغربية كمنئذنة مسجد بنورة العتيق.

هناك ظاهرة معمارية لابدّ من الإشارة إليها وهي انفصال القاعدة من البدن في منئذنة بني يزقن، إذ أنّ السلم الصاعد إلى الطوابق العليا من المفروض أن تكون نقطة انطلاقه من القاعدة، لكن هنا يبتدئ السلم من الطابق الأول لتبقى القاعدة معزولة عن البدن، ولا يربطها به إلّا النواة المركزية والجدران.

3- المنبر :

كان المنبر أول عنصر معماري يضاف إلى المسجد أو الجامع، ففي البداية كان الرسول ﷺ يستند إلى جذع نخلة كلما يريد أن يلقي خطبة على جمهور المصلين، فأوعز إليه تميم بن الداري بصنع منبر كما في كنائس الشام، وتبني الرسول ﷺ الفكرة، فأمر أن يُصنع له منبر خشبي ذو ثلاث درجات، وتقليدا لأفعال الرسول ﷺ، صنع المسلمون من بعده منابر لمساجدهم، إلّا أنهم أضافوا إليه عددا من الدرجات، كما خصّصوا له تجويفا على يمين المحراب ليُدخل إليه في كلّ الأيام ما عدى يوم الجمعة⁽²⁾. ولقد استعان الفنان المسلم بمواد متنوعة لبناء المنبر وزخرفته، فظهرت المنابر الخشبية والحجرية والرخامية، وأبدع الفنان في تنميقها وتزيينها بزخارف متنوعة فائقة الجمال.

يُتخذ المنبر دليلا معماريا على إعطاء صبغة المسجد الجامع للمبنى الذي يضمّه. وبما أنّ هذا العنصر المعماري ينعدم تماما في المساجد الإباضية في مزاب، فلا يمكن إذا إعطاؤها صبغة

(1) - Marcel Mercier : La Civilisation ... , p : 152 - 153 .

(2) - عفيف بهنسي : الفن الإسلامي ... ، ص : 14 .

المسجد الجامع، وتوحي هذه الظاهرة دون أدنى شك بعدم إقامة صلاة الجمعة في هذه المساجد.

ولا ريب أن هذه الظاهرة نابعة من رؤية الفقه الإباضي في قضية صلاة الجمعة، فعلماء الإباضية يرون أن صلاة الجمعة جائزة وغير واجبة في حال عدم توفر أو غياب أحد شروطها، ويتعلق الأمر هنا بشرطي الإمام العادل والمصر، وذلك حسب ما ورد في قول العالم الإباضي المالبي في هذا المسألة، حيث يقول "أما المصر والإمام فهما شرطان لوجوب الجمعة ولصحتها، فلا تجب الجمعة ولا تصح إلا عند حصولهما معا"⁽¹⁾.

وبعد البحث لاحظنا أن ظاهرة غياب المنبر في المسجد لا تقتصر فقط على منطقة وادي مزاب، بل عمت معظم المناطق التي استوطن فيها الإباضية، فالمساجد الإباضية بورقلة لا تحتوي على عنصر المنبر⁽²⁾، كما نشاهد نفس الظاهرة تتكرر في بعض مساجد جربة⁽³⁾، واستنادا إلى غياب عنصر المنبر في بعض مساجد بلاد السودان الغربي، أكد جوزيف شاخ J Schach أن دخول الإسلام إلى هذه المناطق كان على يد بعض التجار الإباضيين، وكان ذلك بعد سقوط إمارة تيهرت⁽⁴⁾.

وابتداء من الستينيات فقط بدأ المنبر يظهر داخل المساجد الإباضية بوادي مزاب، وذلك بفضل جهود العالم الإباضي إبراهيم بيوض الإصلاحية في هذا المجال..

4- العقود:

عنصر معماري له وزنه وأهميته في العمارة الدينية الإسلامية، وتمثل وظيفته الأساسية في توزيع ثقل المنقف والضغط الذي يعلوه على الركائز والجدران، وأصبح بمرور الزمن فضاء خصبا لإبداعات الفنان المسلم في مجال الزخرفة.

كانت سقفوف المساجد الأولى مثل مسجد الرسول ﷺ ومسجد البصرة ومسجد الكوفة ومسجد واسط ترتكز مباشرة على الأعمدة والدعامات⁽¹⁾، ثم لجأ المهندسون المسلمون إلى استعمال العقود، فكان أول ظهورها في مسجد قبّة الصخرة. وتأقلا مع أنماط العمارات المحلية في الأقاليم التي فتحها المسلمون، برزت أنواع عديدة من العقود. فلقد استعمل في البداية العقد النصف الدائري ثم العقد المذنب الذي استعمل بصفة خاصة في المباني الدينية الإيرانية. وأما العقد الحدي أو ما يسمى عند بعض مؤرخي الفن بعقد على شكل حدوة أو نعل الفرس فقد أصبح من اختصاص الأندلس وبلاد المغرب⁽²⁾، وقد استخدم إلى جانب هذه العقود عقود أخرى عديدة نذكر منها العقد المفصص والعقد المقرنص اللذين كانا لغرض زخرفي.

كان العقد حاضرا بقوة في العمارة الدينية الإباضية بمزاب عامة، وبوجه خاص في المساجد والمصليات الجنائزية المغطاة، وقد استعمل لتدعيم ومساندة الأقبية والقباب الصغيرة وتوزيع الضغط الذي فوقه على الركائز.

لقد سمح تقاطع تلك العقود ضمن سلسلة من البوالت التي أخذت في اتجاهها نحو جدار القبلة مسارين مختلفين؛ موازي وعمودي، ببروز فضاءات صغيرة داخل بيوت الصلاة سواء في المساجد أو في المصليات الجنائزية، وعلى هذا الشكل أصبحت مستعدة لرفع كل أنواع السقوف.

أ - العقد الحدي :

اختلف علماء الآثار ومؤرخو الفن حول منشئه، فقد أرجعه بعضهم إلى بلاد ما وراء النهرين، والآخرين إلى آسيا الصغرى والبلخ إلى الهند، بينما اعتقد آخرون أن أصله من إسبانيا. ولكن هناك دلائل وقرائن تؤكد أن ظهور العقد على شكل حدوة الفرس لأول مرة كان بعمودية مار يعقوب في نسيبن Nisibine بتركيا عام 359م، كما نفذ هذا العقد ضمن بعض الرسومات على مزهريات معدنية ماسانية، مما يؤكد استخدامه في هذه الحضارة⁽³⁾.

(1) - صالح الأثري : المرجع السابق، ص: 136-137.

(2) - Laïbi Shaker : Soufisme et l'Art Visuel Iconographie du Sacré , l'Harmattan , Paris 1998, p : 89.

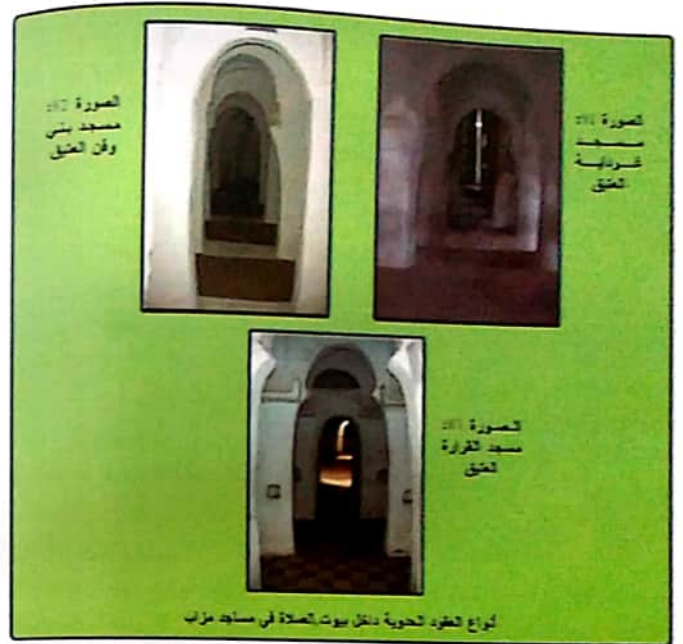
(3) - Laïbi Shaker : Op.cit , p : 89 .

(1) - للاستزادة في هذه القضية ينظر أبو محمد عبد الله بن حميد السالمي : كتاب شرح طلعة الشمس على الألفية، مطبعة الموسوعات، د.ت، ص: 60-88.

(2) - عمر سليمان بوعصيفة : معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان، رسالة ماجستير جامعة الجزائر، المعهد الوطني لأصول الدين، الجزائر 1992، ص: 61.

(3) - ريفيس المواب : المرجع السابق، ص: 40-41.

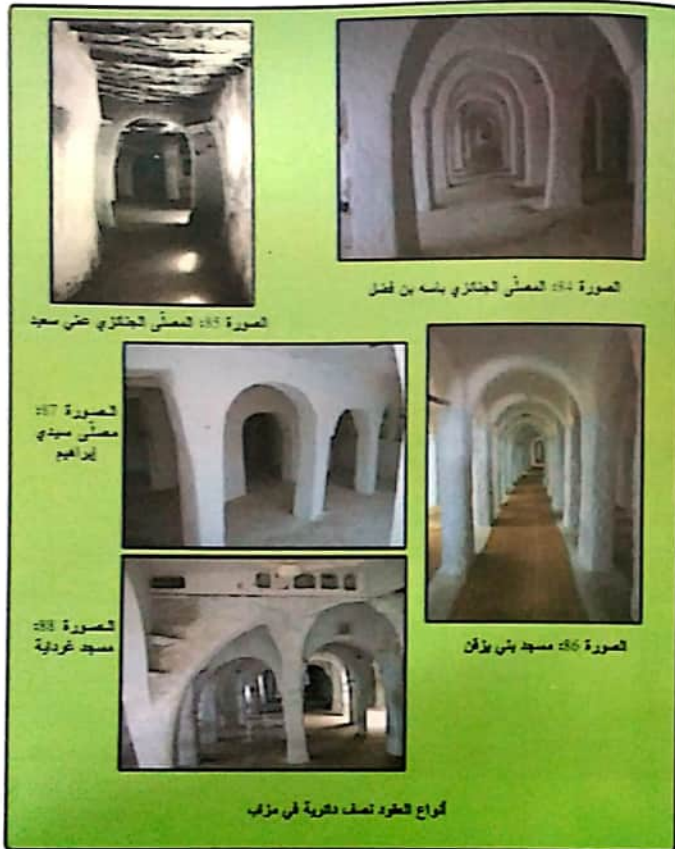
(4) - J Schacht: Op.cit p: 16 - 17



إن قوة مقاومة العقود الحوية ضد ارتفاع القوى الناشئة من تحللها تفوق قوة مقاومة العقد النصف الدائري، ولأن هذه القوة لا تتدفق خارج حدود العقد وتساعد على تماسكه⁽¹⁾.
 يتبين أن هذا العقد كان من أهم أنواع العقود استعمالاً في المباني الدينية بمزاب، بفضل وجوده في الأماكن التي تحققت فيها كثرت تشكّل النواة الأولى (مسجد غرداية العتيق ومسجد بني يزقن ومسجد القرواية). وقد جاءت فتحات هذه العقود غير متساوية وغير منتظمة (الصور 81، 82، 83)، وكانت في بعض الأحيان مضغوطة من الأعلى ومنخفضة من الجانبين.

(1) - أحمد فكري : المرجع السابق ، ص : 74.

ب - العقد النصف الدائري :



يعود الفضل في ابتكاره إلى الرومان، ويعدّ أول العقود التي لجأ المعماري المسلم إلى استخدامها في عمارة المساجد، فظهر لأول مرة في مسجد قبة الصخرة ثم في الجامع الأموي بدمشق⁽¹⁾.

لقد طغى استعمال العقد النصف الدائري في العمارات الدينية بمزاب (الصورة 84، 85، 86، 87، 88)، نظرا لسهولة إنجازه مقارنة بالأنواع الأخرى التي تتطلب مهارة كبيرة، كما أنّ مواد البناء (جريد النخيل) المتوفرة في المنطقة والتي استعملت كقالب هي المسؤولة إلى حدّ كبير في تشكيل ذلك المنحنى. ويبدو أنّ استعمال العقد نصف الدائري ظهر متأخرا، وحتى يمكن الجزم بأن تاريخ استخدامه في مزاب يعود إلى ما بعد القرن السادس عشر الميلادي.

تُبنى العقود بالحجارة المصقوفة على شكل مداميك متتالية ومتقابلة، وذلك تبعا لتقنية بنائها المعتمدة على طريقتين: ففي الطريقة الأولى يتم تدعيمها بالحجارة إلى حين إحكام تماسكها بمادة التمشنت، وأما في الطريقة الثانية فيستخدم في تشكيل العقود قالب مصنوع من جريد النخيل، وتعدّ التقنية الأخيرة الأكثر تداولاً في مزاب، إذ يقوّس الجريد بين الدعامتين ويثبت بمادة التمشنت، ثم توضع الحجارة من فوقه ويلبّس الجريد بعد ذلك بتكسية متكونة من الرمل والجير⁽²⁾.

5- الحوامل والركائز :

استعمل المسلمون في البداية جذوع النخيل كوسيلة لتدعيم السقوف في المساجد الإسلامية الأولى، وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه جلبوا أعمدة حجرية من مبانى قديمة واستعملوها بدلا من جذوع النخيل، وهكذا يتبيّن لنا أنّ



الصورة 89: أعمدة صحن مسجد غرداية

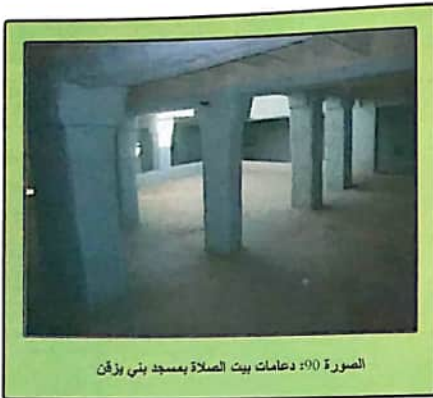
(1) - Rachid Bourouiba : Apport...., p: 127.

(2) - Donnadieu: Op.cit, p: 94.

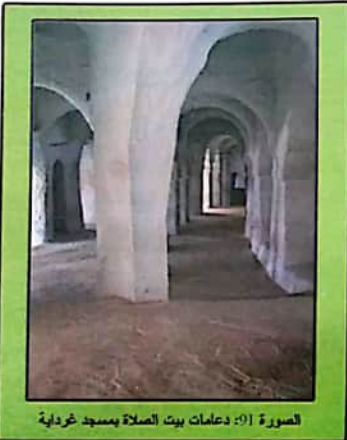
الأعمدة كانت الأسبق في الظهور من الدعامات داخل المباني الدينية، ولم يلجأ المعماري المسلم إلى الدعامات إلّا عند بناء الجامع الأموي بدمشق.

يتمثّل دور الركائز أساسا في حمل ثقل السقوف، وقد اعتمد المزابيون في كلّ عمارتهم الدينية على

الدعامات لأداء هذه الوظيفة، باستثناء تلك الأعمدة السّنة التي تساند سقف أروقة صحن مسجد غرداية (الصورة 89) والتي تتألّف من قاعدة مربّعة الشكل ترتفع بحوالي 0,60م عن الأرضية، وبدن يتشكّل من صفوف من الأخاديد، ينتهي في الأعلى عند الوسادة التي تستقبل العقد .



الصورة 90: دعامات بيت الصلاة بمسجد بني يزقن



الصورة 91: دعامات بيت الصلاة بمسجد غرداية

لجا البناء المزابي إلى عنصر الدعامة كوسيلة لتدعيم السقف في العمارات الحينية، وذلك لمساهمة إنجازها، واستخدمت بكثرة، بحيث يتخذ الممر نفسه داخل تلك المباني وأمام ذلك الكم الهائل من الدعامات، كآلة وسط غابة كثيفة أساسها عنصر الدعامات. ولا شك أن هذه الطريقة تساهم في تقليص مساحة الفضاءات التي يُراد تغطيتها بشكل



الصورة 92: دعامات بيت الصلاة بمسجد القرارة

يتناسب مع المواد المحلية (جريد النخيل) المستعملة في عملية التثقيب.

تتخذ الدعامات عدة أشكال مربعة ومستطيلة وغير منتظمة الشكل، وتختلف أبعادها، إذ يتراوح طول أضلاعها ما بين 0,20م و 1م، وأما ارتفاعها إلى بداية فتحة العقد فيتراوح ما بين 1,20م و 1,80م. وتشكل الدعامات في أعلاها أحيانا نتوءا صغيرا، حيث توضع قناديل الإنارة. وفي حالة ما إذا كانت الدعامة تستقبل فوقها عارضات خشبية، فإنها تنسج في الأعلى على شكل وسادة ضخمة، وهذا ما يسمح حسب دوناديو Sonnadieu بتخفيض الضغط على بدن الدعامة⁽¹⁾.

يُنبت الدعامات بالحجارة المتماسكة بواسطة تربة طينية أو ملاط متكون من مادة التَّمشنت والرمل أو مادة التَّمشنت وحدها.

وإلى جانب الدعامات استخدمت الركائز الجدارية ذات الأشكال المختلفة، أما الدعامات المساندة من الخارج، فكان استخدامها في المباني الدينية الإباضية بمزاب قليل جدًا، حيث تقتصر وجودها في مسجد بنورة العتيق فقط.

(1) - Donnadieu : Op cit, p : 92

6- الفتحات :

يُعَدُّ الهواء والضوء عنصران ضروريان للحياة، فكان لا بد من تأمينهما داخل المباني، ومن هنا جاء دور الفتحات الهام في العمارة. وإضافة إلى وظيفتها في عمليتي التهوية والإضاءة داخل المبنى، فالفتحات تؤدي دورا آخر لا يقل أهمية وخطورة عن السابق، ويمثل في الوظيفة الدفاعية.

إن طبيعة المناخ الصحراوي؛ حرارة شديدة صيفا وبرودة شتاء، تستدعي اللجوء إلى عناصر معمارية تساهم في تكييف الهواء داخل المباني، من هنا لجأ المعماري المزابي إلى استخدام الفتحات لخلق مجرى هوائي داخل العمارات الدينية وتختلف أبعاد هذه الفتحات وأشكالها من مبنى إلى آخر.

ويقدم لنا مسجد بنورة العتيق وكذا المصليات الجنائزية المغطاة، والمآذن بصفة خاصة نماذج رائعة لتلك الفتحات الصغيرة التي تتسع في الداخل وتضيق في الخارج وتشبه إلى حد كبير المزاغل، وهي تُعبر بحق عن العمارة الصحراوية المحلية، وتؤكد وظيفتها الدفاعية إلى جانب أدائها لمهمة الإضاءة والتهوية، ويتراوح عرض هذه الفتحات ما بين 0,20م و 0,45م. كما تعطي تلك السلسلة من الفتحات المعقودة بعقد نصف دائري وذات الأبعاد والأشكال المختلفة التي تصطف على الجدران الخارجية منظرا مسحريا للمصلى الجنائزي عَمِي سعيد، وتضفي عليه ميزة معمارية فريدة في نوعها.

وإلى جانب فتحات الجدران استعمل المعماري المزابي نوعا آخر من الفتحات، عبارة عن فتحات ضيقة تخترق الأقبية والقباب على مستوى مفاتيحها، وهذه الفتحات تتفاعل مع فتحات الجدران في عملية التهوية فتخلق مجرى هوائيا داخل المبنى. وهذا النوع لا يخص مزاب فقط، فمساجد جزيرة جربة تقدم لنا أمثلة كثيرة من هذا النوع⁽¹⁾.

يبدو واضحا أن الفتحات أو النوافذ الكبيرة المفتوحة في جدران مساجد غرداية وبنى يزقن والقرارة حديثة العهد، لأنها لا تتماشى والهندسة الوظيفية المحلية، كما أنها لا تفي بالغرض المطلوب، ألا وهو خلق مجرى هوائي داخل المبنى. ونعتقد أن استخدام هذه النوافذ كان ضروريا تبعا لكبر مساحة بيت الصلاة التي لا يمكن إضاءتها إلا بهذا النوع من النوافذ.

(1) - ريفض المزابي : المرجع السابق ، ص : 75.

7- الكَوَات :

نقصد بمصطلح الكَوَات هذا الكَوَات غير النافذة أي الفتحات الصماء، وتكون عبارة عن تجاويف مفتوحة في جدران المباني الداخلية. وقد لاحظنا أن الكَوَات تشغل حيزاً معتبراً من جدران المباني الدينية بمزاب، وذلك تبعاً لطبيعة الوظائف الاجتماعية والدينية التي تؤديها هذه المنشآت، فالمصليات الجنائزية تؤدي دوراً هاماً في المجالين الديني والاجتماعي، حيث تستقبل هذه المباني في فترات زمنية معينة أعداداً كبيرة من دارسي القرآن الكريم والعامة من الناس، وفي نفس الوقت تتهاطل عليها كميات معتبرة من الأغنية في شكل أوقاف وحبوس وصدقات مرتبطة بالمصلى، والتي يأتي بها الأهالي ثم يتم توزيعها على الحاضرين. ومن هنا جاءت الحاجة الملحة إلى فتح عدد كبير من الكَوَات على جدران هذه المصليات مقارنة بالمساجد، وتُستغل الكَوَات خاصة لوضع الأحنية ونوى التمر والمصاحف وغير ذلك من الأدوات والأغراض الضرورية المتعلقة بأداء تلك الشعائر التي تمارس داخل هذه الفضاءات.



تظهر الكَوَات مختلفة الأشكال مربعة ومستطيلة ومتفاوتة الأحجام، وتكون أحياناً معقودة بعقد نصف دائري مثل الكَوَات التي تحلّي جدران المصلى الجنائزي عتي إبراهيم وعتي سعيد (الصورة 94).

وتعدّ الكوة الموجودة في المصلى الجنائزي بأحمد أكبر وأضخم كوة وقد تمّ حفرها في صخر الجبل الذي يستند إليه المعلم. وهناك نوع من الكوات في المساجد تُستخدم فقط لوضع أنية الإثارة.

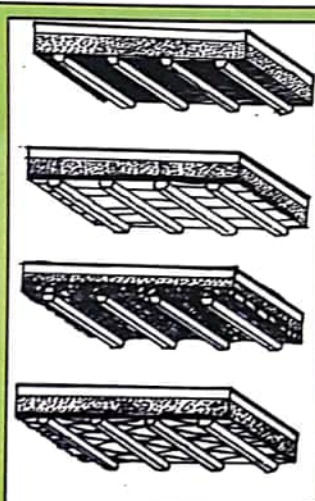
8- وسائل التغطية :

اعتمد المعماري المزابي في تغطية وتسقيف المباني الدينية (المساجد والمصليات الجنائزية) على عدة أنواع من وسائل التغطية استخدم في إقامتها تقنيات عديدة، ومن أهمّ وسائل التغطية نذكر منها ما يأتي:

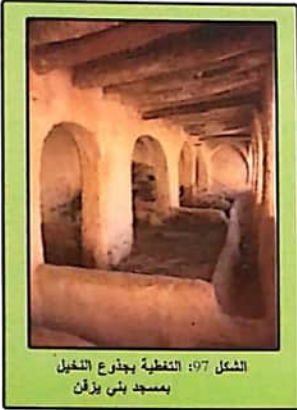
أ- السقوف المسطحة :

إنّ بناء هذا النوع من السقف يستدعي استعمال جذوع النخيل وسعفه وجريده، مع العلم أنّ جذوع النخيل لا يمكن استغلالها إلا بعد موت النخلة، وعليه لا يلجأ المزابيون إلى تغطية الفضاءات باستخدام السقوف المسطحة، إلا إذا اقتضت الضرورة، وذلك حفاظاً على تلك الثروة النخيلية.

ومن هنا فالقراغات التي تتطلب مساحة واسعة قصت ممارسة وظائف جماعية مثل حلقات تلاوة القرآن الكريم ومدارسته وحلقات الوعظ والإرشاد (اللوحة رقم: 22، 25) غُطيت بسقوف مسطحة.



الشكل 24: رسم يمثل تقنيات التسقيف المستخدمة في مزاب
Donnadieu / عن



الشكل 97: التغطية بجذوع النخيل
بمسجد بني يزقن

بمادة التمشنت (الشكل 24) وقد طبقت هذه الطريقة في معظم المنشآت المعمارية بوادي مزاب (الصورة 97).

ويُضاف إلى ما سبق طبقة طينية يصل سمكها إلى حوالي 0,30م، ثم تغطى أخيرا بطبقة من الجير الممزوج بالرمل⁽¹⁾.

في حالة ما إذا كان القضاء المراد تغطيته واسعا فإنّ المعماري المزابي يلجأ إلى استعمال العارضات نظرا لقصر طول جذع النخلة الذي لا يتعدى طولها 2,50م، وتكون هذه العارضات في مستوى أقل من السقف لتتمكّن من حمل جذوع النخيل القادمة من الجانبين. وتتشكّل العارضة بدورها من لوحتين من جذوع النخيل.



الشكل 98: تغطية التغطية بجذوع الأشجار

وتطبيقا لهذه التقاليد المعمارية، نلاحظ قلة الفراغات والمساحات المغطاة بسقوف مسطحة داخل العمارات الدينية لا سيما في المساجد والمصليات الجنائزية المغطاة.

عند تمقنا في الدور الذي تؤدّيهِ الفضاءات المغطاة بسقوف مسطحة استنتجنا أنّ المزابي كان يريد من وراء استعمال السقف المسطح استبعاد كلّ ما من شأنه عرقلة (الدعامة) تلك الوحدة التي تستدعيها وتعرضها نوعية الوظيفة التي تُمارس في ذلك الفضاء، ألا وهو مدراسة وتلاوة القرآن الكريم جماعيا وفي شكل حلقات أو التحلق حول الشيخ لسماع دروس الوعظ والإرشاد.



الصورة 95: تغطية التغطية بجذوع الأشجار بمسجد غرداية

ويتكوّن السقف المسطح من مجموعة من جذوع النخيل مقطوعة طوليا، وتصطف بحيث يترك بينها فراغ يقتر بحوالي 20,0م. وقد تُستبدل جذوع النخيل أحيانا بأخشاب من جذوع الأشجار الأخرى، كما هو الحال في المصلى الجنائزي عتي مسعيد ومسجد غرداية العتيق (الصورة 95، 96، 97).



الصورة 96: التغطية بجذوع الأشجار بالمصلى الجنائزي عتي مسعيد

توضع فوق جذوع النخيل مجموعات متراصة من جريد النخيل سواء بسعفه أو بدونه، وقد تُصقّف أحيانا بين الفراغات التي تتركها جذوع النخيل أحجار دقيقة السمك، وتُمسك فيما بينها

(1) - Donnadicu ; Op cit , p : 94 - 95.

ب - الأقبية :

إن نقص مواد البناء الأساسية (جنوع النخيل) المستخدمة في عملية التسقيف فرض على البناء اللجوء إلى أسلوب آخر في التسقيف، ألا وهو استعمال الأقبية، فقد عمد البناء إلى تحديد فضاءات صغيرة داخل المساجد والمصليات الجنائزية عن طريق تقاطع البوائك السائرة في الاتجاهين العمودي والموالي نحو جدار القبلة، وهذه الطريقة تسهل عليه عملية إقامة القبو. ونظرا لنقص الإمكانيات الإنشائية فإن القبو البرميلي كان أكثر أنواع الأقبية تداولاً لسهولة وسرعة إنجازه. إن ما يميز هذه الأقبية أنها صغيرة الحجم، وغالبا ما تُغطى فضاءات صغيرة، وتُبنى بنفس تقنية بناء العقود.

ج - القباب :

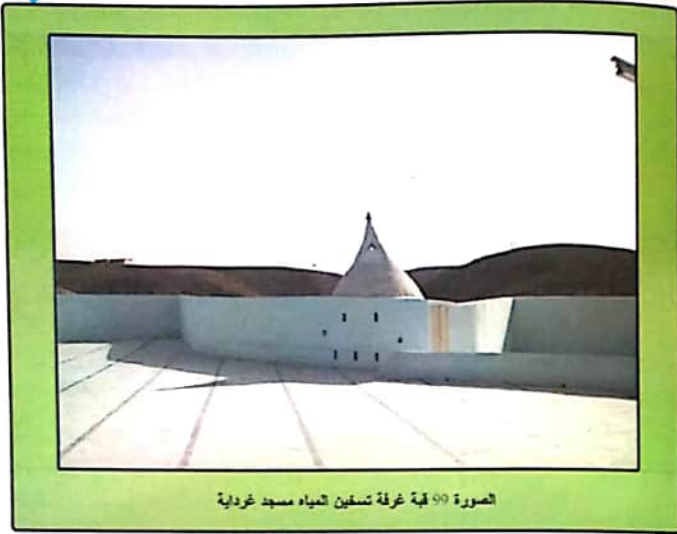
تعدّ من العناصر المعمارية المميّزة في العمارة الإسلامية عامة وفي العمارة الدينية بخاصة، وكانت محلّ نقاش كبير بين مؤرخي الفن حول أصل منشأها. فكان أول ظهور للقبّة في العمارة الإسلامية في مسجد قبّة الصخرة. أما ظهورها المبكر في بلاد المغرب فكان في جامع القيروان⁽¹⁾.

ترمز القبّة حسب تروث عكاشة إلى الاتجاه الرأسي للمكان المقدّس نحو السماء، إذ إنّ للمسجد في رأيه اتجاهان؛ اتجاه أفقي نحو الكعبة، واتجاه رأسي نحو السماء، وقد رمز المعماري المسلم إلى الاتجاه الأخير بعنصر القبّة⁽²⁾.

إن ضعف الإمكانيات الإنشائية، وعدم توفر المواد الضرورية محليا في وادي مزاب، وكذا البساطة والتخفّف اللذان يدعو إليهما الفكر الإباضي، كان عائقا أمام تنفيذ قباب ذات عناصر زخرفية متنوعة في مساحات هائلة، لذا فقد حاول البناء المزابي تجاوز هذا المشكل بتقسيم المساحات الواسعة إلى وحدات صغيرة وضيقة، وذلك بفضل الأسلوب الذي تبنّيه واستخدمه في ترتيب البوائك المتقاطعة فيما بينها، حيث تمّ له تحديد فضاءات لا يتجاوز طول ضلعها 2م، وهذا ما يناسب قباب ذات قطر محدود على غرار القباب التي استعملها المهندسون المسلمون في المساجد لتغطية الفضاء الذي ينقسم المحراب، كما هو الحال في جامع ابن طولون وجامع القيروان وجامع تلمسان وغيرها⁽³⁾.

(1) - أحمد فكري : المرجع السابق، ص: 87.
(2) - تروث عكاشة : المرجع السابق، ص: 101.

(3) - Vogt Göknil: Op.cit p: 64.



الصورة ٩٩ قبّة غرفة تسفين المياه مسجد غرداية

بعد تحديد الفضاءات الصغيرة المربعة، تبقى مشكلة الانتقال من المربع إلى المثلث ثم إلى الدائرة، وقد نجح البناء المزابي بفضل مواهبه تخطّى هذه العقبة باستعمال المثلثات الكروية. ويبدو هذا العنصر بسيطا في إنشائه، والطريقة المتبعة هنا تمثّلت في ملء الفراغ الموجود بين العقود والجدران بأحجار رقيقة بحيث يتشكّل مثلث قمته في الأسفل وقاعدته في الأعلى ليتحوّل بذلك شكل الجدران إلى مثلث. وتختلف منطقة انتقال القبّة في مسجد القرارة، حيث استخدمت هنا الحنايا الركنية بدلا من المثلثات الكروية.

وتبدو القباب في وادي مزاب شبيهة أو قريبة في شكلها إلى حدّ كبير بالقبو المتقاطع، بحيث يمكن اعتبارها شكل وسط بين القبو المتقاطع والقبّة، وفي أغلب الأحيان تكون هذه القباب مغورة ومضمرة داخل سقف المبنى، ويظهر ذلك جليّا في مسجد غرداية العتيق ومسجد بني يزقن ومسجد القرارة والمصليات الجنائزية عتي سعيد وبالمحمد.

يبقى أن نشير إلى أن بعض القباب تبدو بارزة من الخارج في بعض المصليات الجنائزية كقباب مصلى بابو أو الجمة ومصلى باعيسى أو علوان (الصورة 46، 49). ولكن ما يلفت الانتباه في بعض هذه القباب، ذلك النتوء الغريب البارز من قمة القبة (الصورة 46) الذي يذكرنا بتلك الأعمدة (النتوءات) الصغيرة التي تتوج المآذن المزابية. لم نجد تفسيراً مقنعاً لوجود هذا العنصر في هذا الموضع إلا كونه يرمز إلى الصعود في اتجاه السماء.

وتعد القبة البيضاء الشكل التي تملأ البيت القديم المخصص لتسخين الماء في مسجد غرداية العتيق (الصورة 99) أعظم قبة عرفتها العمارة الدينية الإباضية بوادي مزاب، وتبرز بشموخها من على سطح المسجد.

9 - المداخل :

للمدخل عموماً معنى رمزي، إذ يعدّ الحدّ الفاصل بين الداخل والخارج وهو في المبنى الديني المنفذ الذي ينقلنا من ما هو مقدس إلى ما هو مقدس. ولكي يرمز المدخل إلى الترحيب بالوافدين أقام على شكل دخول متراجع وليس على شكل خارج وبارز يتصل بدنس الطريق العام⁽¹⁾.

تتشابه أغلب المباني الدينية (المساجد والمصليات الجنائزية)، في امتلاكها لمداخلين بحيث يسمحان للمرء الولوج إلى الصحن، وعموماً يكون موقع هذه المداخل في الجهة الشمالية الغربية والشمالية الشرقية.

اختير للمداخل المؤدية إلى داخل بيوت الصلاة مواقع في الجهة المقابلة لجدار القبلة أو من الجانبين، تغادياً لكل ما يمكن أن يتسبب في عرقلة المصلين، وهذا ما لمسناه فعلاً في أغلب المعاصر الدينية الإباضية بمزاب، ويخرج عن هذه القاعدة مسجد بني بزقن، فإضافة إلى المدخل الجانبى، فتح مدخلين في أقصى يمين ويسار جدار القبلة. ونظن أن اختيار هذا الموقع كان لضرورة حتمية، فرضتها الأسباب الآتية :

أولاً : موقع الصحن الجانبى بالنسبة لبيت الصلاة، وكذا تقمّ الجزء الذي يحوي المدخل الرئيسي عنها (الشكل 9)، وقد فرض هذا الأمر على البناء فتح مدخل في هذا الجزء لقربه من

المدخل الرئيسي للمسجد.

ثانياً : انحصار بيت الصلاة بالمساكن من الجهة المقابلة لجدار القبلة، مما لا يسمح بفتح مداخل فيها، فكان جدار القبلة المجال الوحيد لفتح مداخل تؤدى إلى بيت الصلاة وخاصة أنه يطلّ على شارع رئيسي.

ثانياً - الزخرفة :

خلافًا لما هو متبع في عمارة المساجد من تنوع وصل إلى حدّ الإسراف في التتميق والزخرفة، جاءت كلّ المنشآت الدينية الإباضية في منطقة وادي مزاب خالية تماماً من كلّ أنواع الزخرفة خاضعين في ذلك لفكرة البساطة والتشّيف في البناء استناداً إلى تعاليم الدين الإسلامي الحنيف والمذهب الإباضى. وقد سعى البناء بفضل تشكّله وترتيبه المتميّز للعناصر المعمارية المختلفة اعتماداً على الجانب الوظيفي للفضاء المعماري إلى إضفاء جمال روحي على تلك المباني.

1 - الزخرفة الهندسية :

تمتاز العناصر المساجد والمصليات الجنائزية في وادي مزاب بخلوها التام من أيّ عنصر زخرفي، باستثناء تلك الآنية الفخارية والخطوط الهندسية المنكسرة الصغيرة التي تزين قبة المدخل الأوسط لبيت الصلاة في مسجد القرارة بالإضافة إلى تلك النصوص الكتابية في كلّ من مسجد بنورة ومسجد غرداية العتيقين.

ففي محاولة للبحث عن مصدر تلك الزخرفة التي تزين باطن قبة المدخل الأوسط في مسجد القرارة، فإنّ أنظارنا ستتجه حتماً نحو مساجد جزيرة جربة، نظراً للتأريخ المشترك والعلاقة الروحية الوطيدة التي تربط المنطقتين. وفعلًا فقد قام الفنان الجربي بتقسيم المساحة الباطنية للقبة إلى مثلثات متقابلة تنتهي إلى إناء فخاري عند مفتاح القبة، ويحيط بهذا الإناء آنية أخرى صغيرة⁽¹⁾.

تزّين إحدى قباب مسجد القرارة آنية فخارية مقعرة في شكل ملفت للانتباه، إذ تتجمّع أربعة أواني في المركز (مفتاح القبة)، وتحيط بها أربعة أواني أخرى بحيث

(1) - ريفض المرابط : المرجع السابق، ص : 136 - 137.

(1) - تروث عكشة : المرجع السابق، ص : 102.

بحيث تبعد عن الأتية المركزية بمسافات مختلفة. لا بد أن لهذا الترتيب بعدا ثقافيا أو عقائديا، فماذا يمثل العدد أربعة؟ وإلى ماذا يرمز هذا الترتيب؟ في اعتقادنا أن هذا الترتيب ذا بعد عقائدي، فيمكن أن ترمز تلك الأتية الأربعة مجتمعة إلى أحد أركان الإسلام الأساسية ألا وهي الإيمان، وباعتبارها القاعدة الأساسية للعقيدة الإسلامية، فقد أعطى لها الفنان المزابي المكانة المرموقة وهي الصدارة (مفتاح القبة)، وأغلب الظن أن العدد أربعة هنا يرمز إلى عناصر الإيمان الأربعة (الله والرسول والكتب والملائكة) التي يجب على المسلم أن يؤمن بها ليستقيم إسلامه امتثالا لقوله تعالى: "أَمِنَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ..."، وبالنسبة للأتية الأربعة الأخرى التي تدور حول الأتية المركزية فتمثل في نظرنا الأركان الإسلامية الأربعة الأخرى؛ ألا وهي الصلاة والصوم والزكاة والحج، وقد رتبها الفنان على حسب أهميتها.

أما بالنسبة للخطوط المنكسرة التي تنتج أشكالا على هيئة مثلثات متجاورة وفي شكل شريط زخرفي، فهي ذات بعد أمازيغي. فالفنان الأمازيغي كان ملازما لهذه الزخرفة الهندسية منذ عهود تاريخية موعلة في القدم، وقام بتنفيذها في شتى أنواع الصناعات مثل الحلي والزراحي والجلود، وربما أن هذا المثلث يرمز إلى ثلوث الحياة الماء والنار والغذاء أو ربما يعود إلى عبادة ثلاثية قديمة تتمثل في الكواكب والحيوانات والأرواح⁽¹⁾.

2- الزخرفة الكتابية :

تتعدم الزخرفة الكتابية من المعالم الدينية المزابية مثل مثلثاتها الهندسية، إذ لم نتوقف أثناء زيارتنا لهذه المعالم إلا على نقشتين، نُقِدت الكتابة عليهما بطريقة الحفر الغائر، وهما عبارة عن لوحين حجريين مثبتين على الجدار. فأما النقشة الأولى فمثبتة داخل بيت الصلاة بجانب المحراب في المسجد العتيق ببويرة (الصورة 100)، وأما الثانية فمثبتة في الجدار الجنوبي الشرقي لصحن مسجد العتيق بخرداية (الصورة 101).

تتم هذه النقائش بخطها النسخي الرديء الذي يقترب كثيرا من الخط الكوفي الكلاسيكي البسيط، ويلاحظ فيها عدم الانضباط في شكل الحروف وحجمها، إذ يُرسم الحرف في اللوحة الواحدة بأحجام مختلفة في أحيان كثيرة.

(1) - نور الدين بن عبد الله : الحلي التقليدية لموارق القنار دراسة فنية، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان 2001، ص : 110.

يرد في نص النقشتين حديث للرسول ﷺ يتعلّق بتحرير الكلام في المسجد، وقد تعرّفنا بفضل نقشة مسجد بخورة على اسم الخطاط، ولكن لم نتصل بأيّة معلومات عن هذه الشخصية. كما ورد في نفس النقشة تاريخ يشير في رأينا إلى تاريخ تنفيذ الكتابة وليس إلى تاريخ تأسيس المنشأة.

3 - الشرافات :

إنّ إياضية مزاب تخلّوا تماما عن تلك العناصر الزخرفية التي عم استعمالها عند أسلافهم في سدراتة، واكتفوا بالعناصر التي تؤدي غرضا معماريا، ولكن شرافات المآذن خرجت في



الصورة 100 : نقشة حجرية مسجد بخورة



الصورة 101 : نقشة حجرية مسجد خرداية

نظر أندري رافيرو Ravéreau André عن القاعدة، فهذه الشرافات في رأيها لها دور فزيائي حقيقي⁽¹⁾، بينما تلك التي تعلو المصلى الجنائزي بابه أو الجمة، فلا يمكن أن تشارك في توازن المبنى، ولم تكن سوى عنصرا زخرفيا، فهل يتعلّق الأمر هنا بتواصل تاريخي لعنصر معماري ؟

(1) - André Ravéreau: Op.cit, p: 189 .

يبين أن هذا العنصر الزخرفي قديم وتعود جذوره حسب مارسيل مرسييه Marcel Mercier إلى عبادة الأحجار الوثنية الأكثر رواجاً عند الفينيقيين الذين أدخلوا هذه العبادة إلى شمال إفريقيا في فترة تواجدهم فيها (ابتداء من القرن الثامن إلى القرن الثاني ق.م) ومنذ تلك المرحلة التاريخية أصبحت هذه الأحجار المقتنسة حسب رأيه تنتصب في كل الأماكن المقتنسة⁽¹⁾.

حتى إذا سلمنا بفرضية استلهم هذا العنصر المعماري من أصول وثنية قديمة كما سبق ذكره آنفاً، فلا شك أن استعمال المزابيين له كان لغرض زخرفي بحت، إذ كانوا يتوجون به كل مبانيهم بما في ذلك المباني العسكرية مثل الأبراج وحتى المدنية منها، وربما كان استعمالهم لهذا العنصر في العمارات الدينية، ولا سيما في المآذن وفي أركان بعض المصليات الجنائزية، لا يخلو أن يكون سوى لهدف تعيين الجهات الأصلية الأربعة.

وعلى الرغم من الفرضيات التي استقيناها، إلا أن هذا العنصر المعماري يبقى يحتاج أكثر إلى البحث والدراسة، ونفترض أن هناك دلالات أخرى اجتماعية ونفسية لم نتمكن من الوقوف عندها.

ينتشر هذا العنصر المعماري (الشرفات) في جربة بتونس وعلى الخصوص في بلاد السودان الغربي، حيث تنتصب هذه الشرفات في أعلى أركان المساكن والمآذن والمساجد في تومبوكتو مثلاً⁽²⁾.

إن شرفات وادي مزاب تختلف تماماً عن الشرفات التي تعودنا رؤيتها في العمارات الإسلامية في مختلف العصور وفي شتى الأقاليم في المشرق وفي المغرب الإسلامي، سواء المباني الدينية منها أو المدنية أو العسكرية، إذ تبدو هنا على شكل أعمدة صغيرة أو نوءات منتفخة في الأسفل وتضيق كلما ارتفعت نحو الأعلى (الصور 69، 70، 71، 72، 79، 80)، بحيث تنتصب في شكل قالب سكر فوق الأركان الأربعة للمعلم ويتراوح ارتفاعها ما بين 55م و 10م.

(1) - Marcel Mercier: Civilisation ... , p: 152 - 153.

(2) - Ibid , p: 152

4- القيم الجمالية في العمارة المزابية :

تمتاز العمارات الدينية المزابية بالبساطة والتقشف في البناء مما يجعلنا نتساءل عن موقعها بالنسبة لمعيار الجمال. فعلى أي المعايير يمكن الاستناد عليها لتتوق جمالية العمارة المزابية؟ خصوصاً أمام معارفنا المسبقة عن العمارة السلطانية أو الأميرية التي تبتعد كل البعد عن العمارة الشعبية المحلية بسبب تفوق الأولويات والإمكانات الإنسانية.

وفي هذا المجال يجب علينا الخوض في موضوع الحكم الجمالي بحد ذاته فعلى أي مقياس نقيم العمل الفني ونصدر عليه حكماً، وفي هذا الموضوع يرى إبراهيم زكرياء أن الحكم الجمالي يعبر عن وجهة نظر الإنسان، ولكن من المؤكد أن نسبة الحكم ليست هي التي تكون ثبات الموضوع أو تسنده، وإنما الذي يحدد قيمة الحكم ويدعمها هو القانون الذاتي الباطني للموضوع، فليست الذات هي كل شيء في الحكم الجمالي، وإنما التوازن الذي في الموضوع نفسه في صميم بنائه الجمالي، وهذا هو الفيلسوف الحقيقي الذي يبقى الحكم الجمالي مشروطاً به دائماً، وتبعاً لذلك فإن كل عمل فني إنما يحمل في ذاته نسقاً خاصاً من الضروريات التي تنبع من خلالها كيفية الجمالية⁽¹⁾.

ولتقويم جمالية العمارة المزابية في جميع أنواع المباني لا سيما الدينية منها، لا بد من أن ننطلق من المفهوم الذي قدمه حسن فتحي عن الإستيطيقا عندما قال: "أن الإنسان المزابي الذي عمل بكلتا يديه وكافح ضدّ العوارض الطبيعية بتقافته وبمواد البناء المتوفرة في بيئته، بقي في صراع دائم معها، وحينما تمكن من حل المشكلة خلق الجمال"⁽²⁾، ويفهم من هذا القول أن إنتاج الفن يتم بتفاعل البيئة الطبيعية مع الإرث الحضاري والثقافي للفنان. فمقاييس الجمال تتغير من مجتمع إلى آخر ومن عصر إلى آخر، وكل مجتمع مفاهيمه ورؤيته في تقويم الجمال الذي يعدّ نتاج تعامل ذلك الفرد أو المجتمع مع محيط بيئته عبر العصور. فموسيقى الشعوب البدائية مثلاً لا ينقلها ذوق الإنسان الحالي، فسمات الجمال إذاً هي سمات كل عصر. فمقاييس الجمال تختلف مثلاً عند الإغريق عما هي عند الرومان وعند الحضارات الأخرى، وحتى في العصر الحديث فإن مقاييس الجمال عند القبائل الإفريقية تختلف عن

(1) - إبراهيم زكرياء : مشكلة الفن، ص: 230.

(2) - André Ravéreau: Op.cit , p : 12 .

يبين أن هذا العنصر الزخرفي قديم وتعود جذوره حسب مارسيل مرسية Marcel Mercier إلى عبادة الأحجار الوشيبة الأكثر رواجاً عند الفنيقيين الذين أدخلوا هذه العبادة إلى شمال إفريقيا في فترة تواجدهم فيها (ابتداءً من القرن الثامن إلى القرن الثاني ق.م) ومنذ تلك المرحلة التاريخية أصبحت هذه الأحجار المقدسة حسب رأيه تنتصب في كل الأماكن المقدسة⁽¹⁾.

حتى إذا سلمنا بفرضية استلهم هذا العنصر المعماري من أصول وثنية قديمة كما سبق ذكره آنفاً، فلا شك أن استعمال المزابين له كان لغرض زخرفي بحت، إذ كانوا يتوجسون به كل مبانئهم بما في ذلك المباني العسكرية مثل الأبراج وحتى المنيعة منها، وربما كان استعمالهم لهذا العنصر في العمائر الدينية، ولا سيما في المآذن وفي أركان بعض المصليات الجنائزية، لا يخلو أن يكون سوى لهدف تعيين الجهات الأصلية الأربعة.

وعلى الرغم من الفرضيات التي استقيناها، إلا أن هذا العنصر المعماري يبقى يحتاج أكثر إلى البحث والدراسة، ونفترض أن هناك دلالات أخرى اجتماعية ونفسية لم نتمكن من الوقوف عندها.

ينتشر هذا العنصر المعماري (الشرفات) في جربة بتونس وعلى الخصوص في بلاد السودان الغربي، حيث تنتصب هذه الشرفات في أعلى أركان المساكن والمآذن والمساجد في تومبوكتو مثلاً⁽²⁾.

إن شرفات وادي مزاب تختلف تماماً عن الشرفات التي تعودنا رؤيتها في العمائر الإسلامية في مختلف العصور وفي شتى الأقاليم في المشرق وفي المغرب الإسلامي، سواء المباني الدينية منها أو المدنية أو العسكرية، إذ نجد هنا على شكل أعمدة صغيرة أو نتوءات منتفخة في الأسفل وتضيق كلما ارتفعت نحو الأعلى (الصور 69، 70، 71، 72، 79، 80)، بحيث تنتصب في شكل قالب مكر فوق الأركان الأربعة للمعلم ويتراوح ارتفاعها ما بين 0,55م و 1,10م.

(1) - Marcel Mercier: Civilisation ... , p: 152 - 153.

(2) - Ibid , p: 152

4- القيم الجمالية في العمارة المزابية :

تمتاز العمائر الدينية المزابية بالبساطة والتكشف في البناء مما يجعلنا نتساءل عن موقعها بالنسبة لمعيار الجمال. فعلى أي المعايير يمكن الاستناد عليها لتتوق جمالية العمارة المزابية؟ خصوصاً أمام معارفنا المسبقة عن العمارة السلطانية أو الأميرية التي تبتعد كل البعد عن العمارة الشعبية المحلية بسبب تفوق الأولويات والإمكانات الإنشائية.

وفي هذا المجال يجب علينا الخوض في موضوع الحكم الجمالي بحد ذاته فعلى أي مقياس نقيم العمل الفني ونصدر عليه حكماً، وفي هذا الموضوع يرى إبراهيم زكرياء أن الحكم الجمالي يعبر عن وجهة نظر الإنسان، ولكن من المؤكد أن نسبة الحكم ليست هي التي تكون ثبات الموضوع أو تسنده، وإنما الذي يحدد قيمة الحكم ويدعمها هو القانون الذاتي الباطني للموضوع، فليست الذات هي كل شيء في الحكم الجمالي، وإنما التوازن الذي في الموضوع نفسه في صميم بنائه الجمالي، وهذا هو الفحص الحقيقي الذي يبقى الحكم الجمالي مشروطاً به دائماً، وتبعاً لذلك فإن كل عمل فني إنما يحمل في ذاته نسقاً خاصاً من الضروريات التي تشع من خلالها كيفية الجمالية⁽¹⁾.

ولتقويم جمالية العمارة المزابية في جميع أنواع المباني لا سيما الدينية منها، لا بد من أن ننطلق من المفهوم الذي قنمته حسن فتحي عن الإستبطان عندما قال: "أن الإنسان المزابي الذي عمل بكلتا يديه وكافح ضد العوارض الطبيعية بتقافته وبمواد البناء المتوفرة في بيئته، بقي في صراع دائم معها، وحينما تمكن من حل المشكلة خلق الجمال"⁽²⁾، ويفهم من هذا القول أن إنتاج الفن يتم بتفاعل البيئة الطبيعية مع الإرث الحضاري والثقافي للفنان. فمقاييس الجمال تتغير من مجتمع إلى آخر ومن عصر إلى آخر، ولكل مجتمع مفاهيمه ورؤيته في تقويم الجمال الذي يعد نتاج تعامل ذلك الفرد أو المجتمع مع محيط بيئته عبر العصور. فموسيقى الشعوب البدائية مثلاً لا يتقبلها ذوق الإنسان الحالي، فسمات الجمال إذاً هي سمات كل عصر. فمقاييس الجمال تختلف مثلاً عند الإغريق عما هي عند الرومان وعند الحضارات الأخرى، وحتى في العصر الحديث فإن مقاييس الجمال عند القبائل الإفريقية تختلف عن

(1) - إبراهيم زكرياء : مشكلة الفن، ص: 230.

(2) - André Ravéreau: Op.cit , p : 12 .

الأوروبية وعن الشعوب البدائية⁽¹⁾. والجمال في العمارة ليس منفصلا عن أهم مؤثر في الشكل المعماري الذي يمكن من خلاله إعطاء حكم جمالي للعمل الفني المنجز، ألا وهي الوظيفة.

فالشكل لا بد أن يكون نتيجة لتحقيق الوظائف، ومن هنا فإن الأسطح المكونة للشكل المعماري ما هي إلا مستويات تحدد فراغات أنشئت لأداء وظائف محدّدة، وانطلاقا من هذا فإن أي تقويم للشكل المعماري يجب أن يبنى على الربط بين الشكل والوظيفة التي كانت السبب في وجوده. ومعنى هذا أن تصوّر الجمال في العمارة يختلف عن أي فن آخر، فالجمال هنا ليس هدفا بحد ذاته ولا يمكن أن يكون هدفا بل هو نتيجة.

ويرى لويس سوليفان في هذا الصدد أن الأشكال هي المظهر الخارجي للقوى والاحتياجات الداخلية⁽²⁾، ومما لا شك فيه أن الشكل المعماري للعمائر الدينية في مزاب تولّد من هذا المبدأ، ولا سيما ونحن أمام عمارة وظيفية باتم معنى الكلمة، فالوظائف هنا هي التي حدّدت وأنتجت الشكل في النهاية، لأن الهدف من العمارة ليس الحصول على مبان جميلة فحسب، بل هو تلبية لحاجيات الإنسان في كلّ جوانبها، كما أن جمالية العمارة المزابية تكمن في ذلك الانسجام الذي يحصل بين شكل المبنى والوظيفة التي يؤدّيها داخل المجتمع ضمن إطار بيئي معيّن.

كما يمكن إضافة عنصر آخر نراه ضروريا في معادلة الحكم الجمالي بتقييم الأعمال الفنية المعمارية، ألا وهو موقع المبنى داخل النسيج العمراني للمدينة، فترتيب المباني على شكل هرمي، تبعا لأهميتها والوظيفة التي أنجزت من أجلها، يضيف عليها صبغة جميلة ومنظرا رائعا، فكل أنواع المباني في المدينة المزابية منظّمة حول مركز العبادة والسلطة الروحية الذي يتمثّل في المسجد وملحقاته، ويبدو برفعه وشموخه بارزا عن باقي المباني والمنشآت الأخرى بفضل موقعه الاستراتيجي المتميز الذي أختير له مكانا في أعلى قمة الهضبة التي تتدرّج فيها مختلف العنائر المشكّلة للمدينة المزابية، وقد زاد في سمو المسجد ورفعه تلك المئذنة ذات الشكل الهرمي الناقص المنطلقة في اتجاه السماء.

ولقد تحاشى المهندس المزابي استخدام الخط المستقيم واعتمد على الخط المنحني الذي استلهمه حسب رياض المرباط من استدارة الأفق، ويرمز لحنو السماء، ويظهر ذلك جليا في شكلي القبو والقبة اللذين يظهران على شكل قبة السماء⁽¹⁾. ويذهب إلى مثل هذا التفسير إمانويل روش فيقول: "لم تهمل الزاوية القائمة هنا عن رعونة ولا عن جهل، بل حسب رأينا عن سمو روح"⁽²⁾.

5- مسألة خلو العمائر الدينية من الزخرفة:

يبدو أن خلو المباني الدينية الإباضية من مساجد ومصليات جنازية بوادي مزاب من العناصر الزخرفية بكل أنواعها يعود أساسا إلى عامل رئيسي ألا وهو:

العامل العقائدي: فجمهور الفقهاء عامة وفقهاء الإباضية خاصة يميلون إلى النهي عن تزيين المساجد وتخصيص مساحات لذلك، وحبّتهم في ذلك أن الزخرفة والزينة قد تكون سببا في انشغال المصلين عن صلاتهم.

وفعلا فقد ورد في تحريم زخرفة وتعميق المساجد أحاديث نبوية عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: "ما أمرت بتشديد المساجد"، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد"⁽³⁾.

ولقد روي في السير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما أمر ببناء مسجد النخيل قال للصانع: "أكن الناس من الشمس والمطر وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس"⁽⁴⁾.

ويوجز لنا البطاشي رأي المذهب الإباضي في مسألة تعميق المساجد وتزيينها في الآيات الآتية:

(1) - رياض المرباط: المرجع السابق، ص: 153.

(2) - M. Roche: Op.cit, p: 141.

(3) - محمد القيسي: المساجد بين الاتباع والابتاع، دار القلم، الجزائر د. ت، ص: 40، 41.

(4) - مرجع نفسه، ص: 24.

(1) - رفيف مهنا ويسن بحر: المرجع السابق، المكتب الثاني، ص: 7.

(2) - مرجع نفسه، المكتب الثاني، ص: 7.

فالنهي فيهن وارد
يبنى على جدارها يمدان
تعظيمها نكر الإله فيها
ولا نقوش ولا بصفيرة
لبعض من قضائه أولى الرتب
والشرفات في الكلام وارد
لا يكتبن في قبلة للمسجد
خشية أن يشغل من قد يقف
ولا يجوز فيه جعل صورة⁽¹⁾

وقيل لا تزين المساجد
لوشرافات وذي ستر
زينتها نظافة عليها
فلا يزين مسجد بحمرة
وقد روي أن علياً قد كتب
من إحدوا التزيين في المساجد
وعن أبي محمد المعجد
شيء من الكلام وهو يعرف
من كلم القرآن أو موعظة

ولعل ما ذكره عبد الرحمن بن خلدون في مقمته يقيم لنا فكرة واضحة عن ذلك المنع الذي كان يدعو إليه الإسلام، وتلك البساطة والتشغف اللذين اتسمت بهما المباني في صدر الإسلام، فيقول في هذا الصدد: "وأيضاً فكان الدين في أول الأمر مانعاً من المغالاة في البنين والإشراف فيه في غير قصد كما عهد إليهم عمر عندما استأذنه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل، فقال: افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنين، أنزمو السنة تلمزمكم الدولة، وعهد إلى الوفد، وتقم إلى الناس أن لا يرفعوا بنياناً فوق القدر قالوا: وما القدر؟ قالوا ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد"⁽²⁾.

إن مسألة خلو المباني الدينية المزابية من كل أنواع الزخرفة تجرنا بكل تأكيد إلى طرح تساؤل لطالما يفرض نفسه على الباحثين في كل محاولة لدراسة العمارة المزابية. إذا كان الفن الإباضي في وادي مزاب يعد وريث الفن السدراتي — باعتبار انتقال عدد هائل من السدراتيين إلى المنطقة بعد سقوط مدينتهم — الذي وصل بالرغم من تشدد المذهب الإباضي في هذه المسألة وباعتراف مؤرخي الفن إلى درجة كبيرة من الإبداع والإتقان والرقى الفني. فلماذا إذاً ذلك الانقطاع التام وانعدام التواصل بين الفنين (السدراتي والمزابي)؟

(1) - البطشي: المرجع السابق، ج: 4، ص: 127، 128.

(2) - عبد الرحمن بن خلدون: المقامة، دار العودة، بيروت د. ت، ص: 284-285.

يمكن أن نفترض نوعاً من التسيب الديني الذي ساد في وسط المجتمع الإباضي في سدراتة بسبب انتشار حياة الترف والرفاهية في العيش، وكان من بين الثائرين في اعتقادنا على ذلك الوضع منظر ومنظم نظام العزابة أبي عبد الله محمد بن بكر الفرستاني الذي قام بحركة إصلاحية مع تلاميذه في سبيل الرجوع بالفكر الإباضي إلى نقائه الأولي، ومنها تطبيق المبادئ التي تدعو إلى تحريم التصوير بكل أشكاله.

فمن جهة وصل الفن الإباضي في سدراتة إلى مستوى عال من الدقة والإتقان والإبداع الفني في مجال الزخرفة، ومن جهة أخرى جعل إباضية وادي مزاب حدّاً فاصلاً مع تقاليد أسلافهم الفنية القديمة، فرفضوا الزخرفة بمختلف أنواعها وأشكالها. فكلّ العمار ولا سيما الدينية منها أصبحت تتقيد بالبساطة والتشغف اللذين يترجمان بحق العودة إلى المبادئ الإسلامية الأولى.

ولعل الرفاهية التي كان عليها أهل سدراتة كانت السبب المباشر في جلب أطماع الغزاة نحوها، وبالتالي أنتت إلى سقوطها، وخوفاً من تكرار التجربة المريرة وملاقاة نفس المصير ابتعد النازحون من الإباضية إلى مزاب من كل ما يمكن أن يجلب أطماع أولئك الغزاة من الأعداء، وخاصة إذا علمنا أنّ غاية النازحين الأوائل إلى المنطقة الجرداء القاحلة، كان الفرار بمذاهبهم وعقيدتهم وحمايتهم من الزوال.

ولربما كان للفكر المعتزلي المتشدد في هذا المجال أيضاً أثره على نفوس سكان المنطقة، على الرغم من اعتناقهم للمذهب الإباضي، ولا سيما إذا علمنا أنّ هؤلاء قد قاموا قبل النزوح الإباضي بتشييد قرى في المنطقة، بل لقد كان لهم الشرف في تشييد المدينة الإباضية الأولى (العطف) من بين المدن السبع الأخرى. فما كان إذاً من النازحين الجدد من الإباضية سوى الخضوع لتلك التقاليد المعمارية.

ثالثاً - مواد البناء :

اعتمد البناء المزابي على ما توفر له البيئة الطبيعية المحيطة به من مواد بناء مختلفة، واستغلها أحسن استغلال في إنجاز كل المنشآت سواء العامة منها أو الخاصة، ولم يلجأ إلى

وتنتشر المحاجر والمقالع الخاصة بهذه المادة في كل محيط وادي مزاب، وقد استعملت قديما واستنفذ معظمها، ويُطلق الأهالي على هذا النوع من الصخور التي تُستخرج منها هذه المادة اسم "كدام" أو "حجر الكاف".

تُستخرج هذه المادة من الهضبة الكلسية التي تشكّل الأكوام الزجاجية Lentixulaire التي تمتد على شكل طبقات أفقية على عمق 1م تحت سطح الأرض. وتتركّب مادة التمشنت من المواد الآتية :

- كاربونات الجير 88 %
- الطين (سيليكات الألمنيوم) 11 %
- الشوائب (كلوريد الكالسيوم) 1 %⁽¹⁾

ويتم استخراج التمشنت من تلك الصخور بطريقة صناعية، وذلك عن طريق الأفران التي يُطلق عليها باللهجة المحلية اسم "أشْبُور". وتكون هذه الأفران مدفونة تحت الأرض بحيث لا يظهر منها سوى فتحة أو فوهة يدخل من خلالها الهواء. وتتم طريقة الصنع بوضع أحزمة من النباتات الصحراوية في قاع الفرن ثم توضع الصخور الكلسية عليها بحيث تشكل بدورها قبوا داخل الفرن بعلو يقارب 1,50م.

تدوم عملية الاحتراق مدة أربع وعشرين ساعة لتتفتت الصخور ولا يبقى في النهاية سوى عزل المادة الناتجة عن الرماد⁽²⁾.

إن أهمية المادة المستخرجة تكمن في احتوائها على كميات من السيليكات الألمنيوم و كاربونات الجير بقدر النسبة الموجودة في الإسمنت، وهذا ما يفترق قوة التماسك في هذه المادة التي استعملت كملاط بمثابة الإسمنت.

3- الجير :

تتوفّر الكاربونات في بلاد الشبكة بكثرة، وتُستخرج هذه المادة بنفس طريقة صنع التمشنت، إذ يتم حرق الصخور الكلسية في أفران يبلغ ارتفاعها 2م، ولكن عملية إنتاج الجير

استيراد مواد من مناطق أخرى، إلا في حالة الضرورة القصوى مثل جذوع النخيل التي استُخدمت من ورقلة واستعملت في المسجد العتيق وملحقاته بمدينة غرداية.

تؤدّي مواد البناء دورا أساسيا في تكوين الشكل المعماري، فمن خلالها ومن خلال الأساليب والوسائل والأدوات المستعملة في توظيف وتنفيذ هذه المواد، يؤثر الإنشاء على الشكل المعماري. فلكلّ مادة خصائص ومميزات تستوجب استعمالات معينة وتفرض نفسها على الشكل⁽¹⁾.

ولقد كان لمواد البناء أيضا دور في إعطاء الشكل النهائي للفضاءات الداخلية، فكير أو صغر حجم الفضاء المعماري داخل المنشآت الدينية بمزاب يكون دائما تبعا للاستعمال العقلاني للمواد التي توفّرها الطبيعة المحلية، ونظائرا من هذا لمبدأ استخدم المزابيون مواد البناء الآتية:

1- الحجارة :

تعدّ المادة الأساسية في تشييد المباني الدينية، نظرا لوجود مقالع ومحاجر عديدة وقريبة. وتُقطع الأحجار بأحجام مختلفة من الطبقات الكلسية البيضاء المنتظمة المكوّنة للهضاب الصخرية المحيطة بالوادي. وتُستخدم هذه المادة دون اللجوء إلى نحتها، ويمكن صقلها صقلا خفيفا أثناء تناولها للاستعمال في الميدان، وتُختار الصفائح الحجرية لتبليط الأرضيات أو تُستعمل في بناء عارضات المداخل.

2- التمشنت :

نوع من أنواع مادة الجبس التي تتوفّر بكمية كبيرة في منطقة وادي مزاب، ولكن هذا لا يعني عدم توفّرها في المناطق الأخرى، فمنطقة المنيع وورقلة والأغواط وغيرها من المناطق الصحراوية الأخرى الغنيّة بهذه المادة، إلا أنّ تمشنت وادي مزاب مختلفة عنها بلونها المائل إلى الأحمر⁽²⁾.

(1) - Donnadieu: Op.cit, p:88 .

(2) - Marcel Mercier: Civilisation , p: 299 .

(1) - ونيف مينا ويسن بحر: المرجع السابق، الكتاب الثاني، ص : 26 .

(2) - Marcel Mercier: Civilisation ... , p: 299 .

مكّفة لاستهلاكها لكمية كبيرة من الخشب يُقدَّر بخمس مرّات الحطب المستعمل في إنتاج التمشنت⁽¹⁾.

ويُستخدم الجير في تكسية الجدران على الخصوص، فيمزج في شكل سائل مع كمية من الرمل بمقدار 1 كلغ مقابل 10 كلغ من الرمل.

4- الخشب :

استغلّ المزابي كلّ ما توفّره له النخلة في بناء منشآته المعمارية من جذوع وجريد وسعفه. ويُطلق على جذوع النخيل في اللهجة المحلية، اسم "تَمَالَقَتْ" ولا تُستخدم هذه المادّة في البناء، إلّا بعد موت النخلة بطبيعة الحال، وذلك حفاظا على الثروة النخيلية والواحة التي دفع الرجل المزابي الغالي والنفيس في سبيل إحيائها، وخاصة أنها كانت تُعدّ مصدر قوته.

وتقطع جذوع النخيل طوليا إلى جزئين أو ثلاثة أو حتى إلى أربعة أجزاء في بعض الأحيان حينما توجّه لغرض استعمالها كعارضات، وهنا تكون ذات وجه مسطح يتراوح عرضه ما بين 12 و 15 سم، وطولها ما بين 2 و 3 م. كما يمكن أن يقطع جذع النخلة إلى ألواح، يتراوح عرضها ما بين 30 و 40 سم، وسمكها لا يتعدّى 3 سم وتُستخدم في صنع الأبواب.

وأما جريد النخيل فيترك في الشمس حتى يجفّ ثمّ يُستعمل بسعفه أو بدونه في تشكيل تقويسة العقد والأقبية وحتى في بناء السقوف المسطّحة.

(1) - Donnadiou: Op.cit, p: 88 .

الخاتمة

الخاتمة

بعد محاولة التوغّل داخل مكنونات وأسرار عمارة المساجد والمصليات الجنائزية الإباضية بمنطقة وادي مزاب ودراسة هذه المنشآت من خلال بعض النماذج المختارة منها، والتي تقدّم صورة واضحة وشاملة عن العنّات المندرجة داخل هذا الإطار. لقد كانت عملية الوصول إلى مقاييس تأريخ هذه المنشآت المعمارية من أهمّ شواغل هذا البحث، على الرغم من صعوبة المخاطرة في هذا المجال في ظلّ غياب كلّ للوثائق والأدلة التاريخية.

وفي هذا الصدد اعتمدنا في محاولتنا لتحديد فترة تأسيس المعالم المأخوذة كعينات في هذا البحث على بعض المؤشرات التاريخية النسبية، مثل تقنية البناء والعناصر المعمارية، بالإضافة إلى المصادر التاريخية الإباضية الشحيحة في هذا الميدان. ولا يمكن الجزم والإدعاء أنّنا توصلنا حقيقة إلى نتائج دقيقة، بل سيبقى المجال مفتوحاً لقراءات أخرى في مجال هذا البحث.

لقد نشأت مختلف المساجد والمصليات الجنائزية الإباضية في مزاب بسيطة في بنائها، ولم تتطوّر في أساليبها الإنشائية على مرّ الزمن، بل بقيت محافظة على تلك الحال من البساطة والتشّيف في البناء طوال قرون من الزمن.

ويأتي على رأس هذه العنّات المسجد الذي يعدّ عند المجتمع المزابي إضافة إلى دوره الديني مقرّ للسلطة الروحية (حلقة العزّابة) ومخزن للمؤن (التّمور والحبوب). لذا فقد أراد المعماري المزابي تجسيد هذه المنزلة المرموقة للمسجد لدى المجتمع المزابي تجسيدا معماريا، فاختر له موقعا إستراتيجيا يتماشى ومكانته الرفيعة في أوساط المجتمع، وانطلاقا من هذا أخذ مكانا في أعلى قمّة الهضبة التي تتدرّج فوقها ومن حوالي المسجد المنشآت المدنية المختلفة. وهكذا أصبح المسجد يشرف على كلّ المنشآت الأخرى، وقد زاده رفعة وشموخا تلك المئذنة ذات الشكل الهرمي الناقص.

لم تختلف المساجد الإباضية بمزاب عموما في تصميمها عن المساجد الإسلامية المتناثرة في أرجاء العالم الإسلامي، وطبق المعماريون المزابيون طرازا معماريا موحّدا. ويتعلّق الأمر هنا بطراز المساجد ذات الأعمدة والدعامات، فذلك العدد الهائل من الدعامات داخل بيوت الصلاة جعلها تتدرج بطبيعة الحال ضمن هذا الطراز.

قُبِعَت المساجد الإباضية في بساطة بنائها المساجد الإسلامية الأولى (المسجد النبوي الشريف ومسجد البصرة ومسجد الكوفة) ولم تخرج عن تلك التقاليد المعمارية طيلة قرون من الزمن.

لقد اتسعت بيوت الصلاة عرضيا على غرار الجامع الأموي بدمشق، وخلافا للتقاليد المعمارية الإسلامية قُبِعَت البوائك في مساجد مزاب في مسارها نحو جدار القبلة اتجاها مزدوجا صونيا وموزيا، فقد جرت العادة أن تأخذ البوائك في اتجاهها نحو جدار القبلة مسارا واحدا إما صونيا أو موزيا، ولما تسير في الاتجاهين معا. وقد أخذت المساجد المزابية على العموم شكلا غير منتظم في تخطيطها، ولا شك أن كثرة الإضافات والتوسعات المتتالية في جهات مختلفة من المسجد كانت العامل الرئيسي في عدم الحصول على شكل نهائي منتظم.

إن هذا التصميم البسيط لم ينحصر في منطقة وادي مزاب فقط بل تجاوزته إلى المراكز الإباضية الأخرى (جبل نفوسة بليبيا وجربة بتونس)، وإلى الأقاليم الصحراوية إلى درجة أنه بإمكاننا إطلاق مصطلح مساجد الشريط الصحراوي على هذه المساجد.

طَبَّق نفس التصميم الإسلامي في بناء الصحن والأروقة المحيطة به من جميع الجهات، باستثناء جهة القبلة، وقد خرج عن هذا التقليد مسجدا بني يزقن والقرورة اللذان تطوَّق الأروقة صحنهما من جميع الجهات. ولكن موقع الصحن بالنسبة لبيت الصلاة جاء في بعض الأحيان مغايرا عما ألفناه في عمارة المساجد التي جعلت الصحن يأخذ مكانه منتقما بيت الصلاة على محور المحراب، وعلى هذا جاء صحن مسجد بني يزقن مجانباً بيت الصلاة.

لقد جلب فتياننا تجاور محرابين جنباً إلى جنب وكانت كل الدلائل والقرائن تستبعد فكرة التوسع أو فكرة محراب النكري التي يستند عليها بعض الباحثين والمهتمين من الأهالي لتبرير الظاهرة، ولكن اعتمادا على قرائن تاريخية وحسب قراءتنا يبدو لنا أن أسباب الظاهرة تعود في أساسها إلى عامل اختلاف الروى الذي أدى إلى التفرقة التي عانى منها بنو مزاب كثيرا لفترة زمنية طويلة والتي كانت وراء بروز هذه الظاهرة التي اختفت مع أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادين، ولكن لا عجب في ذلك ما دامت ظاهرة تعدد المحاريب بسبب اختلاف الروى (المذهبية) تبرز حتى في المساجد العظيمة مثل الجامع الأموي بدمشق. ويبقى الإشكال مطروحا أمام الباحثين للبحث والتعمق أكثر في هذه المسألة بقراءات ووجهات نظر ربما تكون مختلفة.

ومن بين مميزات المساجد الإباضية أيضا خلوها من عنصر المنبر الذي يعد دليلا لإقامة صلاة الجمعة، ولقد فترنا هذه المسألة بعد الرجوع إلى الفكر الإباضي نفسه، حيث اكتشفنا أن رؤية الفقه الإباضي حول قضية صلاة الجمعة كانت السبب المباشر لغياب المنبر في المساجد الإباضية سواء داخل الجزائر أو خارجها مثل جبل نفوسة في ليبيا أو في جربة بتونس.

تعلو في المساجد المزابية مآذن ذات طراز هرمي الشكل، فجدراتها تميل في شكل انسيابي نحو الداخل وتضيق كلما زادت في الارتفاع، وتعلو انطلاقا من القاعدة إلى قمة الجوسق على شكل هيكل واحد. وبحنا وراء أصل ومنشأ هذا النمط المعماري، وصلنا إلى نتيجة مفادها أن منئذ مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في دومة الجندل كانت المصدر والمنبع الذي ارتوت منه كل المناطق الأخرى (اليمين وليبيا وتونس) التي انتشر فيها هذا النمط بقوة، ولم يكن توغله في إفريقيا الغربية أو ما يعرف ببلاد السودان العربي قديما، إلا بفضل القوافل التجارية الإباضية التي تنطلق من وادي مزاب في اتجاه المنطقة.

لقد رأينا في ثنايا هذا البحث كيف كانت المصليات الجنائزية في أصلها مدارس حيث مارس بعض الشيوخ مهامهم في التدريس بعيدا عن مشاغل الدنيا، وذلك تقليدا لأسلافهم من الإباضية، فاختاروا من أجل ذلك مواقع بعيدة عن التجمعات السكانية لبناء مدارسهم، وتطور هذه المنشأة بعد وفاة الشيخ المدرس ودفنه على مقربة من مدرسته، لتتحول هذه الأخيرة إلى مصلى جنائزي بعد ضم قبور أخرى إلى جوار قبر الشيخ العالم، وهكذا تصبح مقبرة لعشيرته أو عرشه، فتتغير بذلك وظيفتها، فمن منشأة تعليمية تربوية إلى منشأة جنائزية تتم فيها وظائف ذات علاقة كبيرة بالميت. ولقد تمكنا من تمييز نوعين أو نمطين مختلفين من المصليات الجنائزية ضمن طراز المصليات المغطاة وذلك اعتمادا على أسلوب وتقنية التسقيف، فميزنا بين تلك المغطاة بالقباب والأخرى المغطاة بالأقبية، كما لاحظنا وجود المصليات المكشوفة التي يحيط بها سياج جداري فقط، وتؤكد وظيفتها تلك العنزة المفتوحة في جدار القبلة.

يبدو أن خلو العناصر الدينية من كل أنواع الزخرفة (نباتية وهندسية وكتابية) يعود أساسا إلى عامل عقائدي، فالأحاديث النبوية الشريفة التي تحرم زخرفة المباني الدينية وتدعو إلى البساطة والتعفف في البناء قد لقت آذانا صاغية وواعية لدى جمهور فقهاء الإباضية، ومن ثم تجسدت بكل ثقلها في العناصر الدينية بمزاب، وحول هذه المسألة طرحنا عدة فرضيات لتساؤلات

اتّبعَت المساجد الإباضية في بساطة بنائها المساجد الإسلامية الأولى (المسجد النبوي الشريف ومسجد البصرة ومسجد الكوفة) ولم تخرج عن تلك التقاليد المعمارية طيلة قرون من الزمن.

لقد اتّسعت بيوت الصلاة عرضيا على غرار الجامع الأموي بدمشق، وخلافا للتقاليد المعمارية الإسلامية اتّبعَت البوائك في مساجد مزاب في مسارها نحو جدار القبلة اتّجاها مزدوجا صومليا وموزابيا، فقد جرت العادة أن تأخذ البوائك في اتّجاهها نحو جدار القبلة مسارا واحدا إما صومليا أو موزابيا، وكلّما تسير في اتّجاهين معا. وقد أخذت المساجد المزابية على العموم شكلا غير منتظم في تخطيطها، ولا شك أن كثرة الإضافات والتوسّعات المتتالية في جهات مختلفة من المسجد كانت العامل الرئيسي في عدم الحصول على شكل نهائي منتظم.

إنّ هذا التصميم البسيط لم ينحصر في منطقة وادي مزاب فقط، بل تجاوزته إلى المراكز الإباضية الأخرى (جبل نفوسة بليبيا وجربة بتونس)، وإلى الأقاليم الصحراوية إلى درجة أنّه بإمكاننا إطلاق مصطلح مساجد الشريط الصحراوي على هذه المساجد.

طُبّق نفس التصميم الإسلامي في بناء الصحن والأروقة المحيطة به من جميع الجهات، باستثناء جهة القبلة، وقد خرج عن هذا التقليد مسجدا بني يزقن والقرارة اللذان تطوّق الأروقة صحنهما من جميع الجهات. ولكن موقع الصحن بالنسبة لببيت الصلاة جاء في بعض الأحيان مغايرا عما ألفناه في عمارة المساجد التي جعلت الصحن يأخذ مكانه متّكّما بيت الصلاة على محور المحراب، وعلى هذا جاء صحن مسجد بني يزقن مجانباً بيت الصلاة.

لقد جلب انتباهنا تجاور محرابين جنباً إلى جنب وكانت كلّ الدلائل والقرائن تستبعد فكرة التوسّع أو فكرة محراب الذكرى التي يستند عليها بعض الباحثين والمهتمين من الأهالي لتبرير الظاهرة، ولكن اعتمادا على قرائن تاريخية وحسب قراءتنا يبدو لنا أنّ أسباب الظاهرة تعود في أساسها إلى عامل اختلاف الرؤى الذي أدّى إلى التفرقة التي عانى منها بنو مزاب كثيرا لفترة زمنية طويلة والتي كانت وراء بروز هذه الظاهرة التي اختلفت مع أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادي، ولكن لا عجب في ذلك ما دامت ظاهرة تعدّد المحاريب بسبب اختلاف الرؤى (المذهبية) تبرز حتى في المساجد العظيمة مثل الجامع الأموي بدمشق. ويبقى الإشكال مطروحا أمام الباحثين للبحث والتعمّق أكثر في هذه المسألة بقراءات ووجهات نظر ربّما تكون مختلفة.

ومن بين مميزات المساجد الإباضية أيضا خلوّها من عنصر المنبر الذي يعدّ دليلا لإقامة صلاة الجمعة، ولقد فُترونا هذه المسألة بعد الرجوع إلى الفكر الإباضي نفسه، حيث اكتشفنا أنّ رؤية الفقه الإباضي حول قضية صلاة الجمعة كانت السبب المباشر لغياب المنبر في المساجد الإباضية سواء داخل الجزائر أو خارجها مثل جبل نفوسة في ليبيا أو في جربة بتونس.

تعلو في المساجد المزابية مآذن ذات طراز هرمي الشكل، فجدرانها تميل في شكل انسيابي نحو الداخل وتضيق كلّما زادت في الارتفاع، وتعلو انطلاقا من القاعدة إلى قُمة الجوسق على شكل هيكل واحد. ويحنا وراء أصل ومنشأ هذا النمط المعماري، وصلنا إلى نتيجة مفادها أنّ مثذنة مسجد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في دومة الجندل كانت المصدر والمنبع الذي ارتوت منه كلّ المناطق الأخرى (اليمين وليبيا وتونس) التي انتشر فيها هذا النمط بقوة، ولم يكن توغّله في إفريقيا الغربية أو ما يعرف ببلاد السودان العربي قديما، إلّا بفضل القوافل التجارية الإباضية التي تنطلق من وادي مزاب في اتّجاه المنطقة.

لقد رأينا في ثنايا هذا البحث كيف كانت المصلّيات الجنائزية في أصلها مدارس حيث مارس بعض الشيوخ مهامهم في التدريس بعيدا عن مشاغل الدنيا، وذلك تقليدا لأسلافهم من الإباضية، فاختاروا من أجل ذلك مواقع بعيدة عن التجمّعات السكانية لبناء مدارسهم، وتطوّرت هذه المنشأة بعد وفاة الشيخ المدرّس ودفعه على مقربة من مدرسته، لتتحول هذه الأخيرة إلى مصلّى جنائزي بعد ضمّ قبور أخرى إلى جوار قبر الشيخ العالم، وهكذا تصبح مقبرة لعشيرته أو عرشه، فتتغيّر بذلك وظيفتها، فمن منشأة تعليمية تربوية إلى منشأة جنائزية تتمّ فيها وظائف ذات علاقة كبيرة بالميت. ولقد تمكّنّا من تمييز نوعين أو نمطين مختلفين من المصلّيات الجنائزية ضمن طراز المصلّيات المغطّاة وذلك اعتمادا على أسلوب وتقنية التسقيف، فميزنا بين تلك المغطّاة بالقباب والأخرى المغطّاة بالأقبية، كما لاحظنا وجود المصلّيات المكشوفة التي يحيط بها سياج جداري فقط، وتؤكد وظيفتها تلك العنزة المفتوحة في جدار القبلة.

يبدو أنّ خلو العناصر الدينية من كلّ أنواع الزخرفة (نباتية وهندسية وكتابية) يعود أساسا إلى عامل عقائدي، فالأحاديث النبوية الشريفة التي تحرّم زخرفة المباني الدينية وتدعو إلى البساطة والنقش في البناء قد لقت أذانا صاغية وواعية لدى جمهور فقهاء الإباضية، ومن ثمّ تجسّدت بكلّ ثقلها في العناصر الدينية بمزاب، وحول هذه المسألة طرحنا عدّة فرضيات لتساؤلات

عديدة تصبّ كلّها في النقلة المفاجئة للإباضية من فن راق في مجال الزخرفة بمدينة سدراته إلى فن متواضع بسيط في وادي مزاب يرفض كلّ أنواع الحليّات الزخرفية حتّى وإن كانت كتابية. وتعود هذه النقلة في نظرنا إلى سببين أساسيين: فكانت إمّا تعبيراً عن العودة بالدين إلى نقائه الأولي وإمّا بتأثر النازحين من الإباضية إلى وادي مزاب بالفكر المعتزلي المتشدّد في هذه القضية بعد احتكاكهم ببني مزاب الذين كانوا متشبّعين بالمذهب المعتزلي.

وكلّ ما عثرنا عليه من الزخارف في المنشآت الدينية الإباضية بمزاب آنية صغيرة مصنوعة من الفخار تزيّن إحدى قباب مسجد القرارة، ولوحتين حجريّتين تحملان نصّاً كتابياً يضمّ آية قرآنية وحديثاً نبيوياً شريفاً، وتمكّناً بفضل لوحة مسجد بنورة التعرّف على اسم أحد الخطّاطين المزابيين.

اعتمد البناء المزابي في إنجازهِ للمنشآت الدينية على كلّ ما توفّره له البيئة المحلية من موادّ قابلة للاستعمال في البناء، ولم يلجأ إلى استيراد المواد من مناطق مجاورة إلّا عند الضرورة القصوى.

فهرس الأشكال

- الشكل 1. الخريطة الطبوغرافية لوادي مزاب..... 36.
- الشكل 2. مخطط مسجد بني يزقن الذي وضعه شاخت..... 84.
- الشكل 3. مخطط أفقي لجامع أبي فتانة بتونس..... 90.
- الشكل 4. مخطط أفقي الجامع الكبير بسوسة التونسية..... 91.
- الشكل 5. مخطط أفقي لمسجد بنورة القديم..... 91.
- الشكل 6. مخطط أفقي لمسجد غرداية العتيق..... 92.
- الشكل 7. مسقط أفقي لمسجد القرارة العتيق..... 93.
- الشكل 8. مسقط أفقي لبيت صلاة النساء في مسجد بني يزقن..... 94.
- الشكل 9. مخطط أفقي للطابق الأرضي للمسجد الكبير ببني يزقن..... 96.
- الشكل 10. مخطط أفقي لسطوح مسجد بني يزقن العتيق..... 100.
- الشكل 11. مسقط أفقي لمصلى سيدي إبراهيم..... 109.
- الشكل 12. مسقط أفقي لمصلى با أحمد، بني يزقن..... 111.
- الشكل 13. غرداية مسقط أفقي لمصلى عمي سعيد..... 113.
- الشكل 14. غرداية، مسقط أفقي لمصلى بابيه أو الجمعة..... 115.
- الشكل 15. بني يزقن، مسقط أفقي لمصلى الشيخ بالحاج الشرقي..... 116.
- الشكل 16. بني يزقن، مسقط أفقي لمصلى الشيخ بالحاج الغربي..... 117.
- الشكل 17. غرداية، مسقط أفقي لمصلى باعيسى أو علوان..... 121.
- الشكل 18. بني يزقن، مخطط أفقي لمصلى الشيخ بأحمد..... 122.
- الشكل 19. مقطع عمودي و منظر خارجي لمئذنة جامع غرداية العتيق..... 142.
- الشكل 20. منظر خارجي ومقطع عمودي لمئذنة مسجد بني يزقن العتيق..... 143.
- الشكل 21. منظر خارجي ومقطع عمودي لمئذنة مسجد القرارة العتيق..... 144.
- الشكل 22. منظر خارجي ومقطع عمودي لمئذنة مسجد بريان..... 144.
- الشكل 23. مسقط أفقي لمئذنة مسجد بنورة لقديم..... 151.
- الشكل 24. رسم يمثل تقنيات التسقيف المستخدمة في مزاب..... 163.

فهرس الصور

- الصورة 1. جامع الأموي بدمشق..... 21
 الصورة 2. قبة الصخرة بالقدس..... 21
 الصورة 3. العراق، جامع الكبير بسمراء..... 22
 الصورة 4. مصر، جامع ابن طولون بالقاهرة..... 22
 الصورة 5. جامع الأزهر بالقاهرة..... 23
 الصورة 6. جامع الحاكم بالقاهرة..... 23
 الصورة 7. تونس، الجامع الكبير بالقيروان..... 24
 الصورة 8. إسبانيا، الجامع الكبير بقرطبة..... 24
 الصورة 9. إيران، المسجد الجامع بأصفهان..... 25
 الصورة 10. إستانبول، جامع السلمانية..... 26
 الصورة 11. الهند، مسجد جاما ببلهي..... 27
 الصورة 12. صورة جوية لوائي مزاب مأخوذة من Google Aert..... 36
 الصورة 13، 14، 15، 16. نماذج من الرسوم الصخرية بوادي مزاب..... 38
 الصورة 17. العطف بقايا أثرية لقصر تالزديت..... 43
 الصورة 18. منظر عام لمدينة العطف (تاجنيت)..... 47
 الصور 19، 20: بقايا أثرية لقصر بنورة القديم..... 48
 الصورة 21. منظر عام لمدينة بنورة (أت بنور)..... 49
 الصورة 22. منظر عام لمدينة غرداية (تفردايت)..... 50
 الصورة 23. منظر عام لمدينة بني يزقن (أت يسجن)..... 51
 الصورة 24. منظر عام لمدينة مليكة (أت مليشت)..... 53
 الصورة 25. منظر عام لمدينة القارة..... 54
 الصورة 26. منظر عام لمدينة بريان (أت إبرقان)..... 56
 الصورة 27. منظر خارجي لمسجد بنورة العتيق (القرن 11م)..... 80
 الصورة 28. منظر خارجي لمسجد غرداية العتيق..... 81

- الصورة 29. منظر لصحن مسجد غرداية العتيق (بداية القرن 20)..... 82
 الصورة 30. منظر خارجي لمسجد بني يزقن..... 83
 الصورة 31. منظر لمسجد بني يزقن من الداخل..... 84
 الصورة 32. جدار القبلة في مسجد بني يزقن..... 85
 الصورة 33. منظر للمسجد العتيق بالقرارة..... 86
 الصورة 34. البلاطة الوسطى المستعرضة في مسجد القرارة..... 87
 الصورة 35. منظر يوضح اختلاف المستويات الأرضية داخل بيت الصلاة (مسجد غرداية العتيق)..... 93
 الصورة 36. صحن مسجد بني يزقن..... 96
 الصورة 37. صحن مسجد القرارة العتيق..... 97
 الصورة 38. سطح مسجد غرداية..... 98
 الصورة 39. سطح مسجد القرارة..... 98
 الصورة 40، 41. نماذج من سطوح مسجد بني يزقن..... 99
 الصورة 42. تقسيم أرضية السطح إلى أحواض..... 101
 الصورة 43. منظر خارجي لمصلى سيدي إبراهيم..... 109
 الصورة 44. منظر عام للمصلى الجنائزي بأمحمد، بني يزقن..... 111
 الصورة 45. منظر عام للمصلى الجنائزي عتي سعيدي (غرداية)..... 113
 الصورة 46. غرداية، منظر عام للمصلى الجنائزي بابيه بن الجمة..... 115
 الصورة 47. بني يزقن، منظر لمصلى الشيخ بالحاج الشرقي..... 116
 الصورة 48. بني يزقن، منظر لمصلى الشيخ بالحاج الغربي..... 117
 الصورة 49. غرداية، منظر خارجي لمصلى باعيسى أو علوان..... 121
 الصورة 50. بني يزقن، منظر عام لمصلى الشيخ باسمه أو فضل..... 122
 الصورة 51. بني يزقن، منظر لصحن مصلى الشيخ بأنحنند..... 123
 الصورة 52. مسجد بني يزقن..... 130
 الصورة 53. مسجد غرداية العتيق..... 130

- الصورة 54. مسجد غرداية العتيق.....130
 الصورة 55. مصلى بالمحمد.....130
 الصورة 56. مصلى عتي سعيد.....131
 الصورة 57. مسجد بنورة القديم.....131
 الصورة 58. مصلى سيدي إبراهيم.....131
 الصورة 59. مسجد غرداية العتيق.....131
 الصورة 60. محرابا صحن مسجد غرداية العتيق.....135
 الصورة 61. إحدى مآذن الجامع الأموي بدمشق.....138
 الصورة 62. منمنمة الملوية بالجامع الكبير بسامراء.....138
 الصورة 63. منمنمة جامع ابن طولون بالقاهرة.....138
 الصورة 64. منمنمة الجامع الكبير بالقيروان.....138
 الصورة 65. منمنمة مسجد قلعة بني حماد.....139
 الصورة 66. منمنمة جامع الكتبية براكش.....139
 الصورة 67. إحدى مآذن جامع الأزهر بالقاهرة.....140
 الصورة 68. إحدى مآذن جامع السلیمانیة بإستانبول.....140
 الصورة 69. مقطع عمودي و منظر خارجي لمنمنة جامع غرداية العتيق.....142
 الصورة 70. منظر خارجي ومقطع عمودي لمنمنة مسجد بني يزقن العتيق.....143
 الصورة 71. منظر خارجي ومقطع عمودي لمنمنة مسجد القنطرة العتيق.....144
 الصورة 72. منظر خارجي ومقطع عمودي لمنمنة مسجد بريان.....144
 الصورة 73. منمنة مسجد عمر بن الخطاب.....145
 الصورة 74. منمنة جامع أزولوز بجانت.....146
 الصورة 75. منمنة جامع القصر بتيميمون.....147
 الصورة 76. تومبوكتو؛ منمنة جامع تومبوكتو.....148
 الصورة 77. منمنة جامع أغاديس.....148
 الصورة 78. منمنة جامع سنكوري.....149

- الصورة 79. المنمنة الأولى لمسجد غرداية العتيق.....151
 الصورة 80. منمنة مسجد قصر بنورة القديم.....151
 الصور 81، 82، 83: أنواع العقود الحدوية داخل بيوت الصلاة في مسجد مزاب :
 الصور 81. مسجد غرداية العتيق.....156
 الصورة 82. مسجد بني يزقن العتيق.....156
 الصورة 83. مسجد القنطرة العتيق.....156
 الصور: 84، 85، 86، 87، 88: أنواع العقود نصف دائرية في مزاب:.....157
 الصورة 84. المصلى الجنائزي باسمه بن فضل.....157
 الصورة 85. المصلى الجنائزي عتي سعيد.....157
 الصورة 86. مسجد بني يزقن.....157
 الصورة 87. مصلى سيدي إبراهيم.....157
 الصورة 88. مسجد غرداية.....157
 الصورة 89. أعمدة صحن مسجد غرداية.....158
 الصورة 90. دعامات بيت الصلاة بمسجد بني يزقن.....159
 الصورة 91. دعامات بيت الصلاة بمسجد غرداية.....159
 الصورة 92. دعامات بيت الصلاة بمسجد القنطرة.....160
 الصور 93، 94: أنواع الكوات النافذة والغير النافذة في ميزاب:.....162
 الصورة 93. مصلى سيدي إبراهيم، العطف.....162
 الصورة 94. في مصلى عمي سعيد، غرداية.....162
 الصورة 95. تقنية التغطية بجذوع الأشجار بمسجد غرداية.....164
 الصورة 96. التغطية بجذوع الأشجار بالمصلى الجنائزي عتي سعيد.....164
 الصورة 97. التقنية التغطية بجذوع النخيل بمسجد بني يزقن.....165
 الصورة 98. تقنية التغطية بجذوع الأشجار.....165
 الصورة 99. قبة غرفة تسخين المياه بمسجد غرداية.....167
 الصورة 100. نقيشة حجرية مسجد بنورة.....171
 الصورة 101. نقيشة حجرية مسجد غرداية.....171

قائمة المصادر والمراجع

I- المصادر والمراجع العربية

- القرآن الكريم؛ رواية ورش عن الإمام نافع.
- 1- إبراهيم أبو اليقظان: عنوان الحضارة فيما يتعلق بأحوال بلد القرارة، مخطوطة.
- 2- إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط 2، جمعية التراث، القرارة 1993.
- 3- إبراهيم زكرياء: فلسفة الفن، دار مصر للطباعة، القاهرة 1979.
- 4- ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم: الكامل في التاريخ، ج: 1، ط: 5، دار الكتاب العربي، بيروت، 1985.
- 5- أحمد بن سعيد الشماخي: كتاب السير، طبعة حجرية، القاهرة 1884.
- 6- أحمد فكري: المسجد الجامع بالقيروان، مطبعة المعارف ومكتبتها، القاهرة 1965.
- 7- إرنست كونيل: الفن الإسلامي، تر: أحمد موسى، دار صاندر، بيروت 1966.
- 8- أسامة النحاس: عمارة الصحراء، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت.
- 9- أوقطاي أصلان آبا: فنون الترك وعماثرهم، تر: أحمد محمد عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول 1987.
- 10- أحمد بن يوسف أطفيش: الرسالة الشافعية، مخطوطة بمكتبة الحاج صالح لعلي ببن يزن.
- 11- بشير الحاج موسى: سعيد بن علي بن يحيى الخيري الجربي، مخطوط مرقون، غرداية 2000.
- 12- بكير بن سعيد أوعشت: دراسات في الأصول الإباضية، ط: 1، مطبعة البعث، قسنطينة 1982.
- 13- بكير بن سعيد أوعشت: وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية، دينيا، تاريخيا، اجتماعيا، المطبعة العربية، غرداية 1991.
- 14- توفيق حمد عبد الجواد: تاريخ العمارة والفنون الإسلامية، ج: 3، القاهرة 1970.
- 15- ثروت عكاشة: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار المعارف، القاهرة 1981.

- 16- جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، مدخل إلى التاريخ والفكر الإباضي من خلال تراجم لأكثر من ألف علم من أعلام المغرب الإسلامي منذ القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، مج: 2، 3، 4، المطبعة العربية، غرداية 1999.
- 17- حسن باشا: مدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة 1979.
- 18- الحمد عبد القادر شيبه: فقه الإسلام شرح بلوغ المرام في جمع أدلة الأحكام للحافظ أبي حجر العسقلاني، ج: 3، ط: 2، مطابع المدينة، الرياض، د.ت.
- 19- خير الدين واثلي: المسجد في الإسلام، أحكامه، آدابه، بدعه، ط 4، المكتبة الإسلامية، عمان 1998.
- 20- رؤوف الأنصاري: عمارة المساجد، ط: 1، دار النبوغ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1996.
- 21- رثيف مهنا ويسن بحر: نظريات العمارة، الكتاب الأول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1992.
- 22- أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تر: عبد الرحمان أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس 1985.
- 23- زكي الدين عبد العظيم المنذري: مختصر مسلم، ط 1، تح: محمد ناصر الدين الألباني، قصر الكتاب، البلدة 1411هـ.
- 24- زكي محمد حسن: في الفنون الإسلامية، دار الرائد العربي، بيروت 1981.
- 25- سالم يعقوب: تاريخ جزيرة جربة، دار الجويني للنشر، تونس 1986.
- 26- سريال النريد: الفن المصري القديم، تر: أحمد زهير، وزارة الثقافة هيئة الآثار المصرية، القاهرة 1990.
- 27- سعاد ماهر: مساجد من السيرة النبوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987.
- 28- سعيد بن علي بن يحيى بن يدر بن سليمان بن عثمان الجربي: رسالة إلى عثمان، مخطوطة في مكتبة الشيخ صالح لعلي ببن يزن، غرداية.

- 29- التمهودي: الوفاء بما يجب على حضرة المصطفى، ضمن كتاب رسائل في تاريخ المدينة، الرياض 1972.
- 30- أبو صالح الألفي: الفن الإسلامي، أصوله، فلسفته، مدارسه، ط: 2، دار المعارف بمصر، القاهرة 1967.
- 31- ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تح: محمد الناصر، بحاز إبراهيم، المطبوعات الجميلة، الجزائر 1986.
- 32- أبو الطاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي: قناطر الخيرات، تصحيح وتعليق عبد الرحمن بكلي ط: 1، المطبعة العربية، غرداية 1976.
- 33- أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني: كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تح إبراهيم طلاي، ج: 2-1، مطبعة البعث، قسنطينة 1972.
- 34- عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج: 7، دار العلم للجميع، بيروت، د.ت.
- 35- عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار العودة، بيروت د.ت.
- 36- عبد المعطي محمد: الإبداع الفني وتنوع الفنون الجميلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1985.
- 37- عفيف بهنسي: الفن العربي الإسلامي في بداية تكوينه، دار الفكر، القاهرة د.ت.
- 38- علي مسعودي البلوشي وآخرون: موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا، ج: 2، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، يوليو 1989.
- 39- علي بن موسى (ابن سعيد المغربي): كتاب الجغرافية، تح: إسماعيل العربي، ط: 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982.
- 40- علي يحيى معمر: الإباضية دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم، المطبعة العربية، غرداية 1985.
- 41- علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ج: 2، الحلقة الثانية، غرداية 1985.

- 42- علي يحيى معمر: الإباضية مذهب إسلامي معتدل، بكير أحمد بن مسعود المياشي، ط: 3، المطبعة العربية، غرداية 1994.
- 43- عمرو بن مسعود الكباري أبو القاسم: الربيع ابن حبيب محدثا، المطبعة العربية، غرداية 1994.
- 44- عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، مطابع دار الشعب 1982.
- 45- عوض خليفات: الأصول التاريخية للفرقة الإباضية، غسان، د.ت.
- 46- عوض خليفات: النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقيا في مرحلة الكتمان، ط: 1، عمان 1982.
- 47- فرحات الجعبري: البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية، ج: 1، جمعية التراث، القرارة 1987.
- 48- فرحات الجعبري: نظام العزّاية عند الإباضية الوهبية في جربة، المعهد القومي للآثار والفنون، المطبعة العصرية، تونس 1875.
- 49- كمال الدين سامح: العمارة في صدر الإسلام، دار نهضة الشرق للطباعة والنشر، القاهرة 2000.
- 50- محمد بن شامس البطاشي: سلاسل الذهب في الأصول والفروع والأدب، ج: 3، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، د.ت.
- 51- أبو محمد عبد الله بن حميد السالمي: كتاب شرح طلعة الشمس على الألفية مطبعة الموسوعات، د.ت.
- 52- محمد القيسي: المساجد بين الابتاع والابتداع، دار القلم، الجزائر د.ت.
- 53- محمد محمد الكحلوي: عرائر الموحدين الدينية بالمغرب، رسالة دكتوراه الدولة زطبوعة، كلية علم الآثار، جامعة القاهرة 1986.
- 54- ابن منظور محمد بن مكرم بن علي: لسان العرب، ج: 1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت 1968.

- 55- محمد حمزة إسماعيل الحداد: القباب في العمارة المصرية الإسلامية للقبية المنقوشة، نشأتها وتطورها حتى نهاية العصر المملوكي، ط: 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1993.
- 56- محمد حمزة إسماعيل الحداد: المنخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، مطبعة نهضة الشرق، القاهرة 1995.
- 57- محمد علي ديوز: تاريخ المغرب الكبير، ج 3، ط: 1، دار إحياء الكتب العربية، بيروت 1963.
- 58- محمد ناصر الدين الألباني: أحكام الجنائز وبدعها، دمشق 1968.
- 59- محمود إبراهيم حسين: المآذن اليمينية دراسة أثرية فنية، دار الثقافة العربية، القاهرة 1991.
- 60- موسى لقبال: المغرب الإسلامي، ط: 1، مطبعة البعث، قسنطينة 1969.
- 61- يوسف الحاج سعيد: تاريخ بني مزاب دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، المطبعة العربية، غرداية 1992.

II- الأطروحات والرسائل الجامعية

- 1- رياض المرابط: جوامع ومساجد جزيرة جربة في العصورين الحفصيين والمراديين دراسة أثرية وتاريخية، رسالة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم للتاريخ، تونس 1996.
- 2- عبد الرحمان حسب الله الحاج أحمد: جماعات الخوارج في بلاد المغرب حتى القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراه الدرجة الثالثة في الآداب، كلية البنات، جامعة عين شمس، القاهرة 1987.
- 3- عمر سليمان بوعصبانة: معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان، رسالة ماجستير جامعة الجزائر، المعهد الوطني لأصول الدين، الجزائر 1992.

- 4- الفوئي سيدي محمد بسنوسي: الأصول العميقة لمعايير التناسق في العمارة الدينية الإسلامية بالمغرب العربي، رسالة دكتوراه دولة، قسم الثقافة الشعبية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان 2000.
- 5- مسعود مزهودي: الإباضية في المغرب منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة الهلاليين إلى بلاد المغرب، ج 1، رسالة الماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، القاهرة 1988.
- 6- محمد التريكي وخالد البوزيدي: المعمار والممارسة الاجتماعية، مزاب بين الماضي والحاضر، رسالة دكتوراه الدرجة الثالثة، المعهد التكنولوجي للفنون والهندسة المعمارية، تونس 1989.
- 7- نور الدين بن عبد الله: الحلي التقليدية لطوارق الهقار دراسة فنية، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان 2001.

III- المجلات والدوريات

- 1- إحسان عباس: "المجتمع التاهرتي في العهد الرستمي"، مجلة العلم والإيمان، عدد 31 و32 تونس 1972، ص: 60-80.
- 2- إبراهيم بحاز: "الميزابيون المعتزلة - قراءة جديدة لنصوص قديمة"، مجلة الحياة، عدد: 1، المطبعة العربية، نشر جمعية التراث القرارة، غرداية جانفي 1998، ص: 133-124.
- 3- محمد حمزة إسماعيل الحداد: «المصطلحات الجنائزية في العمارة المصرية العربية - دراسة أثرية - (تحليلية مقارنة) وثائق تاريخية»، مجلة كلية الآثار، عدد: 8، مطبعة جامعة القاهرة 2000، ص: 145-244.
- 4- يوسف أبو عواد: «دومة الجنادل التاريخ والمآذر (مدينة والتاريخ)»، مجلة الفيصل، عدد 89، أوت 1989، ص: 20-29.
- 5- وثيقة حول ترميم مسجد بنورة القديم من ديوان وادي مزاب.

- 14- Henri Terrasse: Kasbas Berbères de l'Atlas et des Oasis, Ed des Horizons de France, Paris 1938.
- 15- Henri Stierlin: l'Architecture de l'Islam, Office du Livre, Fibourg 1979.
- 16- Laïbi Shaker: Soufisme et l'Art Visuel Iconographie du Sacré, l'Harmattan, Paris 1998.
- 17- Lucien Golvin: Essai sur l'Architecture Religieuse Musulmane, T 3, Ed Klincksieck, Paris 1974.
- 18- Lucien Golvin: La Mosquée, Ses Origines, Sa Morphologie, Ses Divers Fonctions, Son Rôle dans la vie Musulmane plus Spécialement en Afrique du Nord, Institut d'Etudes Supérieures Islamiques d'Alger, Alger 1960.
- 19- L. Millot: Recueil de Délibération des Djmaas du M'zab, Extrait de la R.d'Etudes Islamiques, Librairie Orientale, Paul Gautier, Paris 1930.
- 20- Lieutenant D'Armignac: Le M'zab et le Pays du Chaamba, Baconnier, Alger 1934.
- 21- Manuelle Roche: Le M'zab, Arthaud, Paris 1970.
- 22- Marcel Mercier: La Civilisation Urbaine au M'zab, la Mystérieuse Ghardaïa, Ed P.A.G Soubiron, Alger 1932.
- 23- Marth et Edmond Gouvion: Kharidjisme Monographie du M'zab, Imprimerie vie Marocaine, Casablanca, Paris, 1926.
- 24- Natascha Kubisch; Art et Civilisation de l'Islam «Espagne et Maroc (8é-15é) Architecture», Konemann, Cologne, 2000.

IV- المراجع الأجنبية

- 1- A. Coyne: Le M'zab, Ed: Adolphe Jourdan, Alger 1879.
- 2- André Ravéreau: le M'zab une Leçon d'Architecture, Ed: Sindbad, Paris 1981.
- 3- Ara Altun: Ortaçağ Türk Mimarisinin Anahtarı, İçin bir Özet, Arkeoloji ve Sanat Yayinevi, Istanbul 1988.
- 4- C et P Donnadicu/H et J.M Didillon: Habiter le désert, Les Maisons Mozabites, 3^eEd, Ed Pierre Mardaga, Bruxelles 1986.
- 5- Charles Kleincknecht: Monographie de L'Arrondissement de Ghardaïa, s.d.
- 6- Dr Charles Amat: Le M'zab et les Mozabites, Ed Challamel et Cie, Paris 1888.
- 7- E.Masqueray: Formation des Cités Chez les Populations Sédentaires de l'Algérie (Kabyles du Djurdjura, Chaouia de l'Aourés, Beni_Mzab), Thèse lettres, Leroux, Paris 1886.
- 8- Elie Lambert: L'Art Musulman d'Occident des Origines à la Fin du XV^e Siècle, Société d'E'dition d'Enseignement, Paris 1966.
- 9- Faik Reşit Unat: Hicri Tarihleri Miladi Tarihe Çevirme kılavusu, 6^e Ed, Türk Tarih Kurumu Basımevi, Ankara 1988.
- 10- Joël Abonneau: Préhistoire du M'zab, Thèse de 3^eme Cycle en Archéologie, Paris I Sorbonne, 1983.
- 11- J.Milia: Ghardaïa, Paris 1930.
- 12- Georges Marçais: L'Art Musulman, 1^{er} Ed, Presse Universitaire de France, Paris 1962.
- 13- José Gers: Au M'zab Désert dans le désert, Bruge: Librairie de l'œuvre Saint Charles, Paris 1936.

- 5 - J.Huguet: «Le Pays du M'zab» in Bull de la Société de Géographie d'Algérie, Imprimerie Typographique et Lithographique Sélion, Alger 1898, pp:169-185.
- 6 - Joseph Schacht: «Notes Mozabites» in Andalus, N°22, Paris 1957, pp:1-20.
- 7 - Joseph Schacht: «la Diffusion des Formes Architectural» In T.I.R. S, Paris 1957, pp:11-27.
- 8 - Louis David: Les Mechaichs du M'zab, Beni-Isgen et ses Mechaichs, Manuscrit Dactylographié.
- 9 - Louis David: Les Mechaichs du Mz'ab, Ghardaia, ses Mechaichs, Manuscrit Dactylographié.
- 10 - Louis Watin: «Les Tolbas du M'zab, 2^e Organisation Actuelle» In Archives de la Direction du personnel des Territoire du Sud 1913, pp:1-19.
- 11 - M.Cauvet: «Les Marabouts Petits Monuments Funéraires et Votifs du Nord de l'Afrique» In R.Africaine, T64, Alger 1923 pp: 274-328 et 448-521.
- 12 - M.Zeys: «Voyage d'Alger au M'zab» In Tour du Monde, Paris 1891, pp: 289-320.
- 13 - Marcel Mercier: «Notes Sur une Architecture Berbère Saharienne», In Hespéris, Vol VIII, 1928, pp: 413-429.
- 14 - Motylinski: «Notes Historiques sur le M'zab; Guerara depuis sa fondation», In R.Africaine, O.P.U, Alger 1884, pp: 372-391 et pp: 401-447.
- 15 - Yves Bonnet: «Notes sur l'Architecture Religieuse du M'zab» In Cahier des Arts et Techniques, N°6 Toulouse 1960.

- 25- Pierre Roffo: Contribution à l'Etude de la Préhistoire du Sahara Septentrional, Ancienne Imprimerie, Alger 1934.
- 26- Rachid Bourouiba: Apport de l'Algérie à l'Architecture Religieuse Arabo-Islamique, O.P.U, Alger 1986 .
- 27- Robert Irwin: Le Monde Islamique, Trad Denis- Armond Canak, Ed Flammarion, Hong Kong 1997.
- 28- Robin (Commandant): Le M'zab et son Annexion à la France, Ed Typographie Adolphe Jourdan, Alger 1884.
- 29- Ulya Vogt Göknil: Grands Courants de l'Architecture Islamique, Mosquée, Trad: F et B Wauthier-Wurmser, Chêne, Lausanne 1975.
- 30- Ville: Exploration Géologique du Beni; M'zab du Sahara et de la Région des Steppes de le Province d'Alger, Paris, 1872.

V - الأطروحات والمجلات الأجنبية

- 1- Baelhadj Marouf: Cezayir'de Merkezi Kubbeli Camiler- Osmanlı Dönemi- Thèse de Magister, Université d'Istanbul, Faculté des Lettres, Département d'Histoire de l'Art ,Istanbul 1991.
- 2 - Willems Didier: Recherches sur Quelques Grandes Mosquées du M'zab et du Soudan Central, Paris 4, Sorbonne, Thèse de D.E.A, Institut d'Histoire de l'Art et d'Archéologie, Paris 1991. .
- 3 - C.M.Vigouroux: «la Garde de Nuit à Ghardaia» In Bull de Liaison Saharienne, N° 9, 05/1952, pp: 9-16.
- 4 - J.Huguet: «Les Villes Mortes du M'zab» in Bull et Mémoires de la Société d'Ethnographie, 1909, pp: 583-590.

الفهرس

7.....	المقدمة
13.....	الفصل الأول: مفاهيم عامة
15.....	I - مفهوم العمارة
17.....	II - العمارة الإسلامية
21.....	1- الطراز الأموي
21.....	2- الطراز العباسي
23.....	3- الطراز المصري السوري
24.....	4- الطراز المغربي الأندلسي
25.....	5- الطراز الإيراني
26.....	6- الطراز التركي
27.....	7- الطراز الهندي
28.....	8- أنواع المنشآت الدينية
28.....	8-1- المساجد
28.....	8-2- المدارس
28.....	8-3- الأضرحة
28.....	8-4- الخوانق
29.....	8-5- الأسبلة
29.....	8-6- الأربطة
29.....	II - النسيج العمراني لمدن المزاب
30.....	1- هيكل المدينة المزابية
31.....	2- التركيب العمراني لمدينة المزابية
33.....	الفصل الثاني: تاريخ وحضارة بني مزاب
35.....	I - تاريخ منطقة وادي مزاب

- 1- الإطار الجغرافي..... 35
- 1-1- الموقع..... 35
- 2-1- التركيبة الجيولوجية..... 36
- 3-1- المناخ..... 37
- 2- مزاب قبل النزوح الإبااضي..... 38
- 1-2- قصر بُوْكَيَاو..... 41
- 2-2- قصر أَقْنُونَاي..... 42
- 3-2- قصر ثَلَاث..... 42
- 4-2- قصر يَرْثِيين..... 42
- 5-2- قصر مُورَكِي..... 42
- 6-2- قصر تَافَلَالَت..... 42
- 7-2- قصر الأَخْنَش..... 42
- 8-2- قصر ثَمِيْزَرَت..... 43
- 9-2- قصر أَغْرَم فُودَاي..... 43
- 10-2- قصر تَالْزَيْيْت..... 43
- 3- النزوح الإبااضي وتأسيس مدن مزاب..... 44
- 4- نشأة مدن وادي مزاب السبع..... 46
- 1-4- العطف (تَاجِينِيْنَت)..... 47
- 2-4- بنورة (أَت بُوْر)..... 48
- 3-4- غرداية (تَغْرَدَايْنَت)..... 49
- 4-4- بني يزقن أو بني يسجن (أَت يَنْجَن)..... 51
- 5-4- مليكة (أَت مَلِيْشَت)..... 53
- 6-4- القرارة..... 53
- 7-4- بَرْيَان..... 56
- 5- الوضع السياسي بمزاب..... 57
- II- التنظيم الاجتماعي في مدن مزاب..... 61
- 1- الأنظمة المدنية..... 61
- 2- الأنظمة الدينية..... 61
- 1-2- نظام العزابة..... 61

- 2-2- المجلس الأعلى للعزابة..... 66
- 3-2- هيئة إروان (قدماء القلاميذ)..... 67
- 4-2- هيئة إمسوردان (الشباب)..... 67
- 5-2- هيئة تمسردين (الغسلات)..... 68
- 71.....
- الفصل الثالث: مساجد مزاب.....
- دراسة من ناحية التصميم المعماري.....
- I- المساجد..... 73
- 1- تعريف المسجد..... 73
- 2- نشأة المسجد وتطوره..... 74
- 3- مساجد مزاب..... 79
- 1-3- تاريخ مساجد مزاب..... 79
- 2-3- من ناحية الموقع..... 88
- 3-3- من ناحية التصميم..... 89
- 103.....
- الفصل الرابع: المصليات الجنائزية بمزاب.....
- I- مفهوم المصلى الجنائزي ونشأته..... 105
- 1- المصليات الجنائزية بمزاب..... 106
- 1-1- تاريخ بعض النماذج..... 107
- 1-2- وظيفة المصليات الجنائزية في مزاب..... 117
- 1-3- دراسة تحليلية وتنميطية لمصليات مزاب الجنائزية..... 120
- 127.....
- الفصل الخامس: العناصر المعمارية والزخرفية في العمارة المزابية.....
- I- العناصر المعمارية..... 129
- 1- المحراب..... 129
- 2- المئذنة..... 137
- 3- المنبر..... 153
- 4- العقود..... 154

155.....	أ- العقد الحدودي
157.....	ب- العقد النصف دائري
158.....	5- الحوامل والركائز
161.....	6- الفتحات
162.....	7- الكوّات
163.....	8- وسائل التغطية
163.....	أ- سقوف مسطحة
166.....	ب- الأقبية
166.....	ج- القباب
168.....	9- المداخل
169.....	II - الزخرفة
169.....	1- الزخرفة الهندسية
170.....	2- الزخرفة الكتابية
171.....	3- الشرافات
173.....	4- القيم الجمالية في العمارة المزابة
175.....	5- مسألة خلو العنائر الدينية من الزخرفة
177.....	III - مواد البناء
178.....	1- الحجارة
178.....	2- التمشنّت
179.....	3- الجير
180.....	4- الخشب
183.....	الخاتمة
191.....	فهرس الأشكال
192.....	فهرس الصور
196.....	قائمة المصادر والمراجع
207.....	الفهرس

صدر هذا الكتاب بدعم من
وزارة الثقافة في إطار الصندوق
الوطني لترقية الفنون والآداب.

